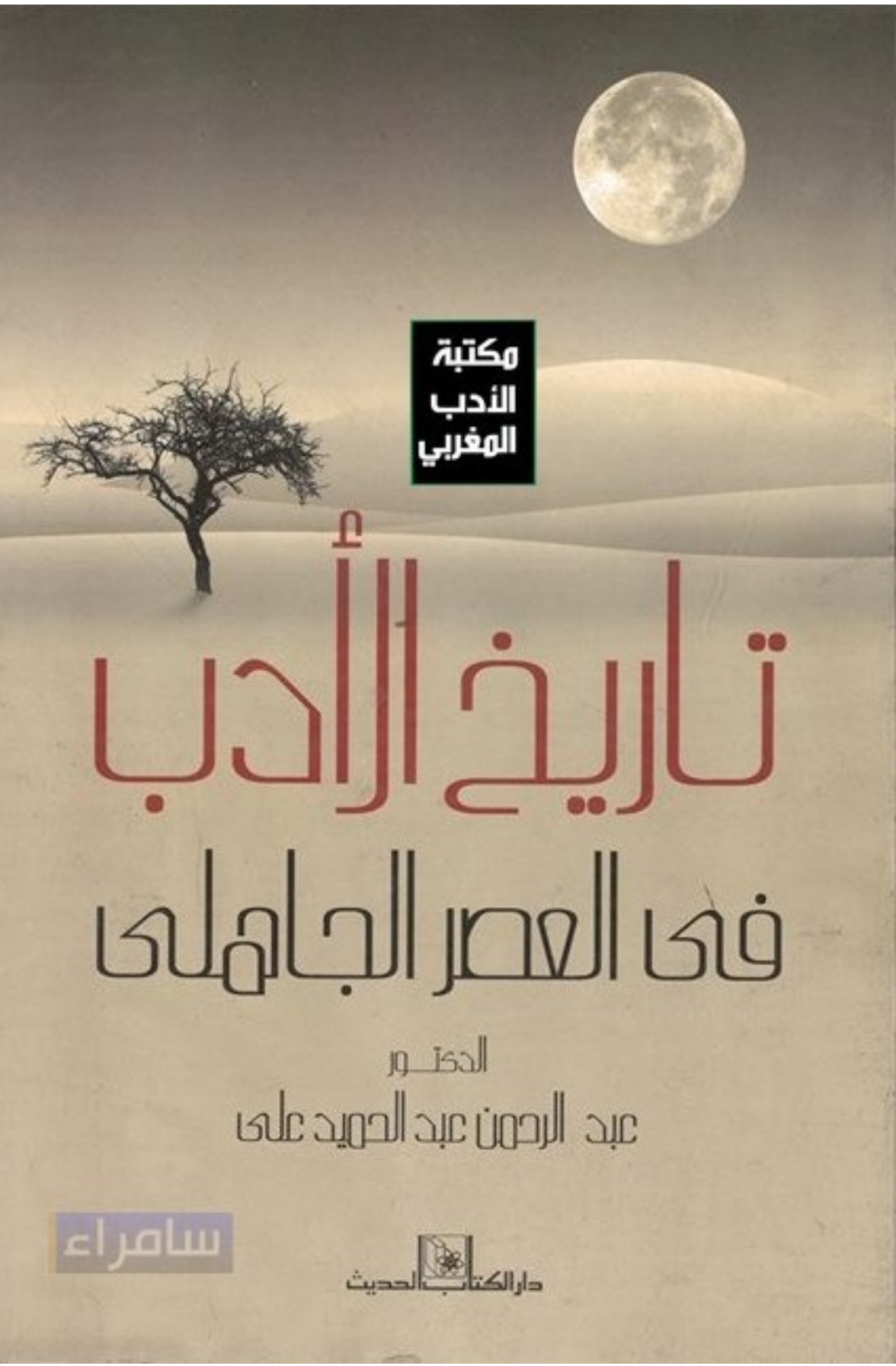
مكتبة
الأدب
المغربي
تاريخ الأدب
في العصر الجاهلي
الدكتور
عبد الرحمن عبد الحميد علي
سامراء
دار الكتاب الحديث

تاريخ الأدب
في العصر الجاهلي

الأستاذ الدكتور
عبد الرحمن عبد الحميد على
عميد كلية اللغة العربية بالزقازيق (سابقا)

دار الكتاب الحديث

حقوق الطبع محفوظة

1428 هـ / 2008 م

القاهرة	94 شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم : 22752990 (00 202) فاكس رقم : 22752992 (00 202) بريد إلكتروني : dkh_cairo@yahoo.com
الكويت	شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 – 13088 الصفاه هاتف رقم 2460634 (00 965) فاكس رقم : 2460628 (00 965) بريد إلكتروني : ktbhades@ncc.moc.kw
الجزائر	B. P. No 061 – Draria Wilaya d'Alger– Lot C no 34 – Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail dkhadith@hotmail.com
رقم الإيداع	2007/17440
I.S.B.N	977-350-161 - 2

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد.... فهذا الكتاب يوضح فى جلاء تراثنا الفكرى فى العصر الجاهلى، وقد حرصت على ذكر الكثير من النصوص التى تدعم ما ذهبنا إليه من آراء وما ناقشنا من قضايا، متوخيا الإيجاز وسهولة الأسلوب، حتى يرى القارئ مكنون اللغة العربية وآدابها فى القديم فى صور واضحة، وأساليب رائعة، عليها مسحة الأصالة والبلاغة والبيان.

وقد عرضت فى هذا الكتاب الكثير من الآراء حول الشعر الجاهلى، ونثره وفضل المستشرقين فى إبراز تاريخ الأدب العربى.. وعرضت كذلك لقضية انتحاله، وهل له قيمة فى العصر الحديث؟ والنقاد الذين أدلوا بدلوهم فى قضية الانتحال... إلخ، وكل هذا فى ثوب جديد يليق بنسمات العصر الحديث.

والله أسال أن يوفقنا إلى الصواب، والحمد لله، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله....

المؤلف

عبد الرحمن عبد الحميد على

عميد كلية اللغة العربية بالزقازيق (سابقا)

الباب الأول

الفصل الأول

موطن العرب

فى أقصى الغرب من آسيا، وفى مساحة من الأرض تبلغ حوالى ثلاثة ملايين كيلو متر وجد العرب، وتستحق الوحدة الجغرافية الواضحة التى تشكلها الجزيرة العربية أن نسميها قارة، إنها شبيهة بالمنحرف، تحيط بها المياه من ثلاث جهات[1]. وإذا أردنا تحديد شبه جزيرة العرب من الوجهة الجغرافية نجد أنه يحدها من الشمال - العراق والشام، ومن الشرق الخليج الفارسى وبحر عمان، ومن الجنوب المحيط الهندى ومن الغرب البحر الأحمر.

فالمحيط العربى مؤلف إذًا بصورة إجمالية من لوحة تتخللها بعض الحواجز الجبلية التى تغير من رتابتها، ففى الغرب على محاذاة البحر الأحمر تقع بلاد عسير، ثم الحجاز، وفى الوسط حتى صحراء الدهناء فى الجنوب الشرقى، وحتى جبلى أجا وسلمى المعروفين بشمر وفى الشمال تقع نجد، وهى مرتفع فيه صحار وجبال، وقاع عظيم، وهو وادى رمة الذى يمتد حتى أسفل العراق، فيجتازها من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى وفى شمال نجد تمتد صحراء النفوذ، التى تصلها ببلاد ما بين النهرين وسورية، وسهول السماواة باتجاه الفرات، وبادية الشام باتجاه تدمر[2].

ومناخ الجزيرة حار شديد القيظ، ولهذا وجدنا الجفاف يمتد فى أرجائها، وتهطل الأمطار فى فصل الربيع والشتاء، فينتشر الخصب معلنا ظهور الكلأ، الذى تعيش عليه إبلهم ومواشيهم.

أقسام الجزيرة العربية:

أقسام الجزيرة ليست متساوية، وتختلف اختلافا بينا عن بعضها.

وأقسامها هى: اليمن، والحجاز، وتهامة، ونجد، والعروض.

---

(1) جزيرة العرب: جان جاك بيربى ص 14 ط بيروت.

(2) تاريخ الأدب العربى، بلاشير. ص 20 - 21 ط دار الفكر.

الحجاز:

ويقع شمال اليمن وشرقى تهامة، ويتكون من عدة أودية تتخلل سلسلة جبال السراة الممتدة إلى نجران فى اليمن[1].

وهذا القسم من الجزيرة يغلب فيه الجفاف، ويقل المطر بصورة كبيرة، وفى قليل من الأحيان ينزل السيل عليه بشده فيترع وديانه، وينشر الخصب فى أرجائه ولكن ريثما يعود الجفاف، ومن القبائل التى سكنت الحجاز: الأوس، والخزرج وكانت فى المدينة، وثقيف فى الطائف، وقريش فى مكة وعلى الهضاب فى الجنوب كانت تسكن هزيل.

وسر تسميته بهذا الاسم أن جبال السراة التى تمتد من اليمن إلى أطراف الشام حجزت ما بين تهامة - وهى منخفضة إلى شاطئ البحر، ونجد وهى مرتفعة.

وأشهر مدن الحجاز مكة وفيها البيت الحرام الذى قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ... ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران]. ومن الأماكن المقدسة فى مكة: المزدلفة، وجبل عرفات، والصفا والمروة، وبئر زمزم، وغيرها.

وتقع مكة فى واد ضيق غير ذى زرع، فسفوح الجبال المشرقة المطلة عليها عابسة، لا خضرة فيها، ولا ثلوج، ولا أشجار عالية تكلل هاماتها، وليس فيها شلالات هادرة، تتساقط من صخورها.

وكل ما فيها يدل على شدة وشظف قسوة، ولوقوعها فى واد، ارتفعت حرارتها فى الصيف ارتفاعا يضايق من لم يعتده، ولم يجلب الناس إليها إلا نشاط أهلها ونشاط (قصى) و(عبد المطلب) من بعده فى خدمة (الكعبة) و(البيت الحرام)

(1) تاريخ الإسلام حسن إبراهيم جـ 1 ص4 ط النهضة.

وفى خدمة من يقصد هذا البيت، الذى ضم عددا كبيرا من الأصنام، يكاد يجمع شمل أصنام أكثر القبائل يومئذ، حتى صار البيت (بانثيونا) أو متحفا أو مخزنا تكدست فيه الأوثان من مختلف الأحجام والمواد، فيها المهذب المهندم المنسق، وفيها الوثن البدائى، وفيها الصور المستوردة من الخارج المصنوعة فى بلاد الشام من أصل نصرانى، يمثل القديسين والأولياء والأنبياء والملائكة، حيث تحولت فى مكة إلى أوثان معبودة، اختص كل واحد منها أو كل مجموع - بقبيلة، إذا جاء أفرادها إلى مكة توجهوا إليها، لتحيتها، ولمناجاتها ولاكتساب عطفها ورحمتها، ولتكون شفعاء عند الله[1].

وأهمية الحجاز نشأت من وقوعه على الطريق التجارى الذى يربط اليمن ببلاد الشمال. وقد رحل إليه قبل الإسلام اليهود، وأنشأوا فيه مستعمرات فى (خيبر) (والمدينة) وغيرهما وأشهر مدنه: (مكة)، وهى واد غير ذى زرع، وطولها من الشمال إلى الجنوب نحو ميلين، وعرضها من الشرق إلى الغرب نحو ميل، وليس بها ماء إلا بئر زمزم. والمدينة التى كان اسمها (يثرب) قبل الإسلام وفى شمالها جبل أحد، وبها نخل كثير. وفى شمالها الشرقى (خيبر) وأرضها لا تصلح للزرع[2].

نجد:

منطقة واسعة، تحيط بها الصحارى من جهات ثلاث: الربع الخالى من الجنوب، والصمان، والدهناء من الشمال والشرق، والنفوذ من الشمال، وتعرف النفوذ قديما بعالج، ويصفها ياقوت بقوله[3]: «رملة بالبادية مسماة بهذا الاسم بين فيد والقريات، ينزلها بنو بحتر من طىء، وهى متصلة بالثعلبية على طريق مكة.

---

(1) تاريخ العرب فى الإسلام. جواد على ص43 ط بغداد.

(2) فجر الإسلام. أحمد أمين. ص 3 ط النهضة.

(3) معجم البلدان 6: 99.

وطولها من الشرق إلى الغرب ثمانون ومائة ميل، وهى فى جملتها رمال بيضاء أو حمـراء، تسفيهـا الرياح التى تملأ الجو بالغبـار، وقد تتحول إلى عـواصف رملية شديدة، ويتكون الربع الخالى من صحراء تبلغ ألف مـيل مربع وتقل المياه فى كثير من جهاتهـا، وتنعدم فى الجهة الشرقـية، وهى غير مأهولة بالسكان، وكـثر كلام العرب عنها وذكـرت فى أساطيرهم وقصـصهم، لما فيها من جـفاف شديد وظلام موحش مـخيف. وتقع الصمـان بين الدهناء غربا والساحل شـرقا، وتعتـمد على الأمطار من خضـرتها. وتتـميز بالجـفاف وغلظ الأرض. وصحـراء الدهناء تلتف حول نجـد كلها من الشمـال إلى الجنوب، وسمـيت بهذا الاسم لاختـلاف النبات والأزهار فى عواصمهـا. وتظهر فيها كثبان الرمـال التى تكونها الرياح وتنقلها من مكان إلى آخر، كما يظهر فبها بعض التلال والجبال الوعرة[1].

اليمن:

ويمتد من نجد إلى المحيط الهندى جنوبا والبـحر الأحمر غربا ويتصل به من الشرق حضرموت، والشحر وعمان.

قال الحسن الهـمدانى: سميت اليـمن الخضراء - لكثرة أشـجارها وأثمارها وزروعـها والبـحر مطيف بهـا من الشرق إلى الجنـوب، ويفصل بينهـا وبين باقى جزيرة العرب خط يأخذ من حدود عمان ويبـرين إلى ما بين اليمن واليمامة، فإلى حدود الهجيرة وتثليث، وجرش، ويتجه منحدرا فى السراة إلى شعف عنز وشعف الجبل أعـلاه إلى تهامة، إلى أم جـحدم، إلى البـحر، إلى جبل يقـال له «كرمل» بالقرب من حمضة[2].

ولا يزال عدد كبير من مواضع اليمن يحتفظ بأسمائه القديمة التى كان يعرف بها قبل الإسلام، ويعود قسم منها إلى ما قبل المسيح عليه السلام.

---

(1) معجم البلدان 4: 115.

(2) تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد على جـ1 ص135.

تهامة:

وتتكون من منطقة ساحلية ضيقة، موازية للبحر الأحمر من ينبع إلى نجران فى اليمن.

ويقال لتهامة الواقعة فى اليمن، تهامة اليمن، ويختلف عرضها باختلاف قرب السلاسل الجبلية من البحر وبعدها عنه، وقد بلغ عرضها خمسين ميلا فى بعض الأمكنة، وترتفع أرض تهامة الجنوبية الواقعة على البحر العربى ما اتجهت نحو الشرق، وتتكون منها سلاسل من التلال المؤلفة من حجارة كلسية ترجع إلى العهود الجيولوجية الحديثة، أو من حجارة بركانية[1] ورياح تهامة راكدة وأرضها منخفضة عن أرض نجد.

العروض:

ويشمل اليمامة والبحرين، وسمى عروضا لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق.

ولا يظن أن بلاد العرب كلها صحراء جرداء، لا زرع فيها ولا نبات، بل فيها مناطق تعد من أحسن المناطق زراعة وخصبا فبلاد (حضرموت) تعد من أحسن البلاد نتاجا للبخور، الذين كان يستعمل بكثرة فى الأزمان الغابرة، وبلاد الإحساء من أخصب المناطق، وهى واقعة على الخليج الفارسى عدا جزء قليل منها.

وسهول نجد كان يربى فيها أحسن الخيول العربية الأصيلة. ويظن البعض أن المعيشة فى الصحارى غير ممكنة، ولكن الحال على العكس من ذلك، فإن جوها ملائم لسكنى قوم أقوياء، خالين من الأمراض. يتحملون المشاق التى فرضتها عليهم طبيعة أرضهم[2].

---

(1) تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد على جـ1 ص132.

(2) تاريخ الإسلام - حسن إبراهيم جـ1 ص7.

الحياة السياسية
فى العصر الجاهلى

من المسلم به أن العرب كانوا قبائل متناثرة متفرقة فى أرجاء جزيرتهم، وأدى هذا التفرق إلى الصراع القبلى فى أغلب الأحيان؛ نتيجة القحط، وضنك العيش الذى كان يحيط بهم وكان لكل قبيلة من القبائل شخصية مرموقة، أهلتها بعض الصفات لتكون مهيمنة على القبيلة كلها، وكانت من الحنكة والمهارة، والخبرة والتجربة، وحسن البأس، والقوة، والشجاعة - ما صارت به مثلا بين أفرادها.

واجتمعت القبيلة حول هذه الشخصية التى اختارتها لتكون عونا لها على الشدائد وتفزع إليها فى الملمات تستشيرها فى أغلب أمورها، ولا تعقد راية الحرب إلا بأمرها، إلى غير ذلك من الأمور.

وتعتبر القبيلة فى الأصل عبارة عن مجموع أرهط وتفرعات، يجمعها تحت اسم واحد، واقعى أحيانا: رئيس قديم لقبيلة هامة، وتستطيع مجموعة غريبة أن تندمج بتأثير أسباب عديدة كالقحط، والأوبئة، والحروب فى قبيلة أخرى وأقوى منها، كما جرى لبنى تنوخ فى العراق[1].

فالحياة السياسية فى العصر الجاهلى تتركز فى حياة هذه القبائل، وما كان بينها من شجار وخصام، أو تماسك ووئام.

والسمة الغالبة بين القبائل هى الخصام والمشاجرة، والاحتكام إلى السلاح والدعوة إلى الحرب؛ لأتفه الأسباب. يندفعون نحوها بلا شفقة ولا رحمة فأججت بينهم الأحقاد، ونشرت بينهم الضغائن والخلاف.

---

(1) تاريخ الأدب العربى: بلاشير ص 24 ط. دار الفكر.

قال شاعرهم يصور هذا الصراع الذى كان بينهم[1].

لا يسألون أخاهم حين ينـدبهم فى النائبات على ما قال برهانا[2]

ويمكننا أن نعتبر رئيس القبيلة هو السيد الأول فيها فله طاعة مطلقة، وواجب مفروض، فعلى أفراد القبيلة الخضوع والاستسلام له فى كل شىء وله نصيب من الغنائم لا يحوزها سواه كما قال أحد الشعراء مخاطبا بسطام بن قيس زعيم بنى شيبان:

لك المرباع منها والصـــفـايا وحـكمك والنشيطة والفضول[3]

ويدل هذا على عظم منزلة رئيس القبيلة عندهم، ومدى احترامهم له، وكان فى القبيلة - أيضا - عدة أفراد عرفوا برجاحة العقل وعلو الهمة، وبعد النظر، وغور الفكر فى الأمور، وكان هؤلاء يكونون مجلسا، (عرف بمجلس القبيلة) وكانت وظيفة هذا المجلس هى معاونة الرئيس فى أعماله التى يقوم بها.

ففى الصحراء حيث القتال غريزة ملازمة لطبيعة الفرد - يحسب الغزو خليقا بالرجال وسجية من سجايا الرجولة ولم يقتصر ذلك على فريق دون آخر، بل شمل العرب جميعا من نصارى وغيرهم[4].

وأخبار حروبهم مشهورة تكلم فيها الأدباء فأكثروا ووصفها الشعراء فأجادوا. وتراث العصر الجاهلى حافل زاخر بما كان بينهم من حروب خلدها الشعر على مر الزمان. وعلى هذا لم نجد بصيصا من التقدم السياسى يجمع هذه الشراذم المتفرقة.

---

(1) هو قريط بن أنيف.

(2) الحماسة: التبريزى جـ 3 - ص 54 ت محى الدين ط. حجازى.

(3) تاريخ ابن خلدون: 2 - 203 ط بيروت.

المرباع: ربع الغنيمة. النشيطة: ما أصاب الرئيس قبل أن يصير إلى بيضة القوم. الفضول: ما فضل من الغنيمة.

(4) العرب: حتى. ص 19.

اللهم إلا ما كان فى الإمـارتين العربيتين: الغـساسنة والمناذرة والأولى كانت خاضعة للفرس والثانية للروم.

وكان على هاتين الإمـارتين واجب الدفاع عن الدولتين الكبيـرتين فى حالة وقوع خطر داهم من ناحـيتهم، فانتعـشت فيهمـا أسباب الحياة وظـهر الترف فى أرجائهـما، على عكس العرب الـذين كانوا يعيـشون فى جوف الصـحراء. ومن الجدير بـالذكر أن هاتين الإمـارتين كانتا مـتنفسـا للعرب فكانوا يـنطلقون منهـما للاتصال بالأمم الأخرى، وكـان كثير من شـعراء العرب يذهبون إليهـما ويتنقلون بينهما فـتعلموا ما كان عندهم من طبـاع، وعادات وكذا اللغة والتجـارة وغيرها، ونقلوا كل هذا إلى أهلهم فى مضارب الصحراء.

هذا إلى ما كـان عندهم من جيوش مدربـة، ونظم فى الحكم،وهى تخالف تماما ما كـان عند العرب فى هذا الوقت. ووجد إلى جانب هاتـين الإمارتين إمارة ثالثـة هى «كندة» التى تولاها بنو أسـد. وكانوا يمـيلون إلى الغسـاسنة ويكرهون المناذرة. وكان آخر أمراء هذه الإمارة هو حجـر أبو امرئ القيس وقد قتله بنو أسد وبقتله انتهت هذه الإمارة.

الحياة الاجتماعية

عاش العرب فى صحرائهم، يصفون ما فيها من زرع ونبات وحيوان وجمال. وأخرج لنا الشعراء صوراً جميلة، عبرت فى صدق إحساس وشعور عن حياتهم وترجمت فى قوة عن مشكلاتهم هناك. وقد انقسم العرب إلى طائفتين لكل منهما مميزات وخصائص، هما: الحضر والبدو.

(أ) الحضر:

كان لهم أسلوب خاص فى حياتهم ومعيشتهم، فقد سكنوا البيوت الثابتة والأبنية الفاخرة والقصور الشاهقة، وعاشوا فيها عيشة عليها مسحة من الترف والنعيم.

وقد نعم هؤلاء بحياتهم فى الأماكن التى كثر فيها الخصب والنماء نوعا ما، كصنعاء فى اليمن، والمدينة: يثرب، والطائف فى الحجاز.

وتمثل الثراء والتقدم أيضا فى مملكة المناذرة التى كانت تابعة للفرس آنذاك وكذا فى مملكة الغساسنة التى كانت تتبع الروم، فظهر فيهما التقدم النسبى الذى كان يواكب ما عند الفرس والروم فى ذلك الوقت من تقدم.

وقصد شعراء العرب هاتين الإمارتين فتغنوا بما فيهما من جمال، ومدحوا صفات ملوكهما، وما هم فيه من ثراء ونعيم، كالنابغة وعلقمة وحسان بن ثابت الذى كانت له مواقف فى مدح (بنى جفنة الغسانيين) ملوك الشام. وتكاد كتب الأدب تجمع على أن لاميته المشهورة فى ملوك الغسانيين من أحسن ما قيل فى المدح ولا تزال أبياتها التالية فى رصانتها وسهولة مأخذها تروق الذوق وتعجبه[1].

(1) مجلة الثقافة: عدد 211 - 1943 القاهرة.

لله در عصابة نادمتهم يوما بحلق فى الزمان الأول[1]

يمشون فى الحلل المضاعف نسجها مشى الجمال إلى الجمال البزل

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول[2]

(ب) والبدو:

كانوا الأعم الأغلب فى الجزيرة العربية وقد عاشوا عيشة تمثلت فيها قوة الحياة حيث يقل المطر وتجدب الأرض؛ ويكثر الجفاف فكانت حياتهم صورة رائعة لانتصارهم على الصحراء فقد حولوا أطلالها إلى أماكن لذكرياتهم وحبهم، وجعلوا أسواقها منابر يتبارون فيها بأعظم الشعر وأروع النثر.

واتخذوا من فيافيها وقفارها ساحات حرب ونزال حيث القتال الذى كان ينشب لأتفه الأسباب.

وكانت عيشة هؤلاء غير مستقرة فيها الكثير من الحط والترحال، فتتبعوا مساقط الغيث ومنابت الكلأ سعيا وراء العشب والنماء.

فلا رابط يجمعهم ولا قانون يحميهم إلا القبيلة التى كانوا ينتمون إليها، فيها يتصل الفرد بأهله وأقاربه، ومن خلالها يعرف ما عليه من حقوق وواجبات.

ولكل قبيلة رئيس حنكته التجارب وعركته الأيام يخضع له جميع أفراد القبيلة ويطيعونه فيما يشير به.

وعلى كل أفراد القبيلة الدفاع عن حماها، والاستماتة فى وجودها، والوقوف يدا واحدة فى وجه أعدائها.

ويجوز أن تندمج القبائل الضعيفة فى قبائل أقوى منها لأسباب:

---

(1) الأغانى: دار الكتب جـ 15 ص 157.

(2) الأغانى: دار الكتب جـ 15 ص157.

كالقحط أو الحرب أو الأوبئة وذلك لحماية نفسها فى مواجهة أعدائها.

إن الأسرة هى الخلية الاجتماعية عند بدو الجزيرة وهى تخضع[1] منذ أقدم الأزمنة - المعروفة لنا - للنظام الأبوى حتى إذا تجسمت القبيلة فى اسم رئيسها أصبحت المجموع الوحيد الذى يرتبط العربى به برباط لا ينفصم.

ومن هنا تجلت روح العصبية للقبيلة والنسب، وظهر من خلال هذه العصبية كثير من الصفات التى شاعت عندهم كالاعتداد بالكثرة والتباهى بها، وإظهار الشجاعة والفروسية، وسرعة النجدة، وحماية الجار إلى غير ذلك من الصفات.

وعلى سيد القبيلة رسم الخطط الكفيلة بالنصر على أعداء قبيلته إذا ظهر خطر عليها حتى يدعم لها الاستقرار، والأمن وقوة الوجود بين القبائل الأخرى.

وكثرت الحروب فى الجزيرة العربية بين العرب وبعضهم أو غيرهم حتى أصبحت جحيما لا يطاق من جراء هذه الحروب التى أتت على شبابها وقضت على الأخضر واليابس فيها، وعرفت هذه الحروب باسم (أيام العرب).

وهذه الأيام منها ما كان بين العرب والفرس، كيوم (ذى قار) ومنها ما كان بين النزاريين واليمنيين، كيوم (خزازى)، ومنها ما كان بين اليمنيين بعضهم مع بعض، كيوم (بعاث) بين الأوس والخزرج، ويوم (حليمة) بين المناذرة والغساسنة، وما كان بين النزاريين كيوم (الزورين) بين ربيعة ومضر، وما كان بين المضريين بعضهم مع بعض، كحرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان، وما كان بين الربعيين بعضهم مع بعض، كحرب البسوس بين بكر وتغلب.

ومن خلال هذه الحروب سجل تراث العرب الشعرى هذه الوقائع والأيام، ودل بحق على أصالة العرب ومدى بسالتهم، وكرههم للضيم والمذلة وإفراطهم فى الشجاعة. وأظهر ما عندهم من أدب رفيع وكرم بالغ ووفاء وعلو همة وثبات فى القتال والأخذ بالثأر إلى غير ذلك من صفات.

---

(1) تاريخ الأدب العربى: بلاشير ص24 ط دار الفكر.

وكانت بينهم أيام كثيرة، ومن أشهرها يوم المريقب من أرض الشرية فى ديار غطفان وهو لعبس على ذيبان وفيه قتل عنترة الفوارس ضمضما المرى.

وهو القائل يتوعد ابنيه حصينا وهرما، وقد بلغه أنهما يشتمانه وينذران دمه[1].

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر ... للحرب دائرة على ابنى ضمضم

الشاتمى عرضهما ولم أشتمهما ... والناذرين إذا لم ألقهما دمى

إن يفعلا فلقد تركت أباهما ... جزر السباع وكل نسر قشعم

وانتشرت فى الجزيرة العربية نتيجة القحط، وجدب الأرض بعض العادات والتقاليد منها الصراع بين القبائل حول المرعى بل كانت القبيلة تنقسم على نفسها نتيجة هذا العامل أيضا.

ومنها شرب الخمر وقتل البنات خشية الفقر والحاجة، قال الله العظيم فى كتابه الكريم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل].

ومن القبائل التى كثرت فيها هذه العادات، تميم وبنو أسد. وأنف كثير من العرب هذه العادة ومنهم صعصعة جد الفرزدق الذى كان يفدى الموءودات بماله، وكان الفرزدق يفتخر بهذا فى العصر الأموى، فحينما اجتمع مع جرير عند سليمان بن عبد الملك فتطاول الفرزدق وقال: أنا ابن محيى الموتى فأنكر سليمان قوله فقال: يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: «ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا» وجدى فدى الموءودات فاستحياهن فقال سليمان: إنك مع شعرك لفقيه[2].

---

(1) الأدب العربى وتاريخه: هيوارث دن ص 54.

(2) المستطرف جـ 1 ص 158 ط التقدم وراجع معجم الشعراء ص465 ط الحلبى.

وفى دروب الصحراء وشعابها ظهرت الصعلكة واشتهر بها رجال أشداء كان همهم السطو والإغارة على القوافل التى كانت صيدا ثمينا يغرى المتصعلكين.

وبعد، فهذه صور واضحة عن حياة العرب الاجتماعية فى العصر الجاهلى فيها كثير من الصدق، لأنها سجلت واقع حياتهم التى عاشوها هناك تسجيلا صادقا.

الحياة الدينية

صوَّر الشاعر الجاهلى حياة العرب الدينية فى قوة ووضوح وظهرت فيها جليا العاطفة الدينية لكثير من الشعراء كأمية بن أبى الصلت وغيره.

وكان أمـية بن أبى الصلت كثـير العجائب يذكـر فى شعره خلق السـموات والأرض ويذكر الملائكة ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء[1].

وسمع الرسول ﷺ قول أمية بن أبى الصلت:

الحمد لله ممسينا ومصبحنا بالخير صبحنا ربى ومسانا

فقال: كاد أمية ليسلم[2].

وشاع فى بلاد العرب عبـادة الجن والأصنام والكواكب وغيرها واتخذت كل قبيلة إلها اعتقدت فيه النفع والضر والخير والنماء والفضيلة والكمال.

ومن أقدم أصنامـهم (مناة) وقد عظمـتها الـعرب خاصـة الأوس والخزرج، وكانت مناة صـخرة لهذيل وخـزاعة، وسمـيت الصخرة بذلك لأن دمـاء النسائك كانت تمنى عندها أى تراق. ومن أصنامـهم (ود) وكان فى هيئة رجل متقلد سـيفا متنكب قوسا وبين يديه حربة.

ولعلهم عبدوا هذا الصنم لما توسموا فيـه من القوة والفتوة والشجاعة، التى كانوا يحتاجون إليها فى كل وقت وحين، فحالتـهم النفسية والاجتماعية تحتاج إلى من يدفع فى نفوسهم القوة والبسالة فى مختلف الأوقات.

واللات وهى صنم لثقيف بالطائف، والعزى وهى شجرة بوادى نخلة وكانوا

---

(1) طبقات الشعراء: ص 220 ط المعارف

(2) الأغانى: جـ4 ص 129.

يطوفون بالكعبة ويقولون: واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى. وكانوا يزعمون أنها بنات الله.

فعاب القرآن عليهم ذلك قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم].

وكان (يعوق) لهمذان، و(سواع) لهذيل، و(يغوث) لمذحج و(نسر) لحمير.

وهبل وكان زعيم آلهتهم وكبيرها وكان من العقيق على هيئة إنسان وقد جعلت له قريش يدا من ذهب حينما كسرت يده[1].

وحكى القرآن عنهم ذلك حين قال: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً ﴿٢٤﴾﴾ [نوح].

ومن العرب من اتجه إلى الكواكب فعبدها وظهر هذا عند اليمنيين وأشار القرآن إلى هذا بقوله جل شأنه: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النمل].

وقبيلة كنانة اتجهت إلى القمر فعبدته وبعض البطون من قريش وخزاعة ولخم عبدوا نجم الشعرى. وقد نهى عليهم القرآن ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [النجم].

كما حكى عن أقوام كانوا يعبدون الملائكة والجن فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ].

(1) اليعقوبي: 2 - 21.

وبهذا نخلص إلى أن الملائكة كانت من معبودات العرب وإن لم يروها. فهى عبادة لمعبود خفى غير ملموس لهم، بخلاف الأصنام والأوثان والشمس والقمر فهى مشاهدة لهم.

وفى قريش فشت الزندقة فاعتنقها بعضهم وهى تقول بإلهين إله النور وهو أصل كل الخير وإله الظلمة وهو أصل كل الشر، ولعل هذا الاتجاه تسرب إلى العرب عن طريق أهل الحيرة الذين سادت فيهم تعاليم (زردشت) الفارسى.

وبعض العرب أنكروا الأديان كلها وحكى القرآن عنهم ذلك قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ... ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية].

وفى العرب أيضا من اعتنق اليهودية أو النصرانية وقد انتشرت الأولى فى اليمن ويثرب خاصة فى قبائل: قريظة، النضير، قينقاع.

ومن شعراء يهود السموءل بن عادياء الذى قال:

إن حلمى إذا تغيب عنى ... فاعلمى أننى عظيما رزيت

ضيق الصدر بالخيانة لا ينـ ... ـقض فقرى أمانتى ما حييت[1]

ألى الفضل أم على هذا حوسـ ... ـبت؟ إنى على الحساب مقيت

ميت الدهر قد كنت ثم حييت ... وحياتى رهن بأن سأموت

وكثرت النصرانية فى نجران باليمن وانتشرت كذلك فى ربيعة وغسان وبعض قضاعة؛ لاتصالهم بالروم وانتشرت كذلك فى قبائل العباد بالحيرة.

ومن أقوى القبائل التى اعتنقت النصرانية بنو تغلب، التى كان منها الأخطل الشاعر الأموى المشهور.

واشتهر من شعراء النصرانية عدى بن زيد وأمية بن الصلت.

---

(1) طبقات الشعراء: ص 236.

وقال النبى فيه: آمن شعره وكفر قلبه، وأدرك الإسلام ولكنه لم يسلم.

ونبذ بعض الأشخاص فى هذا العصر هذه المعبودات الكثيرة والأديان المتعددة واتجهوا إلى عبادة الله وحده.

ذكر ابن اسحاق أن قريشا اجتمعت يوما فى عيد لهم، عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه، وينحرون له، ويطوفون به، فخلص منهم أربعة نفر يتناجون، وهم ورقة بن نوفل، وعبد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، ويزيد بن عمرو بن نفيل. فقال بعضهم لبعض: «اعلموا - والله - ما قومكم على شىء لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم.. ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع..؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا غير هذا الدين، فإنكم ما أنتم على شىء فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنفية دين إبراهيم».

وحمل هؤلاء الحنفاء حملة شعواء على عبادة الأصنام والأوثان وكانوا يذكرون لقريش أنهم يعبدون ما لا يضر ولا ينفع.

انظر إلى قول زيد بن عمرو بن نفيل:

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمى بنى عنم أزور

ولا هبلا أزور وكان ربا لنا فى الدهر إذ حلمى صغير[1]

وهذا دليل صادق على مدى ما كان عند هؤلاء من تفكير واضح وفكر سليم وقلب متفتح، يرفض ما لا يقره العقل، ويأباه الوجدان.

واتجاه الحنفاء كان كبارق فى الظلمة إلى أن جاء الإسلام، فأخرج العرب من الظلمات إلى النور ودعاهم إلى عبادة الله الواحد القهار.

وقد اكتفى بعض الأحناف على ما يظهر من روايات أهل الأخبار[2]،

---

(1) الأغانى جـ 3 ص 124.

(2) تاريخ العرب فى الإسلام: جواد على ص 49 ط بغداد.

بالابتعاد عن المجتمعات وبالنفرة من تقديس الأوثان فلم يتقربوا إليها واكتفوا بذلك ورضوا بعقيدتهم هذه، وبقناعتهم بفساد معتقدات قومهم، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الجهر بآرائهم، والمناداة علنا فى الأماكن العامة، وظلوا على ذلك إلى مماتهم ولهذا لم تكن علاقة بعضهم مع قومهم سيئة ولم يصطدموا معهم.

بل نظروا إليهم نظرة تقدير واحترام، وكانوا يأتون للاستفسار منهم عن كثير من المعضلات والمشكلات، لما لهم من اطلاع على الكتب والأخبار[1].

وشك طه حسين فى وجود الشعر الدينى فقال[2]: وشاعت فى العرب أثناء ظهور الإسلام وبعده فكرة أن الإسلام يجدد دين إبراهيم ومن هنا أخذوا يعتقدون أن دين إبراهيم هذا قد كان دين العرب فى عصر من العصور، ثم أعرضت عنه لما أضلها المضلون، وانصرفت إلى عبادة الأوثان، ولم يحتفظ بدين إبراهيم إلا أفراد قليلون يظهرون من حين إلى حين، وهؤلاء الأفراد يتحدثون فنجد فى أحاديثهم ما يشبه الإسلام وتأويل ذلك يسير؛ فهم أتباع إبراهيم، ودين إبراهيم هو الإسلام.

وتفسير هذا من الوجهة العلمية يسير أيضا فأحاديث هؤلاء الناس قد وضعت لهم وحملت عليهم، وحملت عليهم حملا بعد الإسلام، لا لشىء إلا ليثبت أن للإسلام فى بلاد العرب قدمة وسابقة.

فهو ينكر أن يكون للعرب شعر دينى قبل الإسلام، وإنما هو منحول موضوع عليهم بعد الإسلام.

وما ذكرناه من شعر يؤكد على ما قلته من نسبته إلى العصر الجاهلى بما فيه من ألفاظ وأساليب وصور يندر أن نجد مثلها فى أى عصر من العصور.

---

(1) وأنا لا أتفق مع الأستاذ جواد فى هذا الرأى لأن زيد بن نفيل أوذى وعذب وأخرج من مكة.

(2) فى الأدب الجاهلى: ص 141 ط المعارف.

وإذا كان طه حسين جارى مرجليوث، كما ذكر ذلك (بلاشير) فى كتابه حين قال:

ومما يجب البرهان عليه هو أن جميع الشعر الجاهلى بلا استثناء من وضع القرن الثانى للهجرة (الثامن للميلاد).

وهذا ما حاول إثباته العالم المصرى طه حسين فى كتابين نشرهما بعد بحث (مرجليوث) بقليل. وإذا لم يضف بحث طه حسين على بحث مرجليوث شيئا فإن له مزية زلزلة مجموعة من المدركات المقبولة بسهولة فى الشرق الأدنى[1].

وكلام (بلاشير) السابق يوضح أن طه حسين نقل أفكار مرجليوث ونسبها لنفسه وجعل نفسه مبتكرها.

ومن الواضح أن قضية الانتحال فى الشعر الجاهلى تحتاج إلى وقت طويل ومعالجة أشمل، وسنفصل القول فيها بعد قليل.

وكل ما يهمنا فى هذا المقام هو الرد على طه حسين فيما ذهب إليه.

وقد ذكرنا سابقا أن القرآن حكى عن العرب أنهم كانوا يعبدون الأصنام وغيرها فهل نشك فيما ذكره القرآن؟

كما أن القرآن يصف العرب فى مختلف حياتهم العقلة والدينية والفكرية والاجتماعية، وهذا الوصف قد يكون قريبا من الصواب.

على أنه إذا نظر نظرة فاحصة للشعراء فى العصر الأموى والعباسى فسوف يجد أنهم لا يتطرقون إلى الدين فى أحيان قليلة فلماذا يحمِّل الجاهليين ما لا يطيقونه فى هذا الصدد؟

وما وصل إلينا من الشعر الدينى الجاهلى صحيح، وصدوره عن الشعراء الجاهليين يؤكد فى صراحة مدى انفعالهم بما يعبدون، وما فيه من صور وما احتوى عليه من أساليب وألفاظ يؤكد ما ذهبنا إليه.

(1) تاريخ الأدب العربى: ص 181.

يقول جرجى زيدان: أما العرب فيخالفون العبرانيين من حيث الشعر الدينى لأنه لم يكن عندهم فى الجاهلية كما كان عند العبرانيين، ولا يعقل أنهم خالفوا إخوانهم فيه.

ولابد أنهم نظموا الأشعار وخاطبوا بها هبل واللات والعزى وغيرها واستعطفوها وصلوا إليها وتخشعوا لها ولكن منظوماتهم فى هذا الموضوع ضاعت فى ثنايا الأجيال لعدم تدوينها ولاشتغالهم عنها بالحماسة والفخر بسبب الحروب التى قامت بينهم قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أغضى الرواة عنها لأنها وثنية والإسلام يمحو ما كان قبله.

فهو يوافق على أنه كان للعرب فى الجاهلية أشعار دينية توجهوا بها إلى أصنامهم.

ولكنه يذهب إلى أن هذه الأشعار ضاعت ولم تدون لانشغال العرب بالحروب الإسلامية والأغراض الشعرية الأخرى.

وما ذهب إليه جورجى زيدان ذكره قبله ابن سلام الجمحى، حيث قال:

كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد، وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته[1].

فالشعر الدينى وجد عند العرب وضاع أكثره، وما وصل إلينا منه يكفينا على قلته فى رسم الحياة الدينية للعرب فى هذا الوقت وهو يؤكد بما لا يدع مجالا للشك مدى تجاوب العرب مع هذا اللون.

يقول بروكلمان: ولم يكن شعراء الجاهلية مرتبطين بدينهم ارتباطا، يدير ألسنتهم بقصائد تنبع من هذا الدين، وتدور حوله، ونحن نجد قلة من الشعراء فى الإسلام والمسيحية واليهودية يتسم شعرهم بسمات دينية، فلماذا لا نصدق أن

(1) طبقات الشعراء ص22.

شعراء الجاهلية كانوا متحللين من النزعة الدينية، ولم تكن الصلة بين القبيلة عند العرب وبين آلهتها وثيقة جدا[1].

يقول نيكلسون: كان تأثير الدين على حياة العرب قبل الإسلام ضئيلا، حتى لا تتوقع تأثيرا كبيرا له فى شعرهم.

ومن يرجع إلى حياة العرب يجد أن الصلة كانت قوية جدا بينهم وبين أصنامهم بدليل هذه الكثرة الهائلة من الأصنام وغيرها، فكيف تكون الصلة واهية بعد هذا.

وقلة الشعر الدينى ترجع إلى الآتى:

- ضياعه مثلما ضاع أكثر الشعر الجاهلى.
- تحرج الرواة فى عصر التدوين من رواية هذا الشعر.
- قتل كثير من الحفظة والرواة الذين كان عليهم المعول فى حفظه وتدوينه.
- ظهور الإسلام بمعالمه الواضحة حيث أخمل الاتجاهات الشعرية الموروثة وأثر هذا بالتالى على الشعر الدينى تأثيرا كبيرا.

(1) العرب والإمبراطورية العربية ص26.

الحياة العقلية

أتى على العرب حين من الدهر، تأخرت فيهم حياتهم العقلية والعلمية تأخرا ملحوظا عن غيرهم من الأمم والشعوب، التى كانت تجاورهم فى هذا الوقت.

فلم نجد لهم فلسفة عقلية أو علما له قواعد وأصول أو فكرا مقننا له معالمه الواضحة.

ذلك أن جو البداوة أطبق عليهم فى جزيرتهم فلم يستطيعوا له دفعا وخيم عليهم التأخر الذى ظهرت معالمه فى جميع أرجاء حياتهم.

زد على ذلك حياة الحط والترحال من مكان إلى آخر، والجفاف الذى كان ينتاب الجزيرة فى أكثر فصول السنة، مما دفعهم إلى عدم التفكير المنظم، والاستقرار الذى يقود إلى إدراك الأشياء وتعليلها.

فالعربى لم ينظر إلى العالم نظرة عامة، كما فعل اليونانى مثلا.

لقد ألقى اليونانى - أول ما تفلسف - نظرة عامة على العالم، فسأل نفسه: كيف برز هذا العالم إلى الوجود؟ إنى أرى هذا العالم جم التغيير، كثير التقلب! أفليس وراء هذه التغيرات أساس واحد ثابت؟ وإذا كان فما هو؟ ءالماء أم الهواء أم النار؟ ورأى العالم كله كالشىء الواحد، يتصل بعضه ببعض وهو خاضع لقوانين كثيرة تكاد تكون ثابتة، فما هذا النظام، وكيف نشأ، ومم وجد؟.. إلخ.

هذه الأسئلة وأمثالها وجهها اليونانى إلى نفسه، فكانت أساس فلسفته ومبناها كلها النظرة الشاملة[1].

أما العربى فلم يتجه نظره هذا الاتجاه قبل الإسلام أو بعده، بل كان يطوف

(1) فجر الإسلام: أحمد أمين ص42.

فيما حوله، فإذا رأى منظرا خاصا أعجبه تحرك له، وجاش صدره بالبيت أو الأبيات من الشعر أو الحكمة أو المثل[1].

والعرب مع هذا كله استطاعوا أن يتغلبوا على ما فى بيئتهم من معوقات، وسدوا حاجتهم بما توصلوا إليه من معارف بسيطة وتجارب اعتمدت على المشاهدة.

فكثرة تطلعهم للطبيعة وقوة ملاحظتهم لها - جعلتهم يعرفون أوقات المطر والرياح والسحب، وطلوع النجوم والكواكب. واستعانوا بهذا فى أسفارهم وزراعتهم، وبهذا أصبحت السماء عندهم ككتاب مفتوح يقرءون فيه ما يريدون.

وحاجتهم فى الصحراء إلى الإبل دفعتهم إلى التفنن فى علاجها وبيطرتها، ولكن هذا المسلك من الطب كان يعتمد على البدائية كالعلاج بالكى، (ومن أمثالهم: آخر الدواء الكى) وعلاج الجرب بالقطران. ومن أشهر أطبائهم الحارث ابن كلدة الثقفى، وابن حذيم وكان من تيم. .ويقال فيه: أطب من ابن حذيم[2].

وشاع فى العرب العرافة والكهانة ويراد بها التكهن بعلم الغيب فى المستقبل، أما العرافة فهى معرفة الأمور الماضية.

وكذا الزجر، وكان من عادة العرب زجر الطير والوحش فمن اتجه منها ناحية اليمين سموه السانح ومن اتجه من ناحية الشمال سموه البارح، وما استقبلهم سموه الناطح، وما جاء خلفهم فهو القعيد.

قال صاحب القاموس: الزجر والقيافة أن تعتبر بأسماء الطير ومساقطها وأنوائها فتسعد أو تتشاءم، والعائف المتكهن بالطير أو غيرها.

وكلها معتقدات باطلة شاعت عند العرب؛ لما كان عندهم من بداوة وتأخر.

---

(1) فجر الإسلام: ص42.

(2) زهر الآداب: جـ1 ص 479 ط الحلبى، الأغانى: جـ 9 ص 157.

قال المرقم[1]:

لا يمنعك من بغـــــا ء الطير تعقيد التمائم
ولا التشـــاؤم بالعطا س ولا التيمن بالمقاسم[2]
ولقـــد غـدوت وكنت لا أغـدو على واق وحـائم[3]
فـــإذا الأشـــائم كـــالأيا من، والأيامن كـالأشـــائم

وانتشر بين العرب أيضـا: القيافة والفراسة وهى الاستدلال بهيئة الشخص وكلامـه وظاهر أعضائه على أخلاقـه وصفاته، فـهى ضرب من الفراسة، ومـثلها القيافة.

وكـان من يتصف بهـما يكون عـلى جانب كـبيـر من قوة الحس، وبراعـة الإدراك، بحيث يهتدى إلى تقصى الأثر، ومعـرفة آثار الأقدام وغيرها، وبلغوا فى ذلك شأنا بعيداً خاصة بنو مدلج وبنو لهب.

ومن كل ما تقدم يتـضح لنا أن حياة العرب ظهر فيـها طابع البداوة فى كل مسالك حياتهم العقلية.

وفى الحق أن العرب تغلبوا على ما فى بيئتـهم من مصاعب، وما اعترضهم من مشكلات - وهذا يحمد لهم - وإن كان فى صورة بدائية متوارثة.

وسرت فيهم بعض المعارف الفارسية والرومية، ولكن لم تثمر الثمرة المرجوة إلا فى العصر العباسى.

---

(1) زهر الآداب: جـ1 ص 479 ط الحلبى، الأغانى: جـ 9 ص 157.

(2) المقاسم: من يقاسمك.

(3) الواقى: الصرد، وهو طائر ضخم الرأس. الحائم: الغراب.

ويكفى ما امتـاز به العرب من حسن القول، وبراعة الشاعـرية وقوة الذكاء، مما تمخض عنه هذا التراث المهيل فى الشعر الخالد على مر الزمان؛ ناهيك عن النثر بما حفل به من قصص، وأمـثال، ووصايا، وحكم، وخطب، وكل هذا يدل على مدى ما كان عندهم من تقدم فى هذا الاتجاه.

الفصل الثانى

تطور كلمة أدب
فى مختلف العصور

تناول كثير من الباحثين كلمة أدب، وأخضوعها للدراسة والبحث، كلٌّ يحاول أن يدلى برأيه فيها، معتمدا على المصادر اللغوية تارة ومجتهدا تارة أخرى.

ومع هذا الجهد لم يتفقوا على رأى محدد فيها، بل كان لكل منهم وجهته الخاصة فى معناها، ومن هنا كثرت حولها الآراء.

ولا مانع عندنا الآن من ذكر الأدوار والمراحل التى مرت بها هذه الكلمة حتى يتضح أمرها، ونفصح عن مضمونها فى العصور المختلفة من العصر القديم إلى العصر الحديث.

قال صاحب المصباح[1]: أدبته أدبا من باب ضرب: علمته رياضة النفس ومحاسن الأخلاق[2].

وقال الزبيدى فى تاج العروس[3] (الأدب محركة) الذى يتأدب به الأديب من الناس، سمى به؛ لأنه يؤدب الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح، وأصل الأدب الدعاء.

ويقول نلينو:

أما لفظ الأدب فأكثر اللغويين اقتصروا على تعريفه هكذا، الأدب: الظرف وحسن التناول[4].

معناها فى العصر الجاهلى:

عرف الجاهليون هذه الكلمة واستعملوها فى ثلاثة استعمالات:

---

(1) هو أحمد بن محمد المقرى الفيومى المتوفى سنة نيف وسبعين وسبعمائة.

(2) المصباح المنير: جـ 1 - ص 6 ط بولاق.

(3) جـ 1 ص 144.

(4) تاريخ الآداب العربية ص22 ط المعارف.

الاستعمال الأول: فى الشمائل الموروثة والأخلاق الكريمة.

الاستعمال الثانى: السير على سنن الأوائل والاحتذاء بهم فى العادات الحسنة والطرق المحمودة.

الاستعمال الثالث: الأخذ بالمعرفة، والتعليم للمحامد والمعارف مع تهذيب النفس بها.

ومما سبق يتضح أن الجاهلين استعملوا لفظ أدب فى اتجاهات عدة دلت على علو فكرهم وقوة بلاغتهم وشاعت هذه المعانى فى زمان الجاهلية والقرن الأول للهجرة لا غير[1].

والدليل على شيوع هذه الاستعمالات فى العصر الجاهلى - ورودها فى قول الرسول ﷺ للإمام على حين قال له: يا رسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب، بما لا نفهم أكثره! فقال الرسول ﷺ: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى».

فالرسول الكريم استعملها ولم يرتجلها، وعدم مراجعة الإمام على له يدل على فهمها.

قال البغدادى[2]: واشتقاقه (أى الأدب) من شيئين: يجوز أن يكون من الأدب وهو العجب، أو من الأدب مصدر قولك أدب فلان القوم يأدبهم إذا دعاهم.

قال طرفة:

نحن فى المشتاة تدعو الجفلى لا ترى الآداب فينا ينتقر[3]

فإذا كان من الأدب الذى هو العجب فكأنه هو الشىء الذى يعجب منه لحسنه لأن صاحبه الرجل الذى يعجب منه لفضله.

---

(1) المرجع السابق ص 27.

(2) خزانة الأدب: جـ 4 ص 124 ط بولاق.

(3) المشتاة: زمن الشتاء والبرد القارص. الجفلى: الدعوة العامة، الآداب: الداعى - ينتقر: يدعو دعوة خاصة. راجع الحماسة: أبو تمام - جـ3 ص 87 ط. بولاق.

وإذا كـان من الأدب الذى هو الدعـاء فكأنه الشىء الذى يدعـو الناس إلى المحامد والفضل، فيناهم عن المقابح والجهل.

معناه فى القرن الأول والثانى للهجرة:

وفى القرن الأول والثانى للهجـرة نجد أن هذه الكلمة لم يتغير مـعناها كثيرا عن العصر الجاهلى فدلت على جمال التربيـة واكتساب المحامد عن طريق التمسك بالأخلاق الحسنة والأفعال الحميدة.

ودلت كذلك على المعارف غير الدينية التى اختصت باسم العلم منذ أواسط القرن الأول تمييزا لها من المعارف الدنيوية القائمة على معارف الجاهلية.

وكل هذا يدلنا على أن معناها لا يزال غير محـدد ولم يستقر بعد على رأى واضح صريح فى الدلالة عليها.

ونسرد الآن بعض الآراء التى لجأ أصـحابها إلى التخـمين، لما رأوه من عدم استقرار الكلمة على استعمال واضح محدد.

فالزيات يفتـرض أن «أدب» معناها الإنسان فى لغة السومـريين الذين عمروا جنوب العراق، وإن قـبائل ساميـة نزحت من الجزيرة العربية إلى أرضـهم حوالى القرن الثلاثـين قبل الميلاد، فغزتـهم وأخضعتهم واقـتبست من عمـرانهم ولسانهم وأديانهم. ثم يقـول: فلماذا لا نظن أن هذه الكلمـة السومـرية قد دخلت العـربية بلفظها ومعناها ثم تحـولت إلى آدم أو آدام واستعملت كذلك فى اللغـات السامية، وبقيت العربية وحدها محتفظة بالأصل لقدمها وعدم اختلاطها.

ثم استعملت هذه الكلمة فى الوصف استـعمال المصادر، فأرادوا بها الرجل الذى استكمل مزايا الإنـسانية من حر الخلال وكـرم الفعال، وحسن السيـرة، كما يقال فلان آدمى وفـلان إنسان. ثم قلبها الزمن على وجـوه الدلالات حتى صارت إلى ما صارت إليه؟ ويستدل على رأيه يقول التبريزى فى شرح الحماسة:

«كان الأدب اسما لما يفعله الإنسان فيتزين به فى الناس»[1].

وهذا الرأى شبيه بقول نلينو الذى ذهب: إلى أن هذه الكلمة اشتقت من الجمع ولم تشتق من المفرد، إذ جمعت دأب على آداب ثم قلبت فقيل آداب، كما جمعت بئر ورئم على آبار وأرآم. ثم قلبت فقيل آبار وآرام.

وكثر هذا الاستعمال - أى الآداب جمعا للدأب - حتى نسى العرب أصل هذا الجمع وما كان فيه من قلب، وخيل إليهم أنه جمع لا قلب فيه فأخذوا منه مفرده أدبا لا دأبا، وجرى استعمال هذه الكلمة بمعنى العادة ثم انتقل من هذا المعنى الطبيعى القديم إلى معانيه الأخرى المختلفة[2].

ويذهب أنستاس مارى الكرملى إلى أن للكلمة أصلا يونانيا.

ويفترض طه حسين أن لغة قريش أثرت فى لغات العرب الآخرين بعد أن جعلها الإسلام لغة رسمية: لغة إدارة وسياسة ودين، فتكلمها العرب كافة فى آثارهم الأدبية، وقد تأثرت هذه اللغة بلغات العرب المختلفة بعد الإسلام كما تأثرت بها قبل الإسلام فهى مؤثرة فى هذه اللغات، وهى متأثرة بها وهذا أمر طبيعى فى كل لغة وكل لهجة.

وقد رأينا علماء اللغة لم يدونوا فى كتبهم ومعاجمهم لغة قريش وحدها، وإنما دونوا ألفاظًا كثيرة كانت شائعة فى قبائل مختلفة من العرب، ولم تعرفها قريش وإن كان قد ضاع كثير من هذه الألفاظ، فإذا لم نجد مادة الأدب فى لغة قريش ولا فى العبرية ولا فى السريانية فليس ما يمنع أن تكون هذه الكلمة قد دخلت فى لغة قريش إبان العصر الأموى، وانتقلت إليها من إحدى اللهجات العربية التى ضاعت[3].

(1) أصول الأدب: ص 11 ط الرسالة

(2) تاريخ الآداب العربية: ص29.

(3) الأدب الجاهلى: ص25.

ويتضح من الآراء السابقة مدى عدم الدقة فى الوصول إلى أصل الكلمة واللغة التى أخذت منها، فهى يونانية مرة وشومرية أخرى وعربية أخيرا، وكلها افتراضات قائمة على التخمين.

ومن خلال العصر الأموى يتضح أن كلمة (أدب) أصبحت تدل فيه على معنيين:

الأول: رواية الأخبار بما فيها من أنساب، وما تحوى من شعر، يهذب النفس، ويصقل الوجدان ويرهف الإحساس بما يدفع فى الإنسان ملكة البيان وحسن التعبير وقوة العاطفة وبراعة الأداء.

الثانى: تعليم الفضائل والتمسك بالأخلاق الحميدة وتهذيب النفس بالأخذ بمكارم الأخلاق وأروع الآداب وأجمل المعارف.

ويلاحظ أن المعنيين السابقين بينهما تشابه كبير، ذلك أن الحياة الأموية سطعت فيها شمس العربية، وبلغت ذروة مجدها، ومن هنا شاع لكلمة أدب ما أشرنا إليه من المعانى السابقة.

معناها فى العصر العباسى:

اختلط العرب بغيرهم فى هذا العصر وعبوا من الحضارة وأخذوا منها الكثير فظهر عليهم التقدم والازدهار، ولقحت أفكارهم بنتاج جديد من العلوم والمعارف التى لم تكن موجودة من قبل وأثر هذا على (لفظ الأدب)

ففى رسائل إخوان الصفا:

اعلم يا أخى بأن العلوم التى يتعاطاها البشر ثلاثة أجناس فمنها الرياضية ومنها الشرعية والوضعية ومنها الفلسفة الحقيقية.

فالرياضة هى علم الآداب التى وضع أكثرها لطلب المعاش، وصلاح أمر الحياة الدنيا. وهى تسعة أنواع: أولها علم الكتابة والقراءة، ومنها علم اللغة والنحو، ومنها علم الحساب والمعاملات، ومنها علم الشعر والعروض، ومنها علم

الزجر والفأل وما يشكلها، ومنهـا علم الحرف والصنائع، ومنها علم البيع والشراء والتجارات أو الحرث والنسل، ومنها علم السير والأخبار.

وظاهر من هذا أن المراد بالآداب جـميع الفنون غيـر الدينية لاحتـواء القول السـابق على جمـيع المعـارف والعلوم. فالكيـمـياء والتـجارات والحـرث والنسل والحساب كل هذا يـدخل تحت هذه اللفظة (أدب) ونتيجة لهـذا كله، رأينا الكلمة أصبحت تدل فى بداية القرن الـثالث للهجرة على كل ما وجب مراعاته ومـعرفته والتحلى به - لمن أراد مجـالسة اللطفاء والوجهاء مـن: الظرف والأناقة فى اللباس والطعام والفصـاحة وعزوبة الكلام وحفظ الأبيات والنكت وهذا معنـى جديد كما يظهر.

وعلى هذا كان الأدب هو المعـارف الكثيرة التـى لا بد منها لمقابلة الوجـهاء والظرفـاء وأفاضل الناس والأخـلاق الحمـيدة التى يتـحلى بها ثم التـحلى بنوادر الأخبـار وأجمل الأشـعار وأروع النوادر مع حـسن الرواية وبراعة الإلقـاء وعذوبة الحديث.

وفى العصـر العباسى اتضـحت علوم العربيـة كالنحو والعـروض والقوافى ورواية الشعر وأخبار العرب، وظهرت علوم اللغة وكل هذا أطلق عليه أدب.

فنرى من حـصر الأدب فى الشـواهد الشعـرية والنثـرية مع جملة المعـارف النافعة لشرحها لغة ومعنى.

وذهب فريق فى القرن السادس وما يتلوه إلى أن الأدب علم الصرف والنحو واللغة والبيـان[1].

فقد عرف الزمخشرى المتوفى سنة 538هـ علوم الأدب بأنها علوم يحترز بها عند الخلل فى كلام العـرب لفظا وكتابة، وجعلهـا اثنى عشر علما بإضـافة المعانى والبيان والإملاء والإنشاء فى العصر الحديث.

(1) تاريخ الآداب العربية ص 52.

وسار الاتجاه السابق زمنا طويلا إلى أن ترجمت كثير من العلوم والمعارف الأوربية وكثر الاتصال بين الشرق والغرب واتسعت وسائل المواصلات وظهر الكثير من المخترعات وخضع الأدب لهذا التطور الحتمى فتعدد معناه ووضع مقابلا لكلمة (لتيراتور) فى الأدب الأوربى ولهذه الكلمة عند الإفرنج معنيان:

الأول خاص:

ويعنى به ما كتب بأسلوب مهذب ظريف من طرائف الحكايات وغرائب النوادر وأجمل الرحلات وأرق الأشعار، وكذا ما وضع فى قالب قصصى أو حكايات وروايات عليها مسحة من الفصاحة وجمال البيان.

وكالخطب البليغة الهادفة والمناظرات الرائعة، والمحاضرات العميقة تدخل فى هذا المجال أيضا.

الثانى عام:

ويشمل جميع نتاج علماء أى أمة ومفكريها سواء فى العلوم أو الآداب، سواء صيغ بالشعر أم بالنثر.

تاريخ الأدب بين العرب والإفرنج

من المسلم به أن العرب كانوا أسبق الأمم فى التأليف فى تاريخ الأدب وفى غيره من العلوم، وجذبوا الأنظار إليهم فى كل فروع العلم والمعرفة زمنا طويلا.

ففى التاريخ - مثلا - تجدهم أبدعوا غاية الإبداع، ووصلوا فيه إلى أعظم الدرجات.

فبعضهم صنف الكتب على حسب الأسماء أو على حسب الأنساب. فالأول ابن خلكان فى كتاب (وفيات الأعيان)، وابن شاكر الكتبى فى (فوات الوفيات)، وصلاح الدين الصفدى فى (الوافى بالوفيات).

والثانى منهج السمعانى فى كتاب (الأنساب)، وقد نظم على أزمنة الوفيات كما فعل أبو الفدا، وشمس الدين الذهبى، وابن كثير.

أما كتب تاريخ الحكماء للقفطى، ومعجم الأدباء لياقوت، وبغية الوعاة للسيوطى، فقد وضعت لمن برز أو اشتهر فى علم أو فن من الفنون فى جميع العصور، وهى مرتبة الأسماء على حروف الهجاء؛ ونزهة الألباء فى طبقات الأدباء لابن الأنبارى مرتبة على حسب الأعصر، وقد سار عليه الفقهاء والمفسرون.

ومن الكتب ما وضعت لمن اشتهر فى فن مخصوص وفى عصر مخصوص، كيتيمة الدهر للثعالبى وخريدة القصر للعماد الأصفهانى، وقد وضعت التراجم فيه بغير ترتيب.

وكتاب الفهرست لابن النديم (سنة 377هـ)، وهو يشمل على آداب اللغة العربية من أول عهدها إلى ذلك العصر مرتبة حسب الموضوعات، ولم يقتصر ذلك الكتاب على آداب العرب الأصلية، ولكنه تضمن ما أحدثوه من العلوم الإسلامية

واللسانية، أو ما نقلوه عن اللغات الأخرى بالتفصيل مع تراجم المؤلفين والمترجمين، والشعراء والأدباء.

وكتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة ويعرف (بموضوعات العلوم) لطاشكبرى زاده المتوفى سنة 968هـ وقد رتبه حسب الموضوعات، ويليه كتاب كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون لملا جلبى المتوفى سنة 1067 وهو معجم مرتب على الأبجدية حسب الأسماء، وبلغ ما حواه منها نحو 15.000 كتاب مع أسماء أصحابها، ووفياتهم، وتواريخ أهم العلوم[1].

وما ذكرناه بعض من كل، وهو يدل على أن العرب لم يهملوا تراثهم، بل سجلوه بكل الطرق ومختلف الوسائل.

وما أن سطعت شمس الغرب بعد ليل مظلم طويل حتى سمعنا كلامًا حديثًا، ومناهج جديدة وأساليب مبتكرة، وكلها تؤكد أن ما ذكرناه من أساليب، وما سردناه من كتب ليست من تاريخ الأدب، بل هى تتجه نحو التاريخ فقط بالمعنى الحديث فى نظرهم.

ذلك أن مؤرخ الأدب يحتاج إلى الإلمام بالمناحى الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية للعصر الذى يتناوله، بحيث يستطيع أن يستوعب أدبه وظروف بيئته.

ولابد كذلك أن يلم بعلم الفلسفة والجمال، وعلم النفس، والنقد، وتاريخ العلوم، حتى يستطيع أن يضع الأشياء والحوادث والأشخاص فى مكانها الواضح الصحيح، ويتناول الموضوعات بفهم العالم، وخيال الشاعر، وذوق الأديب.

على أننا نكلف العرب شططا إذا طلبنا إليهم إتقان التاريخ، وليس لديهم وسائله، فإن المؤرخ لا يتسنى له التحصيل والتحليل والبحث إلا باستكمال بعض

(1) تاريخ آداب اللغة العربية، جورجى زيدان - جـ1 ص8.

العلوم الضرورية، التى كان يجهلها العرب وغير العرب، كعلم السجلات وعلم المسكوكات، وعلم الآثار، وعلم النقد، وعلم الاقتصاد، وعلم الإحصاء[1].

ونتيجة الحضارة والتقدم فى الغرب ظهر عندهم التقنين للعلوم فى صورة حديثة، وإلقاء الضوء عليها من جميع الجوانب.

ففى أوائل القرن التاسع عشر نادت[2] (مدام دى ستال) بالرأى القائل بأن الأدب تعبير عن المجتمع. وأعلن (فيكتور كوزن) بعد ذلك المبدأ الأساسى: أن التعبير هو القانون الأول فى الفن.

ونادى سانت بيف بأن الأدب تعبير عن الشخصية، وهى حقيقة جزئية[3]. وجاء «تين» بعد ذلك متأثراً بهيجل، فقال: بأن الأدب تعبير عن الجنس والعصر والبيئة.

وذهب آخرون إلى أن الأدب تعبير عن المشاعر الدقيقة، أو الآثار التى تخلفها الحياة فى الإنسان.

والغرض من ذكر هؤلاء هو إيضاح أن ما تناولوه تناوله العرب بدقة وفهم أيضا، ولكن ترجمة هذا فى كتب وإضفاء مسحة الفن والتقدم والحضارة عليها كان غير موجود فى العصور القديمة، وعلى هذا كان الأوربيون والمستشرقون من أوائل من أرَّخوا لعلم الأدب وتاريخه فى العصر الحديث.

وتعد محاولة يوسف هامر بورجستال[4] سنة 1850 من أخفق المحاولات فى الكتابة عن تاريخ الأدب العربى، وكذا كتاب (أربتنوت) المتسم بالإيجاز المخل، وظهر فى سنة 1890.

---

(1) فى أصول الأدب: الزيات ص20.

(2) مختارات من النقد الأدبى المعاصر: رشاد رشدى ص6.

(3) المرجع السابق الصفحة نفسها.

(4) تاريخ الأدب العربى: بروكلمان جـ 1 ص32.

ويعتبر (فون كريمر) فى كتابه عمران المشرق فى عصر الخلفاء من أصلح المحاولات التى ظهرت فى ذلك الوقت.

وجاء (بروكلمان) الذى ألف كتابه فى تاريخ الأدب العربى، سنة 1898 واستند عليه الكتابان اللذان ألفهما (هوار) الفرنسى و(بيتى) الإيطالى، وتلا ذلك عرض الأستاذ (نيكلسون) الذى نظر إلى الأدب العربى فى ضوء التاريخ السياسى والعمرانى للعرب والإسلام سنة 1907. واقتفى أثره (آدم متز) فى تناول العصر العباسى سنة 1922.

هذا هو جهد علماء الغرب فى الأدب العربى وكان له أثره فى علماء العرب الذين أرخوا فى العصر الحاضر للأدب العربى ونذكر:

أهم المراجع فى هذا الصدد:

تاريخ آداب العرب: لمصطفى صادق الرافعى، القاهرة، سنة 1911.

تاريخ آداب اللغة العربية: محمد دياب، القاهرة، سنة 1918.

تاريخ الأدب: حفنى ناصف، سنة 1910.

المختصر فى آداب اللغة العربية: جورجى زيدان، 1924.

الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه: أحمد الإسكندرى، وعنانى، 1919.

تاريخ الأدب العربى: أحمد حسن الزيات، 1930.

مجمل فى تاريخ الأدب العربى: محمد بهجة الأثرى، 1920.

فجر الإسلام: أحمد أمين، 1928.

ضحى الإسلام: أحمد أمين، 1928.

دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية: معروف الرصافى، بغداد، 1928.

ما هو الأدب؟

الأدب فن جميل يعبر فى صراحة عن شخصية الأديب، فيصور انفعالاته وعواطفه وما تجيش به نفسه من خلال لغته، التى يودعها أسراره وحنايا فؤاده. يصور ويترجم كل هذا من خلال مقالة أو مسرحية أو قصة يضفى عليها من فكره الجميل وخياله الطلق وأسلوبه العذب، وما ينقله من شعر فيه آلام الهجر وعذاب الحرمان، وجلال الحب بما يجعله خالدا على مر الزمان.

فرب قصيدة خلدها الدهر وأصبحت أثراً لا ينطفئ بريقه بتوالى الأيام، ورب مقالة أحدثت عاصفة وكان لها وقعها المؤثر على القراء، ورب مسرحية أو قصة قادت المجتمع إلى النور وبعثت فى كيانه حب الانتصار والحرية وبذل الدم فى سبيل خلاص البلاد من العبث والفساد والاستبداد.

تأمل هذه المناجاة بين الشاعر والكون فتحس فيها بروعة الخيال، وقوة الأداء وصدق العاطفة التى تجعلك فى إعجاب غامر وخيال حالم جميل.

يا كون! أنت مثالى ... وفى حياتى حياتك
ألست مرآة نفسى ... وأننى مرآتك
ومن جمالك روحى ... وملء روحى صفاتك
وفى نزوعى وحبى ... ما عبرت لمحاتك
أراك سرا جميلا ... تبثه آياتك
أراك حسنا نبيلا ... تزفه أوقاتك
أراك حبا جليلا ... والحب كالحسن ذاتك
وفى خفوق فؤادى ... ووجده آهاتك

وفى حنينى ودمعى ما مثلت عبراتك

أنت كلى وبعضى وفى حياتى حياتك[1]

إن الأدب معرض كبير والأديب الحق هو الذى يلون الأشياء بخياله، فيجعلها خالدة حية؛ لما فيها من جمال وعاطفة وصدق.

وهو الذى يرى نفسه من خلال الناس حيث يعكس آلامهم وآمالهم وحبهم وكرههم، ويتكلم بلسانهم فيفصح عن مكنونهم وأسرارهم.

ويشحذ عواطفه فى صدق لتعبر عن عواطف الشاعر فى قصائده فى مختلف المناسبات، وينزل إلى غور الكاتب فينطقه بأسلوبه القادر على الإبداع والابتكار.

ويقترب من الدنيا ليعرض صورها ويداوى جراحها ويبثها نجواه.

والأفكار بطبيعتها تجريدية، ولكن الفنان يستطيع أكثر من أى إنسان آخر أن يجعلها مادية ملموسة. وأن يجعلها ذات معنى للفرد فى صورة تجربة متخيلة، وبذا يؤدى دورا خلاقًا فى مخيلة قرائه.

فلو أن أحداً قال مثلا: كلنا نموت ويأكلنا الدود لما أضاف شيئا إلى معرفتنا بأنفسنا أو إلى معرفتنا بالموت أو بالدود.

أما حين يتناول (شكسبير) هذا فى مسرحيته (هاملت) قائلا على لسانه حين يسأله عمه الملك عن جثة (بولونيوس) فيجيب قائلا: فى العشاء.

الملك: فى العشاء؟ أين؟

هاملت: ليس حيث يأكل، بل حيث يؤكل، إن جماعة من الديدان السياسية قد اجتمعت عليه. فالدودة هى إمبراطورية الغذاء الوحيد، فنحن نسمن كل المخلوقات الأخرى، لكى نسمن، ثم نسمن أنفسنا من أجل الديدان، وما الملك

(1) ديوان الشفق الباكى، شادى: ص848.

السمين والشحاذ الهزيل سوى أصناف متنوعة. طبقان. ولكن المائدة واحدة. هذه هى النهاية.

الملك: يا للشقاء! يا للشقاء!

هاملت: قد يصيد الإنسان السمك بدودة أكلت لحم ملك، ويأكل سمكة أكلت من هذه الدودة.

الملك: ماذا تعنى بذلك؟

هاملت: لا شيء سوى أن أريك خط سير ملك من خلال أمعاء شحاذ.

فانظر إلى روعة شكسبير وهو يصور هذا الأمر المألوف المعروف لكل الناس.

إنها البراعة والعبقرية المبدعة الخلاقة، والإلهام الذى بلغ مداه.

وما سلطان الأدب إلا أنه أبدا يجول فى أقطار النفس باحثًا عن مسالكها ومستطلعا آثارها. وما شرف الأديب إلا أنه أبدا يشاطر العالم اكتشافاته فى عوالم نفسه حتى إذا ما وجد آخر بعضا من نفسه فى تلك الاكتشافات كان فى ذلك للأديب أطيب تعزية وأكبر ثواب.

إذن فالأدب الذى هو أدب ليس إلا رسولا بين نفس الكاتب ونفس سواه، والأديب الذى يستحق أن يدعى أديبا هو من يزود رسوله من قلبه ولبه[1].

يقول (سانت بيف):

الأديب هو الكاتب الذى يغنى العقل الإنسانى ويزيد ثروته وهو الذى يعينه للسير قدما، وهو الذى يكشف حقيقة أدبية ويعرضها واضحة أو ينفذ إلى العاطفة الخالدة فى قلب الإنسان فينشرها فى حين يظن الناس أن كل ما فيه مرتاد معروف، وهو الذى يؤدى فكرته أو ملاحظته أو رأيه فى صورة دقيقة معقولة جميلة، ومن

(1) الغربال: ميخائيل نعيمة ص 27 ط بيروت.

يخاطب الناس جميعا بأسلوبه الخاص ولكنه أسلوب الجميع أسلوب حديث وقديم معا وصالح لكل زمان[1].

فمهمة الأدب أنه يصور ما فى نفس الإنسان من فكرة وعاطفة أو حادثة هامة لها مغزاها، ثم ينقل ذلك إلى نفوس القراء فيعينهم على فهم الحياة ويوقظ مشاعرهم السامية القوية، ويوجه نفوسهم بذلك إلى الغايات الإنسانية النبيلة، وهذا هو ما اعتاد النقاد أن يسموه: إيصال التجربة إلى الآخرين، وطبيعى أن تكون هذه التجربة قيمة جادة تؤثر فى الأديب فتوقظ فكره وشعوره، ثم تأخذ صورة معنوية جديدة تستدعى صورة لفظية ملائمة تنقلها صورتها الأولى إلى نفس القارئ، وتوجد هذا الشعور المشترك بين الناس فى غالب الأحيان، والأديب بذلك هو الرسول الذى يتلقى - بعبقريته - من الحياة جمالها وفلسفتها، فيبلغها الناس فى قصته أو مقالته أو قصيدته[2].

وبهذا تظهر أهمية الأدب وضرورته. فهو يعمل على توحيد شعوب الأرض وإحلال رباط الفكر محل رباط الدم، وتحرير الروح، ولأن الأدب لسان حال عقل الجنس البشرى الذى يعبر عن نفسه فمن ثم كان خالدا لا يموت[3].

تأمل (مطران)[4] وهو يقول فى قصيدته البارعة الفلسفية حيث يناجى فيها حبيبته بهذا الأسلوب السهل الممتنع بما فيه من لطف وروعة وانسجام.

إنه ينظر إلى الحياة نظرة شاملة وهذا شىء بسيط، ولكن وضع هذه النظرة فى قالب شعرى وإلباسه هذا اللباس السحرى شىء عجيب لن يقدر عليه إلا هذا الشاعر العريق.

---

(1) أصول النقد الأدبى أحمد الشايب ص 19 ط النهضة.

(2) المرجع السابق نفس الصفحة.

(3) مختارات من النقد المعاصر: 77.

(4) أصداء الحياة: شادى ص 14 ط التعاون

وتطالعك الأبيات بجرسها القوى وديباجتها الرقيقة وأسلوبها الرصين ولغتها المطلقة التى تجعلك فى نشوة غامرة وإحساس مؤثر عجيب.

أرأيت صوغ الدر فى العقيان؟ هذا حباب البن فى الفنان
فلك تمثل شمسه ونجومه أفلاكنا فى السير والدوران
(ليلى) أجيلى الطرف فيه تنظرى سر الكيان وآية الأزمان
تجدى سموات وسعن عوالما فتانة الإبداع والإتقان
منثورة أفرادها، منظومة جمعا بما لا تدرك العينان
سيارة خلل الجهات حوائرا مرتادة فى البحث كل مكان
كل يصير إلى حبيب مرتجى حتى يدانيه فيلتصقان
فيذوب كل منهما فى صنوه وكذلك يحيا بالهوى الصنوان
جسمان يغتديان جسما واحدا كتوحد الحبيبين يقترنان
روحان تمتزجان حتى تصبحا شبه الصبا والطيب يمتزجان
تلك الحياة عتيدها ومصيرها حتى يكون الحب آخر فانى
إذ تنثر الشهب المنيرة مثلما تنهل أدمع عاشق ولهان
ويكون يومئذ شفاء غليلها وهناؤها وفناؤها فى آن
قالت: أذاك مصيرنا؟ فأجبتها السعد آخر شقوة الإنسان
وهو الحياة، نعيشها فى لحظة مجموعة الأفراح والأحزان
عودى إلى الفنجان: أين شموسه والطائفات بها من الأكوان
عاشت على شوق فلما أدركت أوطارها من ملتقى وقران
زالت، وما أبقى الهوى منها سوى عطر يضوع هنية ودخان![1]

(1) أصداء الحياة ص 14.

ولك بعد هذا أن توازن بين نسج مطران وديباجته العذبة فى أبياته السابقة وأبيات (بول فاليرى) فى قصيدته «المقبرة البحرية» التى أثارت جدلا شديدا بين الأدباء والشعراء والنقاد.

فبعضهم يرى أن الشاعر أبدى فيها غاية الإبداع حيث الغموض الذى يحيط بها، وبعضهم يرى أنه نزل بها إلى الحضيض، حيث الظهور والوضوح الذى ملأ جوانبها. يقول فيها:

إنها قدسية، مغلقة ... نارها توقد من غير غذاء
خيم الصمت على أرجائها ... وعلى صفحتها رف الضياء
وهناك البحر فى غفوته ... قد ترامى قرب أجداث ونام
ها هنا أمواتنا قد جثموا ... مدفئا أجسادهم هذا التراب
طاويا أسرارهم فى جوفه ... النشر ينطوى هذا الكتاب![1]

يقول (بول فاليرى) إن جمال الشعر يأتى من أنك تجد اللذة الفنية فى نفسك كلما جددت قراءته، ومن أنك تستكشف فى القراءة الثانية من فنون الجمال ما لم تستكشفه فى القراءة الأولى، بل تجد فى كل قراءة فنونا جديدة من الجمال لم تجدها فى القراءات التى سبقتها.

(1) النقد العربى ومذاهبه: د. محمد عبد المنعم خفاجى ص 146 ط المحمدية.

الفصل الثالث

الشعر عند العرب
وأثره فى حياتهم

الأمة العربية هى ربة الشعر الغنائى بلا جدال، لما حباها الله من رقة العاطفة وجمال الشاعرية وبراعة التعبير، وقوة الموهبة.

وإذا كان لم يصل إلينا من هذا التراث الضخم إلا القليل فهو ولا شك يدل دلالة قاطعة على مدى تقدم هذا الفن الشعرى على يد الشعراء الفحول.

وجمال طبيعتهم وما فيها من صحراء ومفاوز ودروب وشعاب، وما ينبت فيها من عشب وأزهار، وما يسطع فى سمائها الصافية من شموس وكواكب طبعهم على رهافة الحس، وصفاء الذهن، وجودة القريحة.

ومن هنا انطلقت عقيرة الشاعر العربى تصور هذا الجمال الذى يطالعه أينما ولى وسار فوصف الإبل والكواكب والليل والنهار والطيور وحمر الوحش، وتغزل بالنساء وبكى الأطلال، وأطلق لعقيرته فى هذا الاتجاه العنان.

فالطبيعة كانت ملهمة ودافعة له، ومن هنا ظهر هذا الإبداع الجميل، والصفاء الذى يأخذ اللب، ويأسر الفؤاد.

وقد أعان على ذلك اللغة العربية، بما احتوته من أسرار البيان، فألفاظها سهلة معبرة، وكلماتها موحية، وأسلوبها لطيف، لا تكلف فيه ولا تعقيد.

وفيها ما فيها من الاستعارات الجميلة، والتشبيهات القوية، والكنايات المؤثرة عدا ما كثر فيها من حكم وأمثال، فهى أوسع اللغات بما احتوته من أسرار الجمال.

ومما يدلنا على ذلك انتشارها بسهولة فى الأمم التى دخلتها، وتمسك الناس بها والإقبال عليها، فأصبحت السائدة على غيرها من اللغات بدون منازع.

وأعان على خلودها نزول القرآن الكريم بها، فأصبحت به عزيزة فى جميع الأمصار.

ولولا القرآن وأسراره البيانية ما اجتمع العرب على لغته، ولو لم يجتمعوا

لتبدلت لغاتهم بالاختلاط الذى وقع، ولم يكن منه بد حتى تنتقض الفطرة، وتختبل الطباع، ثم يكون مصير هذه اللغات إلى العفاء لا محالة، إذ لا يخلفهم عليها إلا من هو أشد منهم اختلاطا وأكثر فسادا. وهكذا يتسلسل الأمر حتى تستبهم العربية فلا تبين - وهى أفصح اللغات - إلا بضرب من إشارة الآثار، وتنزل منزلة هذا الهروغليف الذى قبره المصريون فى الأحجار، وأحيته هذه الأحجار[1].

وكان العربى حاضر البديهة، قوى الذاكرة، ذا موهبة فى قول الشعر، فعبر به عن أموره المختلفة من حب وفرح، وغضب وألم وغير ذلك. وظهر السحر الجميل من خلال هذا التعبير أشد الخوف على أعراضهم وأنفسهم وقبائلهم.

كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون فى الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان، لأنه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج[2].

ولا شك أن العرب شاع فيهم الفخر بالأحساب والأنساب وانتشر بينهم الهجاء، وقامت الحروب بين قبائلهم لأتفه الأسباب.

ولهذا كان اعتمادهم على الشعر، ليزود عنهم الشر الذى كان يحيط بهم فى مختلف الأوقات.

وسما الشعر بينهم وأصبح مصدر فخرهم وعزهم، فبه يهاجمون ويقتحمون الأهوال، وبسحره كانوا يتطاولون على القبائل الأخرى والبطون.

فكم رفع الشعر أناسا ووضع آخرين، وما هذا إلا لمكانة الشعر عندهم، ومبلغ أثره فى حياتهم.

---

(1) تاريخ آداب العرب: جـ2 ص 74.

(2) العمدة: جـ1 ص 37.

فعـرابة الأوسى اشتهـر بقول الشمـاخ بن ضرار فيـه، وقد بذل له فى سنة شديدة وسق بعير تمرا فقال:

رأيت عـرابة الأوسى يسـمـو إلى الخـيـرات مـنقطع القـرين

إذا مـا رايـة رفـعـت لمجـد تلـقـاهـا عـرابـة باليـمـين

فصار ذلك مثلا سائر، وأثرا باقيا، لا تبلى جدته، ولا تتغير بهجته[1].

وبنوا نمير كانوا جمرة من جمرات العرب إذا سئل أحدهم ممن الرجل؟ فخَّم لفظه ومد صوته، وقـال: من (بنى نمير) إلى أن صنع جرير قصيـدته التى هجا بها عبيد بن حصين الراعى، فسهر لها وطالت ليلته إلى أن قال:

فـغـض الطرف إنك من نمـيـر فـلا كـعـبـا بلغت ولا كـلابا

فلم يرفعوا رأسا بعـدها إلا نكس بهذا البيت[2]. ومن هذا نرى مـدى أثر الشعـر فى حياة العرب حـتى نرى الرسول العظيم ﷺ يستـمع إليه ويعطى لكعب ابن زهير العطاء الجزيل.

ووفد أبى ليلى نابغة بنى جعدة - وكـان شاعرا مفلقا - على النبى ﷺ وقد أتاه مفتخرا، فقال:

بلغنا الـسـمـاء مـجـدنا وسناؤنا وإنا لنبـغى فـوق ذلك مظهـرا[3]

ويرى الرسول فى هذا فخر الجاهلية المذموم، فيقول له:

إلى أين أبا ليلى؟ ويجيـبه إلى الجنة ويرد الرسول عليه: إن شـاء الله. فلما انتهى إلى قوله:

---

(1) العمدة: جـ1 ص 37.

(2) المرجع السابق جـ 1 ص26.

(3) العقد الفريد جـ 2 ص 52 ط لجنة التأليف.

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا[1]

فقال له الرسول: لا يفضض الله فاك.

ويعجب الرسول كذلك كل الإعجاب بحسان شاعره، وقد اتخذه للزود عن الدعوة الإسلامية.

ويعف عن كعب بن زهير حينما أتاه تائبا ينشده قصيدته المشهورة ويشير إلى الخلق أن يسمعوا شعر كعب بن زهير[2].

ويستشهد الرسول يوما بعض الخزرجيين قصيدة قيس بن الخطيم، يعنى قوله:

أتعرف رسما كاطراد المذاهب لعمرة وحشا غير موقف راكب

فأنشده بعضهم إياها فلما بلغ إلى قوله:

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا

كأن يدى بالسيف مخراق لاعب[3]

فالتفت إليهم الرسول فقال: هل كان كما ذكر؟ وأقر بعض الحاضرين بما ذكره ابن الخطيم.

وقد عرضت قتيلة بنت النضر بن الحارث للنبى ﷺ وهو يطوف فاستوقفته وجذبت رداءه حتى انكشف عن منكبه، وقد كان قتل أباها فأنشدته:

يا راكبا إن الأثيل مظنة من صبح خامسة وأنت موفق

أبلغ به ميتا بأن قصيدة ما أن تزال بها الركائب تخفق

---

(1) المرجع السابق جـ 2 ص 52.

(2) مجالس ثعلب: قسم 2 ص 242 ط المعارف.

(3) الأغانى (الدار) جـ 3 ص8.

منى إليه وعبرة مسفوحة جادت لما تحتها وأخرى تخفق

فليسمعن النضر إن ناديته أم كيف يسمع ميت لا ينطق

ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه لله أرحام هناك تشقق

سرا يقاد إلى المنية متعبا رسف المقيد، وهو عان موثق

أمحمد ها أنت نجل نجيبه من قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربما منَّ الفتى وهو المغيظ المحنق

والنضر أقرب من قتلت وسيلة وأحقهم إن كان عتق يعتق[1]

فقال النبى ﷺ: لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته.

ويأتى بعد هذا الخليفة الأديب الناقد عمر بن الخطاب، وكان من أنقد أهل زمانه، وقد عرف عمر بن الخطاب أهمية الشعر وصولته، وأنه يبقى مدى الدهر وما ذاك إلا من شيوع الشعر ودورانه وتمسك العرب به. ويدلنا على هذا قوله لابن هرم: أنشدنى بعض ما قال فيكم زهير. فأنشده، فقال له:

لقد كان يقول فيكم فيحسن فقال: يا أمير المؤمنين إنا كنا نعطيه فنجزل فقال (رضى الله عنه) ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم[2].

ويصل إلى بابه وفد من غطفان، فيسألهم: يا معشر غطفان، أى شعرائكم الذى يقول:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا: النابغة. قال: فمن قال الذى يقول:

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المتنأى عنك واسع

---

(1) العمدة جـ 1 ص 30.

(2) الشعر والشعراء جـ 1 ص 144.

فيجيبونه، فيقول هذا أشعر شعرائكم[1].

وهم عمر رضى الله عنه أن يعطى على الشعر جزيل العطاء؛ لما رأى فيه من حسن وإحسان وقوة عاطفة واعتدال، فقد أنشده سحيم:

عـمـيـرة ودع إن تجـهـزت غـاديا

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا[2]

فقال له: لو قلت شعرك مثل هذا لأعطيتك.

ومن هذا كله يتـضح أن ملكة العرب الشعـرية كانت من القـوة، والوضوح والأصالة بحـيث أخرجت لنا هذا السحر الحـلال الذى انساب من عاطفتـهم حتى جعل القلوب تهفـو إليه، والأسماع تطرب له، وكـان له من الأثر الكبير الذى لا يزال مضيئا على مر الأيام.

(1) الأغانى: جـ 9 ص163 (ساسى).

(2) طبقات الشعراء: ابن سلام ص 156.

الشعر العربى

آراء النقاد فيه - نقد هذه الآراء

عرف (قدامة) الشعر: بأنه قـول موزون مقفى، يدل على معنى[1]. وقسمه (ابن قتيبة) إلى أربعة أضرب: هى اللفظ، والمعنى، ومن جودتهما معا أو رداءتهما معا، أو جودة أحدهما تنتج هذه الأضرب السابقة[2].

واللغويون يعرفون الشعر بأنه العلم بالشيء، وإدراكه والتفطن له. فكل علم يدعى شعرا، ولكنه غلب على منظوم القول لشرفه بالوزن والقافية.

والشاعر من شعر يشعر شعـرا وهو شاعر، وإنما سمى شاعرا لأنه يشعر من معـانى القول وإصـابة الوصف بما لا يشعـر به غيـره. وإذا كان إنما يسـتحق اسم الشاعر بما ذكـرنا، فكل من كان خارجا عن هذا الوصف فلـيس بشاعر، وإن أتى بكلام موزون مقفى[3].

ولنا أن نزيد على هذه العبارة، وإن دل كلامه على معنى فهو مدلول العبارة المتقدمة ما دام الشعر لا يحسب شعرا إلا إذا دل صاحبه على شعور صادق ذاتى لا يشعر به غيره[4].

ومن هذا ترى التقارب بين المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى.

ويقول (سارتر) عن الشعر والنثـر: والأصل فى الشعر أن يخلق من الإنسان أسطورة، فى حين يرسم النثر صورته[5].

(1) نقد النثر ص 77 ت طه حسين، العبادى ط مصر.

(2) الشعر والشعراء جـ 1 ص64 ط المعارف.

(3) نقد النثر: ص77.

(4) بلاغة أرسطو ص 17 ط الأنجلو.

(5) ما الأدب: سارتر ص 36 ط الأنجلو ت غنيمة هلال.

ويذهب (ابن خلدون) إلى أن الشعر هو الكلام الموزون المقفى، أى ما اجتمع فيه قيد الوزن والقافية معا[1].

فالشرطان اللذان يجب توافرهما فى الشعر هما الوزن والقافية، والاتصال بالشعور، فإذا وجدت نوعا من الأدب يجمعهما كان شعراً وأما إذا وجدت الشرط الأول فنثر شعرى. وهو الذى كاد أن يكون شعرا لولا أنه فقد الوزن، وهذان الشرطان يخرجان أنواعا كبيرة مما اعتاد الناس أن يسموه شعرا، وليس بشعر كألفية ابن مالك والمتون والمنظومة[2].

(وابن رشيق) صاحب العمدة يقول: الشعر يقدم بعد النية من أربعة أشياء وهى: اللفظ والوزن والمعنى والقافية فهذا حد الشعر[3].

(وابن طباطبا) يذهب إلى أن الشعر هو الكلام المنظوم البائن عن المنثور الذى يستعمله الناس فى مخاطبتهم، بما يخص به من النظم الذى إن عدل به عن جهته مجته الأسماع، وفسد على الذوق[4].

والشعر عند أرسطو (المحاكاة) وهو يشمل الموسيقى والرقص، بالإضافة إلى الكلام المنظوم[5].

ويقول «رسكن»: الشعر فيضان من شعور قوى، نبع من عواطف تجمعت فى هدوء.

وهذا التعريف لا يعطى للشعر مزية على غيره من الفنون ففيضان العواطف بالانفعال تأتى فى كل عمل فنى وليس فى الشعر وحده[6].

---

(1) المقدمة ص 566.

(2) النقد الأدبى: أحمد أمين - ص64 ط النهضة.

(3) العمدة: جـ 1 ص99. (4) عيار الشعر: ص3 ط التجارية.

(5) فن الشعر: أرسطو - ص ز - ت شكرى عياد، ط دار الكتاب.

(6) النقد الأدبى: أحمد أمين ص 63.

ويقول شيلى يصف الشعر بأنه: «خير كلمات صفت فى خير نظام».

وشيلى لا يحدد نهجا خاصا للشعر ولا يفرق بين الشعر والنثر، ولا أدرى ماذا يريد من قوله: «خير كلمات فى خير نظام»؟.

هل يقصد الإثارة مثلا؟ فإعلانات الصحف تظهر فى مثل هذا الوصف الذى يطلقه شيلى فهى تختار بدقة وعناية، وكذا النثر العلمى فهو خير كلمات فى خير نظام.

ويرى (كروتشيه) أن التعبير الذاتى فى التعبير الغنائى (موضوعى بطبيعته) لأن الشاعر يجعل ذاته موضوعية، وكأنه يتأملها فى مرآة، فتعبيره ذاتى فى نشأته، ولكنه موضوعى فى عاقبة تعبيره عنه، وهذا التعبير شخصى فى تصوير مشاعر صاحبه، ولكنه عالمى فى صورته الشعرية[1].

(وأرنولد): يذهب إلى أن الشعر هو نقد الحياة والكشف عن القيم التى يراها الشاعر فى هذه الحياة أو فى جزء منها يهتم به الشاعر.

وهذا الرأى لا يفرق بين الشعر والنثر فمن أهداف القصص والمسرحيات والمقالات والخطب الكشف عن القيم أو الدعوة إلى الفضيلة أو إصلاح عيوب المجتمع إلى غير ذلك.

ويقول آخر: والشعر فى استعانته بالموسيقى الكلامية إنما يستعين بأقوى الطرق الإيحائية؛ لأن الموسيقى طريق السمو بالأرواح والتعبير عما يعجز التعبير عنه[2].

---

(1) النقد الأدبى الحديث: غنيمى هلال ص 387 ط الشعب.

(2) المرجع السابق نفس الصفحة.

مناقشة

من الآراء السابقة التى ذكرناها يتضح: أن تعريف قدامة للشعر تعريف منطقى صرف، وقد جانبه الصواب حينما أدخل هذا الفن الجميل فى خضم المنطق والفلسفة التى تأثر بها، وقصر قدامة أيضا حينما لم يعين المراد (بالمعنى) بحيث يظهر لنا التحديد الواضح لهذا الفن عن النثر أو غيره من فنون القول.

وإذا كان ابن قتيبة جاء تعريفه قاصرا كما ذكرناه فإنه لم يحدد أيضا ما يميز النثر عن الشعر وكل جهده أنه حدد عناصر الشعر وحصرها فى الأضرب السابقة.

وتعريف ابن طباطبا أوضح من التعريفين السابقين.

ورأى ابن رشيق متأثر بالسابقين عليه، وقال غير واحد من العلماء: الشعر ما اشتمل على المثل السائر، والاستعارة الرائعة والتشبيه الواقع، وما سوى ذلك فإنما لقائله فضل الوزن[1].

فابن رشيق يحشد آراء العلماء ويتأثر بهم فيما يذهبون إليه.

ويتضح من تعريف ابن خلدون أنه يلح على إبراز الخصائص للشعر، ويوضحها فى التعريف الذى ذكره.

وللحق نقول: إن التعاريف السابقة للشعر كان لها أثرها على المحدثين من النقاد والأدباء. فالتعاريف الحديثة للشعر تصور هذا التأثر بدرجة كبيرة كما سبق.

ويقول أحد الأدباء المحدثين عن الشعر: الشعر يقصد الشاعر فيه إلى التأمل فى تجربة ذاتية محضة أو ذاتية لها طابع اجتماعى، لينقل صورتها جميلة، والشعر هو الخلق الأدبى الموقع للشىء الجميل[2].

---

(1) العمدة: جـ 1 ص79 ط السعادة

(2) النقد الأدبى الحديث: ص 288.

فالموسيقا والتجربة الشعورية وجمال التعبير وبراعة الخيال والتشبيه الرائع كما وردت فى تعاريف القدماء نراها تمثلت هى الأخرى فى تعاريف المحدثين بصورة أو بأخرى مضافا إليها رقى الفكر، وتطور الأساليب وتشعب الأعراض.

وإذا كان الأدباء والنقـاد ـ كما رأينا ـ اختـلفوا فى تعـريف الشعر فـهم قد اتفقوا على أنه لا يكون شعرا إلا إذا كان صادرا عـن الطبع ومتصلا بهذا البهاء من جمال الفن ولطف التـخيل، وإلا فهو نظم لا غير وإذا كان المـصور البارع يعرض عليك الصورة من نقشه فتأخذها عينك وتحـيرك فيم تستحسن منها أو تدع فكذلك الشاعـر يحمل إلى خـيالك فى تماثيل ألفـاظه صور الأشـياء مـتخيلة فـى أزيائها الطبيعية حتى لتكاد تراها ماثلة بين عينيك.

ذلك هو الشعر يتحدث عن الرياض، فيكـاد يسطع طيبها، ويصف الغانيات فيسـاقط عليك اللؤلؤ من حديثها، ويحكى طراد الفـرسان فتمـسك جنبيك حذاراً من وقع رماحها. فهو أغنية الزمان، وحلية هذا البيان[1].

فليحاول النـقاد إذن ما شاءت لهم محـاولة التفتيش عن كل أسـرار الشعر، وليصوروها لنا مـا شاء لهم التصوير، وليكشـفوا لنا عما قد يكون فـيه من أخيلة واستـعارات وتشبيـه ومجاز، وليؤلفـوا من مثل هذا علما أو فنا للناس، غـير أننا نطمع منهم أن يضعوا موسيقى الشعر فى محلها الأسمى، وألا يقرنوها بشىء آخر قد يعثرون علـيه فى بعض الأشعار، أو يتعثـرون فى البحث عنه والتنقيب. فليس الشعر فى الحقيقة إلا كلاما موسيقيا تنفعل لموسيقاه النفوس وتتأثر بها القلوب[2].

---

(1) الأدب العربى وتاريخه: ج هوارث، ص 91.

(2) موسيقى الشعر. إبراهيم أنيس ص 15 ط الأنجلو

أولية الشعر العربى

ليس من شك فى أن الشعر صنو الغناء، فتربتهما واحدة وهدفهما واحد. فمن قال الشعر قاله ليتغنى به.

وقضى اليونان أجيالا لا يقولون الشعر إلا إنشادا[1].

ولعل العرب كانوا كذلك فى أقدم أحوالهم، فنبغ منهم جماعة يغنون بشعرهم كما فعل الأعشى قبيل الإسلام، فقد كان ينظم الشعر ويغنيه ولذلك سموه صناجة العرب.

وقال حسان:

تغن بالشعر إما كنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار[2]

وغمض على الباحثين الذين دونوا الشعر العربى بدايته فى القديم. وتفتحت الإنسانية على هذا التراث الهائل الذى تلاقت نغماته فى هذا الكون الفسيح، وكأنه هدية السماء.

وهكذا مشى الشعر يتسرب فى أعقاب العصور حتى ظهر على غفلة من التاريخ، فى هذه البادية العربية فرتع ما شاء الله بين آفاقها الحلوة وسمائها الصافية، ورسم لهذه الأمة الخالدة صفحة ناصعة، حليت بها صدور الأسفار وتمثلتها الأجيال بعد الأجيال، عليها تماثيل الحياة الجافية البدوية فيما بقى من هذا الشعر الجاهلى[3].

---

(1) تاريخ آداب اللغة العربية، جـ 1 ص54.

(2) العمدة: جـ2 ص 241.

(3) الأدب العربى وتاريخه، ص 90.

ومنذ ظهر العرب على صفحة التاريخ، ولا تستطيع رواية مأثورة أن تقدم لنا خبرا صحيحا عن أولية الشعر[1].

ومن يتأمل الشعر الجاهلى يجد أن بدايته معدومة فلا يعرف أول من لهج بالشعر، وأطال القصيدة[2] ويذكر صاحب (العمدة) أن أول من قصد القصائد هو المهلهل بن ربيعة... قال الفرزدق بن غالب:

ومهلهل الشعراء ذاك الأول[3]

وهناك رأى آخر يقول: إن (امرؤ القيس) هو أول من أطال القصائد وقال الشعر وتبعه طرفه وعبيد الأبرص.

وانطلقت شاعرية العرب، تشدو بهذا الفن الجميل، لا فرق فى هذا بين رجل وامرأة أو أمير وصعلوك.

وتسابقت القبائل العربية فى نسبة بداية الشعر إليها حرصا منها على شرف هذا الفن، وحسن الأحدوثة والصيت.

والدليل على ذلك قولهم: بدأ الشعر بكندة، يعنون امرأ القيس، وختم بكندة، يعنون أبا الطيب. ويقولون أيضا:

بدأ الشعر بملك وختم بملك، يعنون امرأ القيس وأبا فراس الحارث بن سعيد بن حمدان. ويرجع بعضهم هذه البداية والنهاية إلى ربيعة، يعنون مهلهلا وأبا فراس[4].

فالبداية معدومة كما قلنا أو غير معروفة كما أشرنا سابقا، لأنه ليس بين

---

(1) تاريخ الأدب العربى: بروكلمان، جـ 1 ص44.

(2) العمدة جـ 1 ص 54.

(3) المرجع السابق جـ 1 ص 54.

(4) المرجع السابق نفس الصفحة.

أيدينا دليل يحسم هذه القضية، ويضعها فى مكانها الصحيح لأن تاريخ هذا الفن بدأ متأخرا ومن هنا تضاربت الأقوال وتنوعت الاتجاهات فيما ذكرناه من آراء.

وبالرغم من هذا لا بد أن الشعر الجاهلى قد مر بأطوار مختلفة حتى وصل إلينا بهذه الصورة التى تغنى بها الشعراء.

فهو لم يظهر مرة واحدة كامل الهيئة متكامل الأركان التى نراها فى القصائد والمقطوعات بل تدرج فى هيئته إلى أن وصل إلى مراتب الكمال.

فامرؤ القيس يقول:

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن خزام[1]

وزهير يقول:

ما أرانا نقول إلا معارا أو معادا من قولنا مكرورا

وعنترة يقول:

هل غادر الشعراء متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

والذى ينظر فى شعر هؤلاء يتضح له أن الشعر الجاهلى مر بأطوار مختلفة حتى وصل إلى الصورة التى ذكروها فى قصائدهم.

يقول امرؤ القيس: إنه يريد أن يبكى الديار كما ذكرها ابن خزام. وابن خزام هذا لا شك أنه سابق على امرئ القيس ويؤكد هذا زهير وعنترة حينما ذهبا إلى أن هناك شعراء سبقوهم فى هذا الاتجاه وهما سائران فى نفس الطريق.

فالوزن فى القصائد وكذا القافية وما فيها من ملامح أسلوبية وبيانية، وكذا الإيجاز واختيار الألفاظ الذى يؤدى إلى جمال التركيب وإبداع الصور كفيل بأن تكون القصائد مرت بمراحل متعددة حتى وصلت إلى حالتها التى دونها الرواة.

---

(1) العمدة جـ 1 ص 37.

والذى نميل إليه أن الشـعر العربى فى طفولتـه قد مر بأحقـاب عديدة تدرج فيها من السجع إلى الرجز، ثم إلى المقطوعات البسيطة التى تتكون من أبيات قليلة إلى أن وصل إلى الأوزان والقوافى الموجودة الآن.

جمع الشعر الجاهلى

أسبابه - طرقه - مصادره - أشهر رجاله

عاش الشعر الجاهلى فى الصحراء، ينشد على ألسنة الرواة، ويستشهد به فى مختلف المناسبات، وتقام به المجالس والندوات والأسواق، فكان عماد الأذواق وعدة المحاربين، وأنيس المحبين، واتخذه الشعراء مادة سمرهم، وحبهم وبغضهم ووفادتهم على الأمراء والخلفاء إلى أن جاءت الفتوحات، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا وانتشر الإسلام فى أرجاء الدنيا، واحتاج العرب فى هذه البلدان إلى قاموسهم الأكبر - وهو الشعر- فلم يجدوه مدونًا.

وكيف يدون، والقرآن الكريم فى الصدور، والحديث النبوى على الألسنة يحتاج إلى كتابة وتدوين؟

ومما لا شك فيه أن العرب قد استودعوا شعرهم جميع ما يهمهم، لاعتقادهم الجازم أنه عنوانهم ودليل نبوغهم، ومصدر فخرهم على الدوام.

فقد احتفى بنو تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم، وكان يرويها صغيرهم وكبيرهم حتى هجوا بذلك، فقال بعض شعراء بكر بن وائل.

ألهى بنو تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم[1]

وفيها افتخر بقومه ورجاله، وتصدى للأعداء، وأظهر لهم ما عنده من قوة وعناد.

وتعلق الأبناء بشعر آبائهم لما فيه من مآثر وفخر، فظلوا يعتزون به فى كل مناسبة، وينشدونه فى كل وقت وحين.

---

(1) الأغانى جـ 11 ص 54 ط (الدار).

فقد دخل ابن أبى محجن الثقفى على معاوية، فقال له[1]:

أبوك الذى يقول:

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة تروى عظامى بعد موتى عروقها

ولا تدفننى بالفلاة فإننى أخاف إذا مت أن لا أذوقها

فقال ابن أبى محجن: لو شئت ذكرت أحسن من هذا من شعره قال: وما ذاك؟ قال: قوله:

لا تسألى الناس ما مالى وكثرته

وسائلى القوم-ما حزمى وما خلقى؟

القوم أعلم أنى من سراتهم

إذا تطيش يد الرعد يدة الفرق

أعطى السنان غداة الروع حصته

وعامل الرمح أرويه من العلق[2]

ودخل إبراهيم بن متمم بن نويرة على عبد الملك بن مروان، فقال له: أنشدنا بعض مراثى أبيك - عمك، فأنشده[3].

نعم الفوارس يوم نشبة غادروا تحت التراب قتيلك ابن الأزور

حتى انتهى إلى قوله:

أدعوته بالله ثم قتلته؟ لو هو دعاك بمثلها لم يغدر

---

(1) عيون الأخبار، م1 ص 38 ط (الدار).

(2) المرجع السابق. وراجع المستطرف - الأبشيهى جـ1 ص 72 ط التقدم.

(3) الموشح: المرزبانى، ص 240 ط السلفية.

وظل الشعر الجاهلى قبلة الخلفاء والأمـراء والقواد وغيرهم، يأخذون منه ما يعن لهم، لما فيه من قيم، وبما انبث فيه من خصال حميدة، ومثل عظيمة.

ونرى الرسول العظيم ﷺ يستـشهد بكثير منه وكذا أصحـابه من بعده، فقد أنشد للرسول ﷺ قول عنترة:

ولقـد أبيت على الـطوى وأظله حـتى أنال به كـريـم المأكل[1]

فقال الرسول ﷺ: ما وصف لى أعرابى قط، فأحببت أن أراه إلا عنترة.

ونظرة فى كتاب عمر بن الخطاب إلى أبـى موسى الأشعرى تدلنا على مدى حرص عـمر فـى دفع الشعـر فى نفوس الناس، لما فـيه من مـثل حسنـة وعادات محببة، قال له:

مر من قبلك بتعليم الشعـر، فإنه يدل على معالى الأخلاق، وصواب الرأى ومعرفة الأنساب[2].

ومع هذا التعلق والاحتفاء لم يحظ الشعر بالتدوين فى العصرين: الإسلامى والأموى للأسباب الآتية:

1 - انشغال المسلمين بالجهاد الأكبر فى سبيل الله وقتال المشركين.

2 - حرصهم على حفظ القرآن والحديث النبوى الشريف.

3 - عسر الكتابة فى هذا العصر، وثقل أدواتها.

4 - اهتمـام العرب بالرواية لا بالكتابة اعتـماداً على سلامة ذوقـهم ورهافة حسهم.

وليس معنى هذا أن كتابة الشعر لم تكن شـيئًا مذكوراً، بل كانت قليلة وفى اتجاه محدود.

---

(1) الأغانى: (ساسى)، جـ7 ص 144.

(2) العمدة: جـ1 ص 28.

وقد يتساءل المرء عما إذا كان الرواة قد استعملوا الكتابة فى نشر أو تدوين قصائد الشاعر، فمن الأوفق ألا نؤكد شيئًا من هذا القبيل، وقد رويت بعض الوقائع للتدليل على هذا الاستعمال ولكنها ليست نهائية[1].

فأكثر الرواة اعتمدوا على الرواية الشفهية لحفظ الشعر أكثر من اعتمادهم على كتابته وتدوينه، وانتقل الشعر من راو إلى آخر حتى استقر فى صورته النهائية التى سنعرض لها بعد قليل.

ولا شك فى أن بعض الرواة فى بعض المراكز الحضرية قد دونوا كتابة بعض القصائد الهامة، ولكن ذلك يعوزه الدليل، حتى لو سلمنا بصحة وقوع ذلك فإن التدوين لم يشمل إلا جزءاً من آثار الشعراء الحضريين، أما البقية فقد سارت فى الصحراء عن طريق الرواية الشفهية.

وخلاصة القول فإن الرواية الشفوية وحدها تؤلف الطريقة الأساسية «للنشر» منذ اللحظة التى قذف فيها الشاعر وروايته الأشعار فى خضم الجماهير[2].

ومما يدلنا على ذلك أن بعض النسابين العرب الذين كانوا يعرفون كثيراً من المقطوعات أو القصائد أو الأبيات التى تحتوى على أصول القبائل وتاريخها، أو مصاهرتها، أو هجراتها - لم نجد لهم كتبًا مدونة أو مصنفات بل كان اعتمادهم على المشافهة والحفظ أكثر من اعتمادهم على الكتابة.

فدغفل وصحارى العبدى، وهما يعدان فى طليعة علماء الأنساب يؤكدان ما ذهبنا إليه. وقد أشار صاحب الفهرست إلى أن دغفل لا مصنف له[3].

وعلى هذا كانت الطريقة الشفوية هى المسيطرة على الشعر فى هذا الوقت،

---

(1) تاريخ الأدب العربى: بلاشير - 101.

(2) المرجع السابق نفس الصفحة.

(3) الفهرست: 89.

ومر الشعر الجاهلى بمراحل عديدة حتى استقر على صورته النهائية فى الكتب والمؤلفات.

وقد برز الأصمعى فى مجال جمع الشعر، وانتهى عمله بحصاد وفير مما غذى الأدب العربى اللاحق، وأوحى للعرب جميعًا باحترام هذا التراث مدى الدهور[1].

وسار الجمع فى سرعة ونشاط، وتسابق علماء البصرة والكوفة فى هذا الاتجاه.

ولاشك فى أن اللغويين وفقهاء اللغة والمحققين - كانوا يستعينون عند الحاجة بمخبرين، عارضين أو متطوعين، مع اتخاذهم الحيطة بتحقيق مصادر أخبارهم ودرجة صدقها، كما كان هؤلاء العلماء يقومون بتحريات محلية سواء فى الصحراء أو فى وسط القوافل، ومن هنا كانوا يجمعون من الوثائق أكثرها صحة، ولكن الأجيال لم تحفظ أسماء هؤلاء الرواة المتواضعين[2].

ويعود الفضل فى الجمع المنهجى للنصوص الشعرية، والأخبار التاريخية المتعلقة بها إلى العلماء والنحاة واللغويين الذين أعقبوا كبار الرواة.

وقد أدى هذا الجمع إلى تدوين نهائى للآثار الشعرية التى ظهرت قبل الإسلام أو فى أوائله. ففى النصف الثانى للقرن الثانى للهجرة (الثامن للميلاد) جرى التدوين وتركز النشاط كما هو منتظر فى البصرة والكوفة وبغداد، وعلى الرغم من أن التنوع هو الطابع الغالب على الجمع فقد لوحظ عند أغلبية رجال هذا الجيل ميل إلى التخصص[3].

وقد تعب علماء الشعر فى صقله وتهذيبه وتنقيته من الدخيل والغريب

---

(1) الجاحظ فى البصرة وبغداد وسامراء: شارل بلات ص 189 ط سوريا.

(2) المرجع السابق، ص 190.

(3) تاريخ الأدب العربى ص 123.

فكانوا يتأكدون مما تضيفه القبائل إلى شعرائها، فلم يكتفوا بسماعه من مصادره بل كانوا يؤكدون أخذه من عالم ثقة أو رواية خبير، وكانوا لا يقبلون رواية الشعر من صحيفة أو مصنف مكتوب بل لابد فيها من الإسناد على نحو ما فعل علماء الحديث.

وعلى نحو ما تشدد المحدثون فى رواية الحديث النبوى، وجعلوا أساسها اللقاء والمشافهة تشدد علماء اللغة والشعر، فكانوا لا يقبلون رواية الشعر من صحيفة، ولا من مصنف مكتوب، بل لابد أن يكون أساسها الأخذ عن عالم ثبت فى الرواية وفى اللغة. ومضوا يعنون عناية بالغة بالإسناد على نحو ما عنى المحدثون بإسناد الحديث[1].

بحيث لا نصل إلى أبى الفرج فى كتابه الأغانى حتى نجد مع كل خبر وكل شعر سنده من الرواة الذين حملوه جيلاً بعد جيل، وهو يستهل السند دائمًا بكلمة (حدثنا) أو (أخبرنا) ثم يذكر أسماء من حملوا الشعر أو الخبر، وهذا كله يظهر مدى الجهد الذى بذله هؤلاء العلماء، ويواكبهم عرق الرواة ومشقتهم فى هذا الاتجاه.

فالانتقال إلى البادية، ومعايشة الأعراب، والسهر على الأخذ منهم وغربلته ورفض ما يكون فيه من زيف ثم حفظه، واتصال نسبه إلى القبائل أو أبناء الشعراء - كل هذا جهد كبير قام به العلماء فى هذا الوقت من الزمان.

وقد بدأت حركة الجمع بتحديد مصادر هذا التراث ومناطقه، وشد الرواة رحالهم إلى البادية والمناطق المعزولة نسبيا عن المخالطة اللغوية، ليأخذوا اللغة من أفواه الأعراب الذين لم تفش فيهم عجمة، لينقلوا عن أبناء القبائل ما وعت ذاكرتهم من شعر شعرائهم.

ثم فحص ما جاءت به حركة الجمع من نصوص المرويات فحصًا دقيقًا،

(1) البحث الأدبى: شوقى ضيف، ص 163.

لتوثيق مصادرها ومتونها، على أيدى خبراء ذوى بصر بالشعر، يعرفون صحيحه من زائفه كما يعرف الجوهرى صنوف الجوهر والدراهم، فكشفوا عن أكثر الزائف والمنحول، وميزوا رواة عرفوا بالضبط والثقة والأمانة، وجرحوا آخرين اشتهروا بالتهاون أو الوضع.

يقول الرافعى عن الرواة وقوة علمهم:

«هؤلاء الرواة الأفراد الذين ذهبوا بمآثر العلوم. وكانوا مشيخة الأجيال، وانقادت لهم أزمة الأسانيد، واتخذ التاريخ منهم أقطاب رحاه، وقل منهم من لا يجمع علوم الرواية كلها أو أكثرها بحسب ما يكون فى عصره من النسب والخبر والشعر والعربية واللغة[1].

(1) تاريخ آداب العرب: جـ1 ص 413.

مصادر الشعر الجاهلى

تمخضت جهود العلماء والرواة عن مصادر للشعر جمعها اللغويون فى الكوفة والبصرة، فكانت تراث العرب وعنوان حضارتهم على مدى الأجيال.

وكان هذا الجمع فى مختارات أو منتخبات، أو فى دواوين القبائل أو لأفراد الشعراء. أو ذكر مجموعات شعرية لبعض طبقات العرب آنذاك.

1 - وتعتبر المعلقات أقدم ما بقى من القصائد الكاملة وقد جمعها حماد الراوية، وسماها (المعلقات) أو السموط وأراد بهاتين التسميتين الدلالة على نفاسة ما اختاره والافتخار بخالص اختياره[1].

2 - وظهر المفضل بن محمد بن يعلى الضبى المتوفى 164هـ - 780م وكان معاصراً لحماد فجمع 126 أو 128 قصيدة، وفيها بعض المقطوعات لسبعة وستين شاعراً، وأكثر هؤلاء الشعراء، أى سبعة وأربعون منهم من شعراء الجاهلية، أربعة عشر شاعراً من المخضرمين، ستة فقط من الإسلاميين، وسمى المفضل مجموعته فى الأصل: كتاب الاختيارات، ولكنها سميت بعد ذلك نسبة إلى جامعها بالمفضليات.

3 - وجاء الأصمعى وجمع نخبة متواضعة تتكون من 72 قصيدة وقطعة، ومجموع أبياتها 1163 وعدد شعرائها واحد وستون شاعراً، ولم يسم ثلاثة منهم، وبقى خمسة مجهولين لا تعرف أسماؤهم، وأكثر الباقين من شعراء الجاهلية.

ولم تلق هذه المجموعة التى سميت (بالأصمعيات) ما لقيته (المفضليات) من الانتشار والقبول، لأنها أقل اشتمالاً على غريب اللغة العربية، ولأن الأصمعى عمد فيها إلى اختصار الرواية.

---

(1) تاريخ الأدب العربى: بروكلمان: جـ 1 ص 67 وما بعدها ط المعارف.

4 - وجمع أبو زيد القرشى فى نهاية القرن الثالث للهجرة مجموعة، تسمى (جمهرة أشعار العرب)، وتشتمل على سبعة أقسام، وأولها المعلقات السبع، المجمهرات، والمنتقيات والمذهبات، والمراثى، والمشوبات، والملحمات. وتغلب على الأقسام الستة الأولى قصائد للشعراء الجاهليين، أما القسم الأخير فيشتمل على قصائد لشعراء العصر الأموى.

5 - وظهر فى بغداد مصنف مجهول، يسمى: محمد بن المبارك بن محمد ابن ميمون، الذى جمع ألف قصيدة وجعل عنوان هذه المجموعة (منتهى الطلب فى أشعار العرب) وذلك فى بغداد (89 - 588).

6 - وسار أبو تمام المتوفى سنة (231 - 846) فى هذا الطريق فصنف خمسة كتب فى الشعر، منها كتاب: الحماسة، وهو عنوان غلب على هذا الكتاب عند المتأخرين تسمية له بأول أبوابه، ويليه باب: المراثى، باب الأدب، باب النسيب، باب الهجاء، باب الأضياف والمديح، باب الصفات، باب الملح، باب مذمة النساء.

وقصر أبو تمام اختياره على شعراء الجاهلية وصدر الإسلام.

7 - وجمع البحترى الشاعر المتوفى سنة (284- 897) مختارات سميت (الحماسة). وهى مقسمة إلى 174 بابًا، وتشتمل على قطع، وكثيرًا على أبيات مفردة فى مختلف معانى الشعر، ولم تنل حماسة البحترى هذه من الذيوع ما نالته حماسة أبى تمام.

8 - وصنفت اختيارات كثيرة فى الأزمنة الأخيرة بعنوان (الحماسة) ونذكر منها:

(أ)حماسة الخالديين، أو كتاب الأشباه والنظائر، للأخوين: أبى عثمان سعيد (المتوفى 350-961)، وأبى بكر محمد (المتوفى سنة 380-990) ابنى هاشم الخالدى، وكانا من شعراء سيف الدولة الحمدانى.

(ب) حماسة ابن الشجرى، وطبعها (كرنكو) فى (حيدر أباد) 1345.

(جـ) الحماسة المغربية، جمعها يوسف بن محمد البيانى فى تونس 646-1248.

(د) الحماسة البصرية، وجمعها صدر الدين على بن أبى الفرج البصرى، وقدمها سنة 647 - 1249 إلى الملك الناصر أمير حلب.

9 - وفى مجال الدواوين: جمع الأدباء كثيراً من الدواوين للشعراء والقبائل لم يبق منها إلا ديوان (هذيل) وكان موجوداً عند البغدادى صاحب خزانة الأدب.

وصنف أبو سعيد السكرى كتاب: أخبار اللصوص. جمع فيه أشعار لصوص البدو المشهورين.

وفى هذا الكتاب ديوان: طهمان بن عمرو الكلابى الذى عاصر عبد الملك ابن مروان.

وظهر حشد من الكتب التى اعتنت بالشعراء وأحوالهم وترتيبهم من الناحية التاريخية والفنية، وأقدم هذه الكتب (طبقات الشعراء) لمحمد بن داود، الذى ذكره الجهشيارى فى كتاب (الوزراء).

وطبقات الشعراء لابن المعتز، وطبقات الشعراء لدعبل الخزاعى. المتوفى سنة (276-860):

وبقى لنا كتاب. طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى (المتوفى سنة 231-845).

وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة (المتوفى سنة 276 - 889). واكتفى المرزبانى المتوفى سنة (380 - 990) بترتيب الشعراء على حروف المعجم فى كتابه معجم الشعراء.

وظهر كتاب الأغانى للأصفهانى الذى أغنى عن كثير من الكتب السابقة.

وجمع البغدادى: خزانة الأدب، وعرض فيها لكثير من الشعراء وأخبارهم.

وبعد، ،

فهـذا قليل من كثـير من تراث العـرب ولو وصل إلينا شعـر العرب كـاملاً لحصلنا على أضعـاف هذه الكتب والدواوين. قال أبو عمرو بن العـلاء: ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير[1].

وقال ابن سلام: ذكرنا العرب وأشعارها المشـهورين المعروفين من شعرائها، وفرسانها وأشرافها وأيامها - إذ كان لا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب، وكذلك فرسانها وساداتها وأيامها[2].

وهناك نقطة يجب أن نوضحـها وهى أن طريقة هؤلاء كانت ذاتـية سواء فى وضع نص، أو التـحقيق من سـيرة، أو نسـبة قطعة إلـى شاعر، أو التـمييـز بين الصحيح والموضوع، وقيمة الطريقة تبع لقيمة صاحبها وفكره ومدى ثقافته.

فـفضل هؤلاء لا يجـحد، وجـهدهم لا يـذم، ويكفى أنهم استطاعـوا أن يخرجوا لنا هذا كله من براثن الزمن وخطوب الأيام.

---

(1) طبقات فحول الشعراء: ص 23 ط المعارف.

(2) المرجع السابق: ص 5.

أنواع الشعر

هناك أنواع ثلاثة للشعر حسب تقسيم الإفرنج:

الشعر الغنائى، والشعر القصصي، والشعر التمثيلى.

وقد عورض هذا التقسيم بذكر أنواع لا تدخل أحد فروعه، حتى قسمه بعضهم أقسامًا خمسة: مضيفًا إلى هذه الثلاثة - الشعر التعليمى الذى يمجد الفضائل الدينية أو الخلقية، ويدعو إليها كمذهب أبى العتاهية، ثم الشعر الهجائى الذى يهاجم الرذائل أو الأخطاء الاجتماعية، وينفر منها، وهو غير السباب الشخصى المشهور فى الأدب العربى.

وعندى أنه من المستطاع رد هذين القسمين إلى الشعر الغنائى إذا لوحظ أنهما يصوران شعور الفرد: وهو حبه للخير، وبغضه للشر، أو غيرته على الشعب، أو الحياة العامة - أن تشوه بالنقائص[1].

الشعر الغنائى:

هو الشعر الموسيقى الذى يترجم عن عواطف الشاعر من حب وكره ومدح وثناء وغير ذلك، فيبعث فى السامعين نشوة وارتياحًا وحنينًا، أو ثورة وغضبًا وانتقامًا.

ومعنى كلمة غنائى فى الأصل شعر يغنى به على الآلة الموسيقية[2].

والشعر الغنائى هو الشعر الذى كان ينظم لكى ينشده الشاعر على هذه الآلة. ولكن الشعر والموسيقى تطورا واستقل أحدهما عن الآخر، فتغير معنى كلمة غنائى ولم يعد من الضرورى أن يكون الشعر الغنائى مما يتغنى به على

(1) أصول النقد الأدبى: أحمد الشايب: ص 309 ط النهضة.

(2) النقد الأدبى: ص 82.

القيثارة، فاستعملت كلمة غنائى فى كل شعر ليس قصصيًا ولا تمثيليًا، وأكثر ما يعبر عن خلجات النفس، ولكن إذا كان الشعر الغنائى قد استقل عن الآلة الموسيقية فقد بقى فيه صلة بالموسيقا، فكل الأشعار الغنائية نجد فيها عنصراً ضروريًا من الموسيقا[1].

والصلة شديدة بين الشعر والغناء، ذلك لأن الغناء جزء من كيان الإنسان، سواء أكان هذا الإنسان متقدمًا أم متخلفًا.

فالغناء موجود عند جميع الأمم بلا استثناء، قال ذو الرمة:

أحب المكان القفر من أجل أننى به أتغنى باسمها غير معجم[2]

ويقول المتنبى:

أجزنى إذا أنشدت شعراً فإنما بشعرى أتاك المادحون مرددا

ودع كل صوت غير صوتى، فإننى أنا الصائح المحكى والآخر الصدى

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

فسار به من لا يسير مشمراً وغنى به من لا يغنى مغرداً

وإذا كان اليونان تأخر عندهم الشعر الغنائى - فإنهم أقبلوا عليه، ورفعوا شعراءه إلى أعلى الدرجات. فصار ملوك اليونان وكبراؤهم يقربون الشعراء الغنائيين لسماع المدح، كما فعل العرب فى إبان دولتهم، فكثر الشعراء الغنائيون عندهم، وأستاذهم (بندار). وشاع الشعر الغنائى فيهم، فاشتغلوا به عن الشعر القصصى. وكأنهم اشتغلوا بإثارة العواطف والحث على الفضائل عن تقرير الحقائق وسرد الحوادث[3].

---

(1) النقد الأدبى ص 82.

(2) العمدة: جـ2 ص 41 ط السعادة.

(3) تاريخ آداب اللغة العربية، جـ 1 ص 52 ط الهلال.

ومن أشهر الجماعات التى كانت تؤلف الشعر، وتتغنى به فى العصور الوسطى أولئك الأشخاص الذين يطلق عليهم اسم (تروبادور)، وهذه الطائفة من الشعراء قد تأثرت كثيراً بالشعر العربى فى الأندلس.

وفى الغالب أن الاتصال بين الغناء والشعر يختلف قوة وضعفًا[1] باختلاف الأمم، ففى الأحوال المتطرفة جداً يكون الشعر والغناء متلازمين، وفى الأحوال الأخرى يكون الأمر وسطًا، بحيث يكون من الأشعار ما تتغنى به أحيانًا، ومنها ما ينشد إنشاداً معتاداً. على كل حال كانت الصلة بينهما أشد فى الزمن القديم منها فى العصور الحديثة[2].

والشعر العربى من هذا النوع لأنه ذاتى، فقد قاله العرب فى كل أحوالهم، وترجموا به عما يجيش فى عواطفهم، وأودعوه بطولتهم وشجعاتهم وحبهم، وتغنوا به فى كل أيامهم وحياتهم.

قال صاحب العمدة[3]:

وكان الكلام كله منثوراً، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأنجاد، وسمحائها الأجواد، لتهز أنفسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً، لأنهم شعروا به، أى فطنوا وتغلغل الغناء - أيضًا - فى أقسام الشعر الأخرى فنشأت مسرحيات غنائية ونصف غنائية. وهناك كثير من الملاحم التى غنى بها أيضًا.

على أن لفظ الشعر الغنائى صار يطلق على الأشعار التى ليست من الضرب

---

(1) التوجيه الأدبى: ص 129.

(2) المرجع السابق نفس الصفحة.

(3) العمدة: جـ2 ص 141.

القصصى أو المسرحى، والتى يعبر فيها الشاعر عن خواطره وآرائه، وتأملاته ومشاعره وآماله وآلامه. فهى تمتاز بأن الصفة الذاتية تغلب عليها، على حين أن الصفة الموضوعية تغلب على النظم القصصى والمسرحى.

وليس معنى هذا أن الشعر الغنائى بعيد كل البعد عن الصبغة الموضوعية، بل معناه أن الصفة الذاتية هى الراجحة فى الشعر الغنائى[1].

الشعر القصصى:

يعد هذا اللون أقدم أنواع الشعر وجوداً حيث ينطلق خيال الشاعر بشعر موزون أو غير موزون، ليسرد مجد أمته التاريخية فى ملاحم وقصص واقعية أو خرافية، يتجلى فيها خوارق العادات، ويتصارع فيها الأبطال، ويظهر فيها الآلهة بصورة تنزع النفس، ويقشعر لها القلب والوجدان، وبهذا يختلف عن الشعر الغنائى لأنه موضوعى.

ويمكن أن يقوم بهذا العمل شعراء يعطى كل منهم غاية جهده إلى أن يأتى الأخير فيضع على هذا العمل لمسات من فنه وبراعة من خياله مع حسن العرض، وجمال الأسلوب وقوة التعبير.

ومهمة الشاعر فى الملحمة استنطاق الحوادث والأشخاص والتعبير عنهم بما يقومون به من بطولات وأعمال.

وعلى هذا تختفى شخصيته لأنه تراث أمة وعمل رجال لا فرد، ومجهود عصور لا عصر، وإن كان فى الإمكان نسبته إلى الأخير الذى حمل صقله وتولاه بالرعاية والتقدير والتنسيق.

وفى الأزمنة القديمة كان الشعر القصصى مبنيا فى الغالب على حادثة أو سلسلة من الحوادث، قد وقعت حقًا، وتركت فى نفوس الناس أثرًا عميقًا،

---

(1) التوجيه الأدبى: ص 95.

فأخـذوا يتناقلون أخبـارها، ويرويها جيل عن جـيل، ويكون انتقـالها بالرواية لا بالكتابة، لأن الكتابة لم تكن قد شاعت بعد، ثم تتناولها الأجـيال المختلفة بالتغيير والتبديل إلى أن يتاح لها شاعر قدير يجمع أشتاتها فى منظومة قصصية، ويتداولها الناس زمنًا قد يطول وقد يقصـر قبل أن يتاح لها من يكتبها، ويثـبتها فى صورة لا تحتمل التغيير[1].

أنواع الملحمة:

الملحمـة: قصة شـعرية لأمـر خارق عظيم أو عمل بطولـى جليل له صداه البالغ فى حياة أمة بأسرها.

وموضـوعها وقـائع الأبطال الوطنية العجـيبة التى تبـوئهم منزلة الخلود بين وطنهم. ويلعب الخيال فيها دوراً كبيراً، إذ تحكى على شكل معجزات - ما قام به هؤلاء الأبطال، ومـا سمـوا به عن الناس، وعنصـر القصـة واضح فى الملحمـة، فالحوادث تتوالى متمشية مع التطورات النفسية التى يستلزمها تسلسل الأحداث.

ولكل ملحمـة أصل تاريخى صدرت عنه بعد أن حـرفت تحريفًا يتـفق وجو الخيال فى الملحمة.

وهى محـكية لشعـب، يخلط بين الحقـيقة والـتاريخ، مما يسـيغ أن تحدث خـوارق العادات، وأن يتـراءى الإنس والجن أو الآلهـة، والأبطال فـيهـا يمـثلون جنسهم وعصرهم ومدينتهم[2].

والمشـهور أن إلياذة هـوميروس أقـدم ديوان شعـرى، لأنه نظم نحو الـقرن التاسع قبل الميلاد[3].

---

(1) التوجيه الأدبى: ص 187.

(2) النقد الأدبى الحديث: ص 94.

(3) تاريخ آداب اللغة العربية: جـ1 ص 54.

الملحمة الطبيعية والصناعية:

فالملحمة الطبيعية مجموعة من الخصال والعادات والتقاليد والأغانى والأناشيد، توارثها شعب من جيل لجيل إلى أن يأتى شاعر أخير، فيجعل منها عملاً بطوليًا عظيمًا فى حياة هذا الشعب على مر الزمان مثل (إلياذة) هوميروس (ستة عشر ألف سطر) منسوبة إلى إليون عاصمة طروادة، حاصرها (أغاممنون) انتقامًا لشرف أخيه (منيلاوس) ملك إسبرطة.

وتتناول الإلياذة أيامًا قليلة من السنة العاشرة لحصار إليون، تدور حول غضب أخيل - عنترة الإغريق - من أغاممنون بسبب فتاة من السبى واعتزاله الحرب ثم انتصاره لقومه ثانية حتى انتصروا.

وكذا (الأوديسة): وموضوعها مخاطر (أوليس) بعد سقوط (طروادة) ورجوعه إلى (أتيكا) بعد أن عوقته عن هذه الأوبة، أقدار الآلهة المعادين - عشر سنين.

ووقعت حوادثها خلال أربعين يومًا، وهى دون الإلياذة فى الأسلوب والقوة الجاذبية، حتى كان هذا الاختلاف الشديد دليلاً من أدلة الأستاذين (فيكو الإيطالى) و(وولف الفرنسى) على أن هاتين الملحمتين ليستا من صنع مؤلف واحد[1].

يقول ناصر الأسد:

أما من الذى نظم الملحمتين الهوميريتين فموضوع لم يصل الدارسون له، برغم ما بذلوا من جهد خصب - إلى نتيجة يستقرون عندها ويبدوا أنهم لن يصلوا مهما يبذلوا من جهد[2]، وستبقى الآراء مختلفة متشعبة لا تتوحد، ولا تكاد، وستظل الأدلة التى يقدمها الدارسون افتراضية ترجيحية، لا ترقى إلى مرتبة القطع واليقين.

---

(1) فى أصول الأدب: الزيات. ص 357 ط الرسالة.

(2) مصادر الشعر الجاهلى: ص 293 ط المعارف.

والحق أن فكرة وجود شاعر واحد تاريخى اسمه هومر نظم الإلياذة - قد بقيت خلال العصور على الرغم من أبحاث الناقدين المتشككين. فنحن نجد عالمًا معاصراً فى القرن العشرين من الثقات المختصين بهومر والشعر الإغريقى يذهب هذا المذهب. فيقول: ويبدو من المحتمل أنه كان ثمة شاعر مفرد، اسمه هومر، صاغ الإلياذة فى صورتها النهائية الأخيرة ووحدتها الفنية، ولكنه كان يعمل وفاقًا لأسلوب موروث، متواضع عليه، ومادة تتناقل وتتوارث[1].

الملحمة الصناعية:

وهذه تحتاج لشاعر ماهر يجمع مادتها من تراث شعب من الشعوب، ويلبسها ثوب القوة والمهابة والقدم لما له من جلال فى النفوس، بحيث تعلق بها القلوب وتستهويها العقول، ويجعل أبطالها الجن والملائكة، ويظهر فيها خوارق العادات.

ومن هذا النوع:

(الشاهنامة) للفردوسى (411هـ) وهى تاريخ الأمة الفارسية، من أقدم ما وعت أساطيرها حتى الفتح الإسلامى، وأبياتها ستون ألفًا حسب الروايات.

و(الماهبهاراته) لفياسة أحد كهان الهنود، وهى ملحمة هندية فى مائتى ألف بيت، نظمها باللسان السنسكريتى قبل الميلاد بقرون. وهى قصة هندية، تدور حول تنافس بنى العم من آل بهارته تنافسوا على الملك وتحاربوا ثمانية عشر يومًا وتنتهى القصة بفناء أحد البيتين المتحاربين، وزهد أمراء البيت الثانى، واعتزالهم العالم، ورحلتهم إلى جنة إندار[2].

ثم (الإنياذة) وهى قصة فرجيلوس الشاعر الرومانى (70-19ق) وموضوعها

---

(1) مصادر الشعر الجاهلى: ص 294.

(2) أصول النقد الأدبى: ص 311.

متصل بموضوع الإلياذة وبطلها إيناس أحد خلفاء الطرواد، ورحل مع جماعة من قومه، يرتاد أرضًا حتى بلغ قرطاجنة، ثم إيطاليا حيث أكرمه الملك لاتينوس وزوجه ابنته، ثم استخلفه على الملك.

ثم (الملهاة الإلهية) لدانتى الإيطالى (1265 - 1321) حكى فيها رحلته إلى جهنم وإلى المطهر بقيادة فرجيل، ثم إلى الجنة بقيادة حبيبته بياتريس، وهى قريبة الشبه بقصة المعراج.

ثم (الشهداء) لشاتوبريان (1768 - 1848) وهى من البدائع النثرية فى أربعة وعشرين كتابًا، وصف بها النضال العنيف بين الكفر والإيمان. وقص فيها عشق فتى مسيحى يسمى (أودور) لابنة كاهن وثنى، تسمى (سيمودسيه)، وما كان من اعتناقها للنصرانية واستشهادها معه فى سبيل ما تعتقد.

ولا تبلغ الملحمة الصناعية درجة الكمال إلا إذا اقتبست صفات الملحمة الطبيعية ما استطاعت.

الشعر التمثيلى:

هذا اللون من الشعر قد يجمع بين الشعر والنثر فى موقع واحد، ويراد بالشعر التمثيلى فى أصل وضعه - تمثيل الوقائع التى ترمى إلى الموعظة أو الحكمة، سواء مثلت على المسرح أو لم تمثل، وفى الشعر القصصى شىء منه، لأن إلياذة هوميروس لا تخلو من مشاهد تمثيلية[1].

ويلاحظ أن يكون الشعر أكثر من النثر، وعلى المؤلف أن يلائم بين مواقفه فيجعل الحركات السريعة للنثر، ويجعل الحوار الهادئ بين الأشخاص بالشعر، حتى تأتى القصة وكأنها قطعة مصورة واقعية من الحياة تمامًا.

وموقف المؤلف التمثيلى يجب أن يتسم بالفهم والدقة للعمل المسرحى،

(1) تاريخ آداب اللغة العربية: جـ1 ص 53.

فيعطى عمله جواً من الهدوء بما يناسب الموقف الهادئ والإثارة إن كان الموقف مثيراً.

وكذا الأشخاص القائمين بالعمل يجب أن يناسبهم الأعمال التى يأتون بها.

ومفروض أن الشعر التمثيلى يعرض على المسرح مع فنون أخرى، أبسطها حركات الممثلين وأزياؤهم، والأوضاع الحسية لكل جزء من أجزاء المسرح، ثم يعرض فى ساعات قليلة قد تسمح لكثير شرح وإيضاح مباشر، ويكثر فيه الحوار، وتكاد لا تظهر شخصية المؤلف فالشعر التمثيلى يمتاز بأنه حوار عملى، يصور شخصيات مختلفة، ويخضع لوحدة القصة[1].

(1) أصول النقد الأدبى: ص 313.

موقف الشعر العربى من الألوان السابقة

يقف المرء حائراً بين الآراء التى تنفى وجود الشعر التمثيلى عند العرب والآراء التى تؤيد وجوده. فالعرب فى نظر المعارضين لم يعرفوا الفن التمثيلى، ولم يكن عندهم مسارح كاليونان، ولم يخرجوا للعالم أعمالاً رائعة كالإلياذة، وشعرهم قصير، ولا يخرج عن وصف الصحراء وما فيها من جماد وحيوان ونبات، وكل هذا لا يخلق حضارة ولا يعين على تقدم حياتهم.

أضف إلى ذلك أن أمية العرب وبدواتهم جعلتهم منعزلين، فلم يتصلوا بحضارة، ولم يعرفوا مدنية، تخرجهم من تأخرهم فى هذا الزمن السحيق.

ولو تعمق هؤلاء لأنصفوا العرب، ومن يتأمل حياتهم بدقة يجد أنهم عرفوا الشعر المسرحى - فعلاً - بما كانوا يقيمونه من أسواق فى عكاظ وغيرها.

وفى هذه الأسواق كان رواة الشعر يخرجون ما عندهم منه، ويقوم الحكام فيختارون أحسنه. وفى هذه الأسواق كان يقام الفن التمثيلى، والشعر التمثيلى الذى يسرى عن هؤلاء، ويقتل ما عندهم من فراغ.

كما أن العرب وجد عندهم المطولات - وهى المعلقات المشهورة، وصحيح أنها لم تصل إلى مرتبة الإلياذة، والأوديسة، ولكن وجودها يدل كل الدلالة على طول نفس الشعراء الذين قالوها، وتدلنا كذلك على قوة الشاعر العربى فى تناول القصائد الشعرية، وبراعته فى إخراجها، فهى تظهر لنا ألوانًا صغيرة من القصص التى كانت صدى لنفسه ودواعى حسه، بما فيها من صراحة فى التصوير وإبداع التعليل. وإذا نظرنا إلى فنون الشعر العربى وجدنا أن الشاعر أعطاها كثيراً من وجدانه وحنايا فؤاده. فهو يمدح أو يصف، أو يرثى، أو يهجو، فى صورة بارعة، والشاعر العربى يعطينا تجربته الشعرية فى إيجاز يعجز عنه أى شاعر من شعراء أى أمة من الأمم.

ومن غير شك أن الحروب التى كانت بينهم أو مع غيرهم من الأمم دفعتهم إلى تسجيل هذه الانتصارات والوقائع فسجلوها فى إبداع، لأنها تعلى شأنهم، وتمجد عظمتهم.

ولكن كل هذا لم يصل إلينا، لأن عوادى الزمان، وخطوب الأيام أطاحت بهذا كله، ولم يصل منه إلا بقايا تدل على مدى ما كان عندهم من نهضة فى الفن الشعرى فى هذا الوقت البعيد.

يقول «الزيات»[1]:

فأما الملاحم النظمية أو الشعر القصصى فما أظنك تشك فى أن العرب ليسوا فى شىء منه، وإن قل؛ لأن مزاولته تقتضى الروية والفكر، والعرب أهل بديهة وارتجال، وتطلب الإلمام بطبائع الناس وأحوالهم، وقد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهم، وتفتقر إلى التحليل والتطويل، وهم أشد الناس اختصاراً للقول، وأقلهم تعمقًا للبحث، وقل تعرضهم للأسفار البعيدة والأخطار الشديدة، وحرمتهم طبيعة أرضهم وبساطة دينهم وضيق خيالهم كثرة الأساطير، وهى من أغزر ينابيع الشعر القصصى.

ويقول «مندور»: إن العرب لم يعرفوا فن المسرح ولا فن الملاحم لأنهم لم يعرفوا الموضوعية، ولم يتجهوا إليها، فبقى شعرهم ذاتيًا فقط، وليس هناك أى دليل يفيد أن عرب الجاهلية قد عرفوا فن المسرح وصورته، بل ولا فن الملاحم بمعناها الدقيق، وذلك بالرغم من أنه كانت لهم أيام وحروب شديدة - فإنهم لم يصوغوا تلك الأيام والحروب أو بعضها فى صورة ملاحم[2].

وبالرغم مما نعثر به فى شعرهم من قصائد تصف الحروب والمعارك، وذلك لأن الشعر العربى لم يصبح يومًا شعراً موضوعيًا منفصلاً عن قائله، خالصًا للفن

(1) فى أصول الأدب: ص 366.

(2) المسرح: مندور: ص 16.

فى ذاته على نحو ما حدث عند اليونان فى الملاحم والمسرحيات، وذلك لأن الشعر العربى ولد وظل غنائيًا، فعنترة فى وصفه المعارك التى خاضها، لا يقص ملاحم موضوعية، ولا ينحى ذاته عن شعره بل يفخر، ويباهى بشجاعته، ليحظى بإعجاب عبلة، وحبها كما يتغنى بالسيوف التى لمعت كبارق ثغرها المتبسم. وذلك بينما نقرأ ملاحم هوميروس فلا نلمح خلالها أى شبح للشاعر، أو أية إشارة إلى شخصه.

وأبو تمام لا يقص ملحمة عندما يتحدث فى قصيدته الشهيرة عن فتح المعتصم لعمورية، بل يمدح خليفته، ويظهر مقدرته الفنية فى وصف حريق المدينة الذى غادر فيها بهيم الليل وهو ضحى.

والمتنبى لا ينظم ملاحم عندما يتحدث عن حروب سيف الدولة، ودفاعه عن ثغور العرب ضد الروم، بل يمدح أميره وهو واقف تمر به الأبطال كلمى هزيمة ووجهه وضاح وثغره باسم، بل البارودى نفسه لا ينظم ملاحم كريت وغيرها، بل يفتخر، ويعتز بشجاعته ويباهى بها.

وهكذا يتضح أن كل هذه القصائد وأشباهها لا تتوفر فيها خصائص الملاحم، كما لم يعرف العرب شعر الدراما[1] حتى ظهر خليل مطران، فكتب قصائده الموضوعية الطويلة الرائعة عن «فتاة الجبل الأسود» و«الجنين الشهيد» وغيرها[2].

ويذهب «العقاد» إلى أن التمثيل من الفنون التى ترتبط بالحياة الاجتماعية أوثق ارتباط، ولا يعقل التمثيل فى بيئة لم تتعدد فيها أدوار الحياة الاجتماعية على حسب اختلاف الأعمال والصناعات والمشارب والطبقات، فإنما يقوم التمثيل من الناحية الاجتماعية على التجارب بين الأفراد والأسر، وكلما تعددت العلاقات

(1) الدراما أو القصة التمثيلية: هى ما كتبت لا للقراءة ولكن للتمثيل على المسرح بواسطة الممثلين فقط، والدراما. كل قصة تمثيلية سواء أكانت مأساة أم مهزلة والرواية. هى التى تكتب لتقرأ لا لتمثل.

(2) المسرح: ص 16.

وتنوعت المطامع والنزعات، ولم يكن فى مجتمع البداوة مجال كبير لهذا التجاوب الكثير بين أسرة وأسرة أو بين إنسان وإنسان، وما كان ذاك قائمًا فى حياتهم البدوية أو حياتهم الحضرية، فقد وجد الكفاية للتعبير عنه فى القصائد والأغانى وألعاب الفروسية وضرب المساجلات، والمفاخرات التى تنفق لهم من حين إلى حين[1].

ويقول «طه حسين»: لم يعرف الأدب العربى المسرح، لأن الأدب اليونانى كان قد اختفى حين كان العرب يقومون بترجمة الثقافة اليونانية، إذ كان محظوراً، لأن المسيحية فى ذلك الوقت كانت تراه مغرقًا فى الوثنية، ولو كان معروفًا حين ترجم العرب ثقافة اليونان لما ترددوا فى ترجمته، وهنا يجب أن نقول إن العرب وقعوا على الأدب اليونانى، وفى نفس الوقت الذى وقعوا فيه على الفلسفة اليونانية، وأنهم ترجموا منه أيضًا، ولكن لم تصلنا حتى الآن غير صفحات قليلة، من كتب مطولة، ومنوعة[2].

ورأى نجيب محفوظ[3]: أن العرب بعد الإسلام كانوا غزاة فاتحين، لديهم إحساس المنتصر المعتز بما لديه، فهو لا يقلد، ولكنه يأخذ عن غيره ما ينقصه من الأشياء التى ليس عنده نظير لها، أما الأشياء المشتركة التى لديه مثلها، فإنه يعتز بما عنده، والمسرح شعر، والشعر ديوان العرب وفخرهم، فهم ليسوا فى حاجة إلى شعر غيرهم، والعرب لهم طبيعة محافظة، وقد اتخذوا من الشعر الجاهلى تراثًا مقدسًا، يتمثل فى القصيدة بكل تقاليدها وشكلها المعروف، ولهذا انصرفوا عن هذا اللون من الشعر - الدرامى الذى يعتبر بدعة فى نظر المحافظ، ثم إنه لم يكن فى البلاد التى فتحها العرب تمثيل حقيقى، يمكن مشاهدته، وما كان موجوداً من أدب تمثيلى يمكن الاطلاع عليه، كان جزءًا لا يتجزأ من الأساطير الدينية التى تخالف العقيدة الإسلامية، وإذا عرفنا أن الأدب العربى كان فى نظر العرب القدماء

(1) أثر العرب فى الحضارة الأوربية: ص 71 ط. المعارف.

(2) تجديد ذكرى أبى العلاء: المقدمة.

(3) مجلة الأدباء العرب: أكتوبر 1972.

هو الشعر والخطب والرسائل، عـرفنا أن الأدب لم يكن تخيلاً من تأليف الراوى، لهذا تفيض كتب التراث بالأسانيد التى تثبت نسبة الشعر والكلام إلى صاحبه، كى يكون جديراً باهتمام السامع أو القارئ، وهذا المفهوم يتنافى مع انتحال قصة خيالية كالقصص التى يقوم عليها الأدب التمثيلى.

و«غنيمى هلال» يقـول: أما الشعر العـربى، فواضح أنه فى جملتـه - قبل عصرنا الحـديث - كان مقصـوراً، أو يكاد على المجال الغنائى، وحين نشـأت فيه المسرحيات فى العـصر الحديث تأثرت فى طابعها العام بالكلاسيكيـة والرومانتيكية فى بادئ أمرها، فكانت المسرحـيات الشعرية، وأوضح مثل لها مسـرحيات شوقى ومـسرحـيات عـزيز أباظة. ثم غلب الاتجاه الـعالمى على المسـرحيـات العربيـة، فـانفصلت عن الشـعر، وصـارت فى جمـلتهـا نثرية، واخـتص الشعـر بجمـال الوجدان، شأنه فى العربيّة شأن الاتجاه العالمى العام[1].

و«زكى طليمـات» يقول: إن العرب لـم يعرفوا المسـرح، لأنه يعتبـر مرحلة أولية لم يتهيأ لها أسباب التطور والتقدم، ولم يكن بالجزيرة العربية حضارة بالمعنى الكامل، إنهـا البادية بروحـها القـبلية، وسكانهـا دائموا التـرحال انتـجاعًـا للرى والمرعى، وحين عرف العرب «تراث الإغـريق» لم يترجموا مـسرحهم، لأنه أدب وثنى خالص، ولأن العـرب لم يحسوا حـاجة إلى أن تصبح كـتابة المسرحـية من الإنتاج الأدبى للذهنية العربية[2].

يقول هنريش بيكر الألمانى[3]:

إن التراث اليـونانى أدى إلى إيجاد النزعة الإنسـانية فى أوربا مما أدى بدوره إلى عصـر النهضة الأوربيـة، بينما لم يؤد الإسلام إلى نـفس هذه النزعة، وترتب

(1) النقد الأدبى الحديث: ص 382.

(2) فن التمثيل العربى: ص 99 ط الكويت.

(3) مجلة ديوجين: العدد 48 ص 29: 1964.

على هذا اختلاف فى المضمون الفعلى فى كل منهما، وأن العالم الإسلامى لم يأخذ من التراث اليونانى إلا ما كان ذا نزعة عقلية منطقية، أما الأشياء التى كانت من نصيب الروح اليونانية فى صياغته أكثر من نصيب العقل، مثل الشعر الغنائى أو الأدب الروائى، وكل ما كان يونانيًا بحتًا كآلهة هوميروس، كل هذه الأمور ظلت مغلقة أمام الشرق، بينما نجد فى الغرب أنه تأثر بهذه الأمور اليونانية الأصيلة أكثر من غيرها.

وهذا ما ذهب إليه - أيضًا - جوستاف فون جرنبوم: قال: إن الإسلام السنى لم ينجح فى خلق فن مسرحى رغم معرفته بالثقافة اليونانية والهندية، وهذا لا يعود إلى سبب تاريخى قدر ما يعود إلى مفهوم الإنسان فى الإسلام، وهو مفهوم يمنع وقوع أى صراع درامى.

ويقول المستشرق جاك بيرك الفرنسى - فى منطق واضح -: إن التقاليد العربية تعانى بالنسبة للمسرح مشكلتين، ولذلك جهلت التعبير المسرحى، لأنها لم توفق إلى إعطائه اللغة المناسبة، وأولاهما عدم تناسب اللغة العربية الكلاسيكية مع المتطلبات الداخلية للغة الدرامية، والثانية صعوبة اختيار واحدة من اللغات العربية الثلاث، وهى:

الإشارة والتعبير والدلالة، ولغة الشعر العربى تختلف دائمًا عن لغة الحياة اليومية، إنها لغة كلاسيكية، تشبه بستانًا جميلاً، ولكنه بستان متجمد، والمسرح بتكوينه هو اللغة التى لا تحتمل القوالب الجامدة.

دفاع ورد:

بعد أن ذكرنا الآراء التى ذهبت إلى تجريد العرب من الشعر التمثيلى محاولة النيل من تراثهم ومدنيتهم، نذكر الآراء التى ترد على هؤلاء، وتدحض حججهم وتظهر تعصبهم الممقوت، وتفند ما ذهبوا إليه فى هدوء وثبات ويقين.

وفى هذا المقام يكفى أن نقول: إن الملاحم العربية سبقت الملاحم اليونانية

بأجيال، وأن «هوميروس» كان متأثراً بما نقل إليه من آثار بابلية، وهى فى الأصل ترجع إلى نتاج العقلية العربية، وهى عقلية ثاقبة، تتغلغل فى الأعماق، وتقدس حرية الفكر، تبتدع من العلوم - النظرية والعملية - ما تمتلئ به آثار جابر بن حيان فى علم الجبر، والخوارزمى فى الحساب، وابن سينا والفخر الرازى فى الطب، وابن رشد فى الفلسفة، وابن الهيثم فى البصريات والطبيعة، والإدريسى فى الجغرافيا، والطبرى فى التاريخ، ومحمد بن موسى فى الفلك، إلى غير ذلك من الآثار الحية على مر الزمان.

وليس من الضرورى أن تتبع الأمم منهجًا واحداً فتقسم نفسها إلى هذه الأبواب الثلاثة من الشعر، إن أساس الأدب كله واحد[1].

والآداب الغربية وإن تفوقت على الآداب العربية فى الملاحم والقصص التمثيلية فإن الأدب العربى يتفوق فى الحكم والأمثال والشعر الغنائى، ولكلٍّ وجهة هو موليها.

ومن مفاخر هؤلاء العرب الجاهليين أنهم نظموا الشعر وأبدعوا وهم بلا دولة ولا دين ولا منزل. فهم من الناحية الأدبية أرقى من اليونان والرومان والهنود. فإن الرومان لم ينظموا الشعر اللاتينى إلا بعد تأسيس دولتهم بمئات السنين، ولم يبلغ الشعر اللاتينى أوجه إلا فى عهد أغسطس بعد تأسيس روما بثمانية قرون.

ونحن ندرك سر ذلك البكور المبارك فى ظهور مواهب الشعر عند العرب، وهو أن الشعر داخل فى كل فن من فنونهم ومتغلغل فى كل عمل من أعمالهم، ومرافق لحركاتهم وسكناتهم. حتى يخيل للناظر فى أشعارهم أنهم كانوا لا ينطقون إلا بالشعر.

وكان كل عربى وعربية شاعراً أو يقول الشعر ولو قليلاً حتى الملوك والعبيد والمجرمين، من قتلة ولصوص، والمرضى والمجانين وغيرهم[2].

(1) النقد الأدبى ص 253.

(2) الشهاب الراصد ص 65.

والعقل العـربى ليس عقـلاً تجريديًا، لأنه عرف الأسطـورة والقصة، وعـبر بالحركة والإيقاع فى فنونه، وعرف الملحمة والمقامة. وعرف التمثيل فى فن الراوى والحكواتى، ومنشـد الربابة الجوال. ولم يغـرق فى المثاليـة والأبراج العاجـية، بل اتسم دائمًا بالوسيطة، أى البعد بين الطرفين الحاديين: الإغراق والعنف، كما اتسم بالتكامليـة، أى الربط بين الروح والمادة، والفرد والمجتـمع، كذلك اتسم بالحـركة التى تتمثل فى القدرة على مواجهة التطور، ومجافاة الجمود[1].

ومن كل ما تقدم يتـضح أن العرب لم يتخلفوا عن غيرهم فـقد عرفوا فنونًا من القول، وألوانًا من البيان تعجـز عنه أرقى الدول وما ذاك إلا من بلاغتهم وعلو فصاحتهم، وقدرة لغتهم على التعبير، فليست قاصرة عن التعبير الدرامى فى وقت من الأوقات.

وندلل على ما قلناه بنتاجنا الغزير من القصص والمسرحيات[2].

ومن يبحث فى الأدب العربى يجد أمامـه المطولات وهى المعلقات، صحيح أنها لم تصل لدرجة الملاحم ولكنها تقترب منها إلى حد بعيد.

(1) أصالة الفكر العربى والإسلامى: أنور الجندى ص 58.

(2) راجع الموسوعة القصصية والمسرحية مصر. للمؤلف.

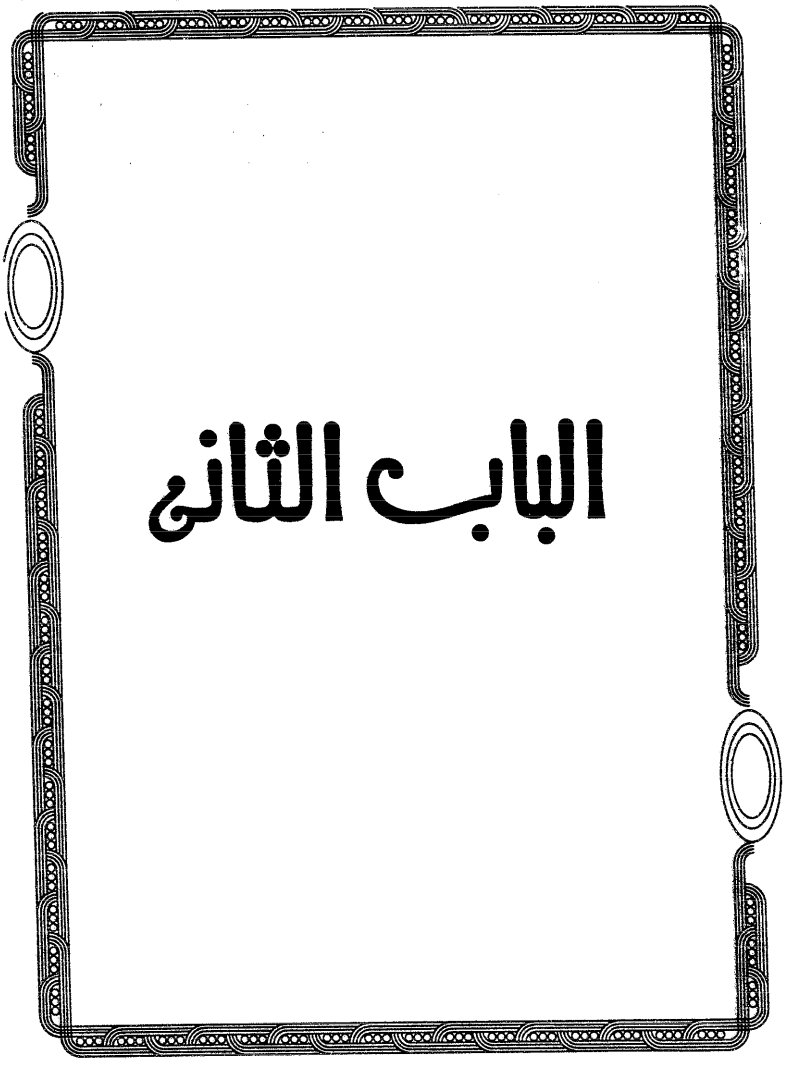

الباب الثانى

الفصل الأول

المناذرة

اتصل العرب بغيرهم وجيرانهم. وخاصة بإخوانهم من عرب الحيرة. ويختلف العلماء فى اسم الحيرة اختلافا شديدا. ومعظم المستشرقين يرون أنها كلمة من كلمات بنى إرم، وأنها تقابل فى العبرانية كلمة «خاصير» وأن حرتا فى التواريخ السريانية التى تحدثت عن الغساسنة تقابل مصطلح «عسكر» عند الإسلاميين[1].

وقد عرفت الحيرة فى مؤلفات المؤرخين السريان، فدعيت (بالحيرة مدينة العرب)، وكما عرفت بأسماء ملوكها مثل النعمان.

وكان الغرض من إقامة هذه الإمارة صد الغارات العربية على الفرس، وجعلها درعا واقيا لها من الأعداء المتربصين.

وكما اختلفت كلمة المؤرخين حول اسمها - اختلفوا كذلك حول تاريخها. والمصادر العربية لا تتفق إطلاقا مع المصادر الأجنبية فى هذا الاتجاه، فنجد اختلافا كبيرا فى الأحداث وترتيبها، وكذلك تواريخ ملوكها.

يقول جواد على:

وتأريخ هذه المدينة قبل الميلاد غامض، لا نكاد نعرف من أمره شيئا فلم يرد خبرها فى نص تاريخى مدون أو كتابة مدونة قبل الميلاد. أما الإخباريون، فيرجعون عهدها إلى أيام (بختنصر)، وقد كان ذلك فى أيام عدنان، والقائلون بذلك ابن هشام وجماعة لم يذكر الطبرى أسماءهم[2].

وأهل الحيرة عرب، ويقسمهم الإخباريون إلى طبقات ثلاث: تنوخ، العباد الأحلاف، وهؤلاء فى نظرهم من قبائل متعددة، فيها من قحطان وفيها من عدنان.

---

(1) تاريخ العرب قبل الاسلام: جواد على، جـ 4 ص 5 ط المجمع العراقى.

(2) السابق ص 9.

وقد ذكروا فى لهجة أهل الحيرة هجنة، وجعلوا سببها إلى اختلاط هؤلاء العرب بمن كان يفيد عليهم من النبط، وقد كتبوا بقلم (بنى إرم)، وشأنهم فى ذلك شأن(تدمر) وأهل (بطرا) إذ استعملوا قلما نبطيا متأخرا فى الكتابات.

وقد اهتم الفرس بمدينة الحيرة، فجعلوا منها إمارة المناذرة، وذلك فى عهد سابور الأول حوالى سنة 240م ونصبوا (عمرو بن عدى) ملكا عليها.

وخضع عرب المناذرة فى الحيرة للفرس، ولكنهم كانوا يتمتعون باستقلال ذاتى، لأن النظام الفارسى كان نظاما إقطاعيا، ويستقل كل حاكم بما تحت يده طيلة حياته، وبعد موته يولى الملك من يخلفه من أهل مقاطعته.

وكان من أثر هذا أن شعر العرب هنأ بالحرية، فعاشوا عيشة فيها رغد العيش وسعته، وكان لخصب الأرض أثر فى ذلك، وكانت هذه الحياة الرغدة تخالف كل المخالفة معيشة العرب فى الصحراء، حيث الجفاف وضنك الحياة.

وقد تكونت المدينة من عدد من القصور المحصنة التى كان كل منها يتكون من مستطيل يحيط بساحته، وليس فى محيطه إلا باب واحد، ينفتح فى الساحة وفى أعلى حوائطه مزاغل (فتحات مستطيلة) ضيقة رأسية للدفاع، وعلى كل زاوية من زواياه برج، وقد تجمعت كل القصور حول ميدان واسع، ولم يكن له وسائل دفاع خاصة، ولم يكن حول هذه القصور سور المدينة، كما لم يكن هناك حصن مركزى، أو قلعة يمكن أن تحفظ فيها النفائس[1]. وسطع نجم الحيرة، وحظيت بعناية الفرس فكانوا يرسلون أولادهم إليها لينعموا بطيب هوائها واعتدال جوها.

يذكر المؤرخون أن (يزدجرد) الأول 399 - 420 م أرسل[2] أكبر أولاده (بهرام) إلى عرب الحيرة، لينشأ بينهم، ويتعلم منهم فنون الصيد، وينعم بطيب الهواء واعتدال الجو، وكان ذلك فى عهد النعمان الاول. وقد أتقن (بهرام) اللغة

(1) مسالك الثقافة الأغريقية إلى العرب، أوليرى. ص 281، ط الأنجلو.

(2) مروج الذهب: المسعودى جـ4. 204 ط أوربا.

العربية، ولما تولى العرش بعد أبيه قرب عرب الحيرة، لأنهم ناصروه حين التهب النزاع بينه وبين أخيه حول العرش بعد موت أبيهما. وملوك الحيرة عرب خلص من لخم سكنوا القصور المنيفة، وأخذوا بأسباب الحياة المترفة، والخورنق والسدير من أشهر قصورهم، وأما ملوكهم فكثيرون، وأشهرهم المنذر بن ماء السماء والنعمان بن المنذر، وهذا الأخير هو الذى كان يستقبل فحول الشعراء العرب، ويجزل لهم العطاء، مثل: النابغة الذبيانى، وطرفه، والمتلمس، وحسان، وأعشى قيس[1].

وقد وفد كثير من شعراء العرب على أمراء الحيرة مادحين ومنادمين لهم على الشراب. كالنابغة الذى صاحب النعمان الخامس زوج هند الملقب بأبى قابوس، ومن يتأمل ديوان النابغة يجد فيه كثيرا من القصائد التى قالها فى النعمان، وهى تفيض بمدحه، ثم الاعتذار إليه، ويقال إن المنخل اليشكرى الشاعر الذى كان يعمل فى بلاط النعمان - هو الذى سعى بالإيقاع بين النعمان والنابغة، لأنه كان ينفس على النابغة مكانته فى نفس الملك.

وقصة عبيد الأبرص الذى جالس المنذر بن ماء السماء مشهورة، وفى قصيدته التى يعدها بعض اللغويين من المعلقات - من الوصف ما يدل على معرفة الشاعر بنهر الفرات وترعه القريبة من الحيرة، قال[2]:

أو فلج ببطن واد للماء من تحته قسيب
أو جدول فى ظلال نخل للماء من تحته سكوب[3]

وكان القصر الملكى اللخمى فى الحيرة يوحى إلى العرب بالرفاهية والفخامة، كما يبدو منعكسا فى شعر أولئك الأولين الذين اتصلوا بالحيرة.

(1) الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية، الشكعة. ص 17 ط الأنجلو.

(2) تاريخ الآداب العربية: نالينو، ص 83.

(3) شرح القصائد العشر: التبريزى، ص 326.

فإذا تغنى الشاعر البدوى القديم بالحروب القبلية، والتقشف فى حياة الصحراء، خلط أغانيه بمدح حماته وهجاء أعدائهم. وهؤلاء الشعراء الذين نعلم صلتهم ببلاط الحيرة يزيدون عنصرا غزليا إلى شعرهم، وغالبا ما يتغنون بمدح النبيذ، وجمال الشراب، وهو موضوع غير مطروق بالنسبة للشاعر البدوى الحقيقى، ولم تكن الحال كذلك بالنسبة لطرفة بن العبد، الذى كان على صلة ببلاط عمرو بن هند (حوالى 554 - 568) لأن قصائده صيغت قبل أن يذهب إلى البلاط، كما لم تكن الحال مع لبيد بن ربيعة أبو عقيل، الذى كان يفخر بكونه عضوا من مجلس الحيرة[1].

وممن جالس عمرو بن هند طرفة بن العبد، أحد أصحاب المعلقات السبع. وأقلهم عمرا، لأنه قتل بأمر الملك وهو ابن ست وعشرين سنة. وفى معلقته أبيات تدل على قربه من الفرات.

كأن حدوج المالكية غدوة　　خلايا سفين بالنواصف من دَدِ

عدولية أو من سفين بن يامن　　يجور بها الملاح طوراً ويهتدى[2]

وفى الأدب العربى نجد قصة الزباء وجذيمة الأبرش، وما قيل حولهما من أمثال وأساطير. ونجد الكثير عن قصرى (الخورنق والسدير).

وعدة من ملوك الحيرة قد يزيد على العشرين ملكا بقليل عند بعض الإخباريين وقد ينقص عن هذا العدد عند بعض آخر.

وقد ذهب المسعودى إلى أن عدة ملوكهم ثلاثة وعشرون ملكا من بنى نصر وغيرهم من العرب والفرس، وأن مدة حكمهم ست مائة سنة، واثنتان وعشرون سنة، وثمانية أشهر[3].

---

(1) مسالك الثقافة الأغريقية إلى العرب، ص 283.

(2) شرح القصائد العشر: ص 58.

(3) تاريخ العرب قبل الإسلام: جـ4 ص 109.

وصفوة القول أن أهل الحيرة كانوا واسطة بين الفرس والعرب، وعلى أيديهم انتقلت الحضارة الفارسية إلى بلاد العرب.

وكان لأهلها أثر كبير فى الحضارة العربية. فقد كانوا يجوبون أرجاء الجزيرة العربية بالتجارة، ويشتغلون بتعليم القراءة والكتابة.

وبذلك أصبحوا واسطة فى نشر المعارف فى الحيرة. كما ساعدوا على نشر النصرانية فى بلاد العرب إثر اعتناق بعض ملوكها الدين المسيحى بعد الوثنية[1].

(1) تاريخ الإسلام السياسى، حسن إبراهيم جـ1 ص 35.

الغساسنة

الغساسنة عرب الشام. وقد جاءت هذه الكلمة من اسم ماء يقال له (غسان) وعلى هذا ورد قول القائل:

إما سألت فإنا معشر نجب الأزد نسبتنا والماء غسان

وهم من الأزد جاءوا من اليمن قبيل حادث سيل العرم أو بعده، وأما سبب تسميتهم بآل جفنة وبأولاد جفنة؛ فلانتسابهم إلى جد أعلى يدعونه جفنة بن عمرو مزيقيا بن عامر[1].

ومن أشهر ملوك الغساسنة الحارث بن جبلة، وفى عهده حدثت الموقعة المعروفة فى الأدب العربى (بيوم حليمة) حيث انتصر الحارث - وكان أميرا على جميع القبائل فى سوريا - على المنذر الثالث أمير الحيرة - والتى قيل فيها المثل المعروف (ما يوم حليمة بسر).

وكما قصد كثير من شعراء العرب أمراء الحيرة توجهوا كذلك إلى أمراء غسان طلبا للعطاء.

وكان ملك الغساسنة حول دمشق وتدمر. وكانوا يتجولون فى الجهات الجنوبية لدمشق، وخاصة لبنان، وفلسطين وحوران[2].

وكان الغساسنة يجزلون العطاء للشعراء ويرفعونهم إلى أعظم الدرجات. ومن الشعراء الذين ذهبوا إلى هناك علقمة الفحل، والمرقش الأكبر والأعشى، والنابغة الذى ذهب إلى هناك، بعد غضب النعمان عليه، وكذا حسان بن ثابت الذى كانت له عندهم منزلة عظيمة، وصلة رحم وقرابة، وقد قال: يذكر صلته بهم:

---

(1) تاريخ العرب قبل الإسلام: جـ 4 ص 118.

(2) تاريخ الإسلام السياسى: جـ 1 ص 41.

لله در عـصـابـة نادمـتـهم يومـا بجلـق فى الزمـان الأول
أولاد جـفنة حـول قـبـر أبيـهم قبر ابن (مـارية) الكريم المفضل[1]

وقال يفتخر:

إن خـالى خطيـب جـابيـة الجـو لان عند النـعـمـان حـين يقـوم
وهو الصقـر عند باب ابن سلمى يوم نعـمـان فى الكبول مـقـيم[2]
وسطت نسـبـتى الـذوائب منهم كل دار فـيـهـا أب لى عـظيم[3]

وسرت حضارة الروم إلى الغساسنة فطبعتهم بطبعها وأخذوا بأسبابها، وظهر هذا فى أحوالهم وحياة قصورهم.

وتبعا لعلو شـأن الروم ارتفع شأن الغساسنة، إلى أن غـزا الفرس بلاد الشام واستولوا على أورشليم ودمشق (613- 614م) فضعف شأن الغساسنة إلى أن جاء هرقل واسترد ما أخذه الفـرس بعد معارك كبيرة، فارتفع نجـمهم مرة ثانية، وآخر ملك من ملوكهم كان (جبلة بن الأيهم) المشهور.

ويذكر ابن خلدون:

إن المسلمين عندمـا فتحوا الشام أسلـم جبلة. واستشرف أهل المدينـة لمقدمه حتى تطاولت النساء من خدورهن لرؤيتـه. لكرم وفادته. وأحسن عمر نزله وأحله بأرفع رتب المهاجرين ثم غلب عليه الشقاء. ولطم رجلا من بنى فزارة وطئ فضل إزاره. وهو يسحبه فى الأرض. نابذه عمر فى القـصاص فأخذته العزة بالإثم فقال له عمر: لابد أن أقيده منك. فهرب إلى قـيصر. ولم يزل بالقسطنطينية حتى مات سنة 20هـ[4].

(1) الأغانى: جـ 15 ص 157 ط الدار.

(2) البيان والتبيين: جـ 2 ص 321 ط لجنة التأليف.

(3) المرجع السابق نفس الصفحة.

(4) تاريخ ابن خلدون: 2 ص 112 ط بيروت.

وبلغت دولة الغساسنة درجة كبيرة من الحضـارة. فقد كان ببلادهم كثير من الحصون. كما كان بها كثير من البيع والكنائس.

وكان ملوكها يقـتنون الجوارى والروميات. ومبانيهـا مجللة بالحجر الأبيض المأخوذ من الجبال القريبة منها.

وقد تعلموا من مـخالطتهم الروم ومحاربتهم الفـرس، الفنون الحربية وطرق الدفاع. وكـسبوا المران العـسكرى. وأخذوا من اللغة كـثيرا من الـكلمات التى لم تكن معروفة مثل الكنيسة والراهب[1].

(1) تاريخ الإسلام السياسى: جـ1 ص 41.

كلمة العرب

أصلها التاريخى - مدلولها

من العسير على الباحث فى اللغة العربية أن يعرف ظروف نشأتها وأطوار حياتها فى مراحلها الأولى، لأن تاريخ العرب غير مدون أو منقوش حتى نسلم به ونستدل عليه.

وقد قام المستشرقون بمجهود واضح فى كشف الغموض الذى أحاط بأصول العربية فى مراحلها الأولى. فبحثوا عن أصل العربية فى النقوش الجاهلية، وتتبعوا تاريخ كلمة العرب فى اللغات السامية، وكذا كتاب الآشوريين، واليونان، والرومان والعبرانيين وغيرهم.

ويظهر أن أقدم نص ورد فيه اسم «عرب» هو نص أشورى فى عهد «شلمنصر الثانى» ملك آشور؛ ومن النص اتضح أن هذه الكلمة لم تكن تعنى المعنى الذى نريده، بل كانت تعنى عندهم ولاية أو مشيخة كانت تحكم فى البادية المتاخمة للحدود الأشورية.

وإذا بحثنا فى العبرانية عن لفظة «أدب» نجد أنها تدل على سكان البادية أو البادية، فتكون ترجمة كلمة «أدب» هى «بدو» أو «أعراب» وهذا المعنى موجود فى اللغات السامية وفروعها.

وفى سفر أشعياء - مثلا - قصد بها البداوة والأعرابية.

وجاء فى سفر أرميا عبارة «وكل ملوك العرب» وأريد بالعرب فى التلمود «الأعراب» وكل هذا يدل على مجيئها فى الكتب المقدسة القديمة.

وقبل هذا وجد فى البابلية جملة «ماتو أربى» ومعناها «أرض أربى» أى أرض العرب.

وفى النصوص المسمارية البابلية جاءت أول إشارة إلى كلمة «عربى» وكلمة «العرب».

إذ حاول الملك البابلى «ثانيدوس» احتلال بعض المناطق فى شبه الجزيرة العربية، كما أنه أصبح من المعروف أن الأكاديون (2370 - 2230 ق.م) كانوا أجداد العرب لأن لغتهم هى أصل اللغة العربية. وقد حاول الملك سرجون الأكادى 371 - 316 ق.م. الاستيلاء على طريق القوافل الصحراوى والذى كان يعرف بطريق التوابل والبخور، وهو نفس الهدف الذى حاول الملك الآشورى (سنخريب) حوالى 705 ق.م تحقيقه.

كذلك نسمع عن العرب عندما حاول (دارا) الأول (521 - 486 ق.م) الاستيلاء على شمال الجزيرة العربية وبلاد الشام.

أما بالنسبة لكتاب الإغريق والرومان - فان أول من ذكر كلمة (عربى) (هيروديت) الذى زار مصر فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد فتعرض للقبائل العربية فى كتابه الاول، وتناول فى الكتاب الثانى الحديث عن صحراء بلاد العرب[1].

وأول من ذكر العرب فى آداب اليونان هو (اسكيلوس) 565 - 456 ق.م ثم تلاه (هيرودتس) نحو 484 - 425 ق.م وهو أفضل من سابقه فى البحث والتقصى.

وعلماء العرب لم يتخلفوا عن غيرهم فى ميدان البحث والتقصى ومحاولة معرفة تاريخ كلمة (عرب) فى القديم.

قال الأزهرى فى لسانه[2]: الأقرب عندى أنهم سمُّوا عربا باسم بلدهم العربات.

---

(1) الأهرام: 10/ 1975.

(2) لسان العرب: 1/ 587.

وذهب آخر إلى أن أول من أنطق الله لسانه بلغة العرب - يعرب بن قحطان وهو أبو اليمن كلهم، وهم العرب العاربة، ونشأ إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام معهم، فتكلم بلسانهم، فهو وأولاده العرب المستعربة، وقيل إن أولاد إسماعيل نشأوا بعربة - وهى تهامة - فنسبوا إلى بلدهم. وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: خمسة أنبياء من العرب: وهم محمد وإسماعيل وشعيب وصالح وهود صلوات الله عليهم.

ومما تقدم يتضح لنا عدم الدليل القاطع بالوقت الذى برزت فيه كلمة (عرب) ومدى استعمالها وكيف أطلقت؟ والمكان الذى أطلقت عليه لما سبق أن ذكرنا من ضياع تراث العرب واندثاره فى تضاعيف الأيام.

ونستطيع أن نؤكد أن هذه التسمية قديمة بدليل القرآن والإسلام فقد نزل القرآن (بلسان عربى مبين) وهذا فخر للعرب إلى يوم الدين.

يقول الرافعى:

إن أصل اللغة العربية لابد أن يكون من الحبشية والحميرية، ثم اللغات السامية الأخرى، لأن العرب قوم رحل، وقد اختلطوا بأمم كثيرة، فلابد أن يكون أثر هذا الاختلاط بينا فى تكوين لغتهم، وتلك سنة عامة فى اللغات كلها[1].

فنحن إن قلنا أصل العربية لا نريد أنها فجر اليوم من أمس، أو نهاراً يدل به على الشمس، وإن لم تظهر الشمس ولكنه فجر يوم من أيام الله أظهره، ثم محاه، وشهد الأولون تباشيره، ثم تعاقبت الأجيال، ولا يزال العالم فى ضحاه[2].

والحقيقة أنه لا يستطيع أى باحث أن يجزم بتعيين الوقت الذى استعمل فيه العرب «كلمة العرب» علما عليهم: بدوهم وحضرهم، على أنه علامة فارقة تميزهم عن بقية الأقوام[3].

(1) تاريخ آداب العرب: جـ1 ص 69.

(2) المرجع السابق: جـ1 ص 67.

(3) تاريخ العرب قبل الإسلام: جـ1 / 171.

اللغة العربية

اللغة العربية هى إحدى اللغات السامية. وسر تسميتها باللغات السامية تمييزاً لها عن اللغات الحامية واللغات الآرية.

وكثير من العلماء يردون اللغات السامية كلها إلى ثلاثة أصول: الآرية، والعبرية، والعربية.

وهذه الآراء لا دليل عليها لأنها لا تقدم الأصل اللغوى الحقيقى الذى انشعبت منه هذه اللغة وغيرها من أخواتها السامية، التى تنسب إلى أب تاريخى مجهول[1].

ونحن نكاد نيأس من الوصول فى يوم من الأيام إلى تاريخ علمى محقق لهذه اللغة قبل ظهور الإسلام[2].

ولا عبرة بدعوى بعضهم أن الأصل السامى الذى تفرعت منه هذه اللغات هو اللسان البابلى القديم، فإن تلك ظنون أدى إليها وجود بعض المشابهة بينه وبين العربية، ولا يبعد أن يكون سببها قرب اللغتين بالانفصال عن أصلهما المجهول.

ومن الراجح أن هذه اللغات بجملتها من سامية وغيرها يمكن أن تتصل فى سلسلة الحياة اللغوية بأصل واحد هو لغة الإنسان الأولى، التى لا تزال هى الأخرى مختبئة فى ضمير الزمن.

وأشهر اللغات السامية هى العربية والسريانية والعبرانية والفينيقية والآشورية والبابلية والحبشية. ولم يبق حيا منها إلا العربية والحبشية والعبرانية والسريانية. والعربية أرقاها جميعًا، واللغات السامية أخوات لا يعرف لهن أم[3].

---

(1) الأدب العربى وتاريخه: ص 30.

(2) فى الأدب الجاهلى: ص 107.

(3) تاريخ آداب اللغة العربية: جـ1 ص 35.

وقد دخل فى اللغة العربية كثير من ألفاظ اللغات الأخرى كالعبرية والحميرية والحبشية نتيجة اختلاط العرب بغيرهم من الأمم والشعوب فى ذلك الوقت. لأن كل لغة لا بد أن تؤثر وتتأثر بغيرها بقدر احتكاكها وتفاعلها مع غيرها من اللغات.

فاليمنيون تأثروا باللغة الحبشية لقربهم منها، وكثرة اتصالهم بها. وتأثر الحجازيون بالعبرية، فالثاء فى العربية شين فى العبرية. كثور التى فى العبرية شور، والألف فى العربية واو فى العبرية فسلام فى العربية شلوم فى العبرية. وبعض الكلمات التى تكون فى العربية بالشين تكون بالسين فى اللغة العبرية وغير هذا كثير.

وقد انتشرت العبرية فى الشام مثل السريانية والفينيقية[1].

وتعلم إسماعيل اللغة العربية من جرهم الثانية التى هاجرت من اليمن إلى مكة. ونزلت بجانب بئر زمزم، فاختلط بهم، وتعلم لغتهم حتى إنه تزوج منهم، ونشأ من أولاد إسماعيل وزراريه العرب المستعربة أو الإسماعيلية.

ويقال إنها لغة يعرب بن قحطان، وكان القحطانيون قد هاجروا من الحبشة أو الفرات إلى بلاد اليمن، ومكثوا فيها وأضافوا إلى لغتهم ما أخذوه من لغة أسلافهم، كالمعينين الذين هم من البابليين أو الآراميين، وكانت لهم بها دولة قبل السبئين، والحميريين، وهم الذين اقتبسوا الحروف الفينيقية التى انتهت بعد فى آخر صورها بالخط المسند أو القلم الحميرى المشهور[2].

فاللسان العربى نوعان:

لغة عربية جنوبية فى اليمن، ولغة عربية شمالية فى الحجاز، فلغة الجنوب

---

(1) خطط الشام: كرد على - جـ1 ص 73 ط دمشق.

(2) الأدب العربى وتاريخه: ص 31.

تشمل لغة سبأ ولغة حمير، وقد يطلقـون عليها اللغة الحميرية تساهلا، وهى أقدم بكثير من لغة الشمال كما هو واضح.

ولغة الشمال عدنانية، وقد روى بها الشعر الجاهلى والشعراء الذين قالوه إما من ربيعة أو مضر، وهما فرعان عـدنانيان، أو من قبائل يمنية رحلت إلى الشمال كطىء وكندة وتنوخ.

وعلى هذا تكون اللغة العدنانيـة تكونت من اللغات السابقة عليهـا، وشابها الاختـلاف الذى نراه فى كل لغة من اللغـات الذى يسمونه بـاختلاف اللهـجات، كالذى نراه بين القطر السـعودى والمصرى مثلا، بل ترى هذا الاخـتلاف بين أبناء القطر الواحد كـاللهجة التى يتكلم بهـا أبناء الوجه البحـرى، وهى بالطبع تختلف عن اللهجة التى يتكلم بها أبناء الوجه القبلى.

وظل هذا الاختلاف ماثلا تتكلم به القبائل العربية حسب طباعها وما درجت عليه إلى أن سادت قريش وارتفعت منزلتها، وتهـيأ لها من قوة السلطان ما جعلها تسمو على بقية الجزيرة العربية وزاد من هيبتهـا انتشار لهجتها بين كثير من القبائل فدخلها كثـير من التهذيب والإصلاح، وسطع نجمهـا بنزول القرآن الكريم، فرفع شأنها، ونشـر سلطانها على القبائل كلها خـاصة بعد انتشار الإسـلام فى مختلف الأمصار. فـأقبل عليها الجمـيع وتعلق بها الناس لأنها كانت سـهلة على ألسنتهم خفيفة الوقع على آذانهم.

وما فى تراكيـبها من سهولة ومـا فى مادتها من غزارة واتسـاع، ولأنها لغة الدين والدنيا معًا.

الدين الذى اعتنقوه عن يقين، ودخلوا فيه طائعين بدون إكراه أو خوف.

فأمـا لغتهم فقـد سادت الممالك جمـيعًا وانهـزمت أمامها اللغـات الأصلية للبلاد[1].

(1) دراسات فى العربية وتاريخها: محمد الخضر حسين ص 119 ط دمشق.

أطوار تهذيبها:

لم تصل أى لغة من اللغات إلى درجة الكمال والرقى مرة واحدة، بل المألوف أن تمر بمراحل مختلفة حتى تصير لغة رسمية معترفا بها فى أى بقعة من بقاع العالم وعند أى شعب من الشعوب.

وكل لغة كذلك لابد أن يتشعب منها لهجات متعددة، وهذه اللهجات تدور فى أغلب الأحيان فى فلك اللغة الأصلية، ولكن مهما اختلفت هذه اللهجات، وتباينت فإنها تظل على اتصال وثيق باللغة الأم، مرتبطة بها ارتباطًا لا ينفصم عراه.

ولغتنا العربية ليست بدعا بين لغات العالم فقد ظهر فيها لهجات مختلفة تبعًا لانتشار العرب واختلاف حياتهم فى الصحراء العربية.

ومن هنا كان لكثير من القبائل لهجاتهم المختلفة التى عرفوا بها.

مثل **عجعجة قضاعة**، التى يجعلون الياء بعد العين جيما، فيقولون الراعج فى الراعى. قال الشاعر[1]:

خالى عويف وأبو علج ... المطعمان اللحم بالعشج[2]

وبالغداة كتل البرنج ... يقلع بالود وبالصيصج

وكشكشة أسد: وهى إبدال الشين من كاف الخطاب للمؤنث مثل عليش فى عليك.

وخثعم وزبيد: يحذفون نون من الجارة، وعلى هذه اللهجة جاء قول المتنبى:

ولديه ملعقيان والأدب المفا ... دو ملحياة وملمات مناهل

---

(1) خزانة الأدب: م4 ص 85 ط الأميرية.

(2) الكتل: جمع كتلة وهى القطعة المجتمعة - الود: أصل الوتد الصيصى: قرن البقر.

يقصد من العقيان ومن الحياة ومن الممات.

طمطمانية حمير: التى يجعلون فيها (أم) بدل (ال) كما جاء فى الحديث الشريف.

«ليس من البر الصيام فى السفر» فقد كانوا يقولون ليس من أمبر أمصيام فى أمسفر.

وفخفحة هزيل: التى يجعلون الحاء عينا مثل العسن فى الحسن.

وشنشنة اليمن: وهى جعل الكاف شينا مطلقا نحو شلمنى فى كلمنى.

وقيس تبدل الهمزة عينا وجاء على هذا قول ذى الرمة:

أعن توسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم

وهذيل تستعمل متى بمعنى من ويجرون بها.

ومنه قول أبى ذؤيب:

شربن بماء البحر ثم ترفعت متى لجج خضر لهن نئيج

وتبدل السين تاء عند قيس مثل:

يا قبح الله بنى السعلاة عمرو بن يربوع شرار النات
ليسوا أعفاء ولا أكيات[1]

ومن اختلاف اللهجات أيضا اختلاف الألفاظ الدالة على مدلول واحد، كالترادف فى مثل الأسد والليث والضيغم والضرغام.

قال القالى: السرحان الأسد بلغة هذيل، والذئب بلغة غيزهم[2].

---

(1) الأمالى: القالى: جـ2 ص 68.

(2) المرجع السابق: جـ1 ص 106.

وتبدل أواخر بعض الكلمات المجرورة ياء مثل الثعالى فى الثعالب، الأرانى فى الأرانب. قال النمر بن تولب اليشكرى فى وصف عقاب:

لهـا أشـاريـر من لحم تتـمـره من الثعالى، ووخز من أرانيها[1]

وما ذكرناه قليل من كثير ذكرته كتب اللغة والأدب والنحو، ويكفينا ما ذكرناه من اختلاف اللهجات عند القبائل وهو يدلنا على أن الاختلاف كان أمراً طبيعيًا، وظل الاختلاف بين القبائل العربية مطردا فى لهجاتها.

إلى أن ارتفعت اللغة العربية، وتطورت ودخلها كثير من الصقل والتهذيب، فتقاربت لهجاتها، واتحدت فى لهجة قريش وأهلها؛ لما فيها من سهولة ووضوح، ونزول القرآن الكريم بها، وهو فى الذروة العليا من الفصاحة والبيان فتمت به كلمتها، وارتفع شانها على غيرها من اللغات. **ويرجع هذا إلى عدة عوامل:**

- تهذيب إسماعيل للغة بما حباه الله به من سلامة الفطرة وبراعة الذوق، فوضع نواة التهذيب للغة بما أخذه من لغة جرهم، وما أضافه إلى لغة قومه، مما كان له أكبر الأثر فى صقل اللغة وازدهارها.

- مكانة قريش ومنزلتها عند العرب، فهى تقوم بالكثير من الأمور التجارية بين العرب وغيرها، وتقوم بخدمة البيت الحرام موضع حجهم. أضف إلى هذا ما كان لها من نفوذ أدبى وسياسى. وكان نتيجة كل هذه العوامل تطويع الألسنة وتقاربها.

ومن هنا سادت لغة قريش وتقدمت، وتسابقت القبائل لتنهل من هذه اللغة وتأخذ منها ما استحسنته من ألفاظ وأساليب سمعتها من قريش كلما عنت لها مناسبة من المناسبات، وبالتالى أخذت قريش من هذه القبائل ما استحسنته من عبارات وجدتها عند القبائل عندما كانت تاتى إليها وافدة للحج أو فى أمر من الأمور.

(1) تاريخ آداب العرب: جـ1 ص 55.

لأن دارهم وبيئتهم وأخلاقهم وشيمتهم واحدة، وبينهم تصاهر وتشابك واجتماع لا ينقطع[1].

وبهذا هذبت قريش اللغة بما أخذته من لهجات القبائل الأخرى وبما دفعته فى لغتها من خلابة الأسلوب، وبراعة الأداء، وفصاحة التعبير بدون تكلف أو معاناة.

وسادت لغة قريش قبل الاسلام، وانتشرت فى الجزيرة العربية معلنة بداية الاتحاد اللغوى والأدبى، مما كان له أكبر الأثر بعد ذلك.

يقول طه حسين فى تعليل سيادة لهجة قريش: إنها فرضت على قبائل الحجاز فرضًا، لا يعتمد على السيف، وإنما يعتمد على المنفعة، وتبادل الحاجات الدينية والسياسية والاقتصادية وكانت الأسواق التى يشار إليها فى كتب الأدب، وكما كان الحج وسيلة من وسائل السيادة للغة قريش[2].

ويقول ابن خلدون:

وكانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتها. فسهولتها وعدم وجود العجمة فيها، وبما أضفى عليها من رقة وخفة وعذوبة أهلها جعلها تسود على لهجات العرب الأخرى.

إن وجود لهجات ولغة عليا ليس فيه شىء مخالف للعادة، كما أن نمو لهجة شعرية ليس فيه - أيضا - شىء خارق للعادة، ولنا فى الشعراء المنشدين البرابرة فى أفريقيا الشمالية، الذين يعتمدون فى النظم على لغة مخالفة للغة الدارجة مثال واضح، وكما هى الحال أيضا عند قبائل الطوارق فى الحجر[3].

---

(1) البيان والتبيين: جـ2 ص 291 ت هارون.

(2) فى الأدب الجاهلى: ص 107.

(3) تاريخ الأدب العربى: ص 88.

الفصل الثانى

أسواق العرب فى الجاهلية
وأثرها الأدبى

من أكبر الأماكن أثرا فى حياة العرب الأسواق التى نعرض لها فلها حياة حافلة فى سجل الأدب، وأثرها لا يجحد فى كثير من المناحى الاقتصادية والأدبية والاجتماعية.

وأشهر هذه الأسواق سوق عكاظ، وتقع فى الجنوب الشرقى من مكة وعلى بعد نحو عشرة أميال من الطائف، ونحو ثلاثين ميلا من مكة فى مكان منبسط فى واد فسيح، به نخل وماء وصخور، ويسمى هذا المكان عكاظ.

وكانت تقوم هلال ذى القعدة وتستمر عشرين يوما، يجتمع فيها قبائل العرب (فيتعاكظون)، ويتناشدون الشعر[1].

وتنطبق الأوصاف السابقة على الأرض الواسعة الواقعة شرقى الطائف بميل نحو الشمال، خارج سلسلة الجبال المطيفة، وتبتعد تلك الأرض عن الطائف نحو 35 كيلو، يحدها غربا جبال بلاد عدران، وجنوبا جبال أسفل وادى لية.. وشرقًا صحراء ركبة، وشمالا طرف ركبة[2].

وقد اختلف اللغويون فى اشتقاق الكلمة: فقال بعضهم: اشتقّت من تعكظ القوم إذا انحبسوا لينظروا فى أمورهم، وقال غيرهم سميت عكاظ لأن العرب تجتمع فيها فيعكظ بعضهم بعضًا[3] بالمفاخرة، أى يعركه ويقهره.

واختلفت القبائل فى صرفها وعدم صرفها. فالحجازيون يصرفونها، وتميم لا تصرفها. وعلى اللغتين ورد الشعر.

قال دريد بن الصمة:

---

(1) أيام العرب: البجاوى وغيره. ص 208 ط الحلبى.

(2) مجلة المجمع العلمى العربى: جـ2 مجلد 26 تموز 1951.

(3) الرسالة: عدد يوليو سنة 1933.

تغيبت عن يومى عكاظ كليهما.

وقال أبو ذؤيب:

إذا بنى القباب على عكاظ وقام البيع واجتمع الألوف

ومما لا شك فيه أن العرب قد استغلوا هذه الصحراء التى عاشوا فيها، واختاروا منها أحسن الأمكنة وأنسبها، والتى تصلح لإقامة أسواقهم وندواتهم.

فحاجة العرب وتفرقهم فى جزيرتهم يدعوهم إلى الاجتماع وتبادل الآراء وغير هذا من أمورهم التى اقتضتها طبيعة حياتهم.

وكانت الأسواق المشهورة أهم الأماكن التى اختارتها العرب لعقد مثل هذه اللقاءات، التى كانت تتكرر تباعا وكل عام.

وكانت أسواق العرب عشرة أسواق، يجتمعون بها فى تجارتهم[1]. ومن الإنصاف أن نقول: إن كل هذه الأسواق لم تكن فقط للتبادل التجارى أو الاقتصادى الصرف، بل كانت كذلك منتدى عاما للتبادل الفكرى كذلك، وتتبادل فيها الأفكار على الخصوص[2].

وإذا كان التبادل التجارى فى هذا الوقت قد سد حاجتهم الضرورية فى حياتهم المقفرة - فقد سد التبادل الفكرى كذلك نهمهم فى التطلع إلى المعرفة والتزود منها

ولم يكن لهم شىء يرجعون إليه من أحكامهم وأفعالهم إلا الشعر. كانوا به يختصمون وبه يتفاضلون وبه يمدحون ويعادون[3].

وكان الأدب مادة الأسواق الأولى وعمادها. فاذا كانت التجارة تذهب

(1) اليعقوبى: جـ1 ص 26 ط الغرى النجف.

(2) مجالى الإسلام: حيدر بامات ص 262 ط الحلبى.

(3) اليعقوبى: جـ1 ص 217.

بانتهاء هذه الأسواق فإن حديث الناس وكلامهم وأملهم كان فى الاجتماع مرة ثانية، لرغبتهم فى ذيوع شعرهم ومفاخرهم التى بها يستطيعون أن يتطاولوا على القبائل الأخرى.

ومن هنا سارعت القبائل لتذيع مفاخرها ومحامدها على الملأ هناك.

وكان للعرب أسواق كثيرة محلية: كسوق صنعاء، وسوق حضرموت، وسوق صحار، وسوق الشحر، ويجتمع فى هذه الأسواق غالبا أهلها وأقرب الناس إليها، فهى أسواق خاصة.

أما عكاظ فكانت ملتقى الجميع وسبب أهميتها أن موعد انعقادها كان قبل الحج وهى قريبة من مكة وبها الكعبة الشريفة، فمن أراد الحج من جميع قبائل العرب سهل عليه أن يجمع بين الغرض التجارى والاجتماعى والدينى.

إذ كان كل شريف يحضر سوق ناحيته إلا عكاظ فإنهم يتوافدون إليها من كل جهة[1] وقد اتخذت سوقا بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة.

وكثيراً ما اتخذت السوق وسيلة للخطبة والزواج. وقصة الأعشى مع المحلق كان مسرحها سوق عكاظ.

وذلك أن الأعشى قدم مكة، وتسامع الناس به، فاستضافه المحلق، وسبق الناس إلى ضيافته فنحر له، وسقاه، وبالغ فى إكرامه ومن معه، فسأله الأعشى عن حاله وحال عياله فعرف البؤس فى كلامه وذكر البنات، فقال الأعشى كفيت أمرهن، وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته.

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بى من سقم وما بى معشق

ورأى المحلق اجتماع الناس فوقف يستمع، وهو لا يدرى أين يريد الأعشى بقوله، إلى أن سمع.

(1) تاريخ آداب العرب: جـ1 ص 88 ط الاستقامة.

نفى الذم عن آل المحلق جفنة كجابية الشيخ العراقى تفهق

ترى القوم فيها شارعين وبينهم مع القوم ولدان من النسل دردق

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

رضيعى ألبان ثدى أم تجالفا بأسحم داج عوض لا نتفرق

ترى الجود يجرى ظاهراً فوق وجهه كما زان متن الهندوانى رونق[1]

فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون إلى المحلق يهنئونه، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه، يخطبون بناته فلم تمس منهن واحدة إلا فى عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف.

ومن الطريف أن يكون هناك بعض الشعراء يحكمون فيما يصل إلى هناك من شعر يقال فى عكاظ.

فالتاريخ يذكر لنا أن النابغة الذبيانى كانت تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ يجتمع إليه فيها الشعراء[2].

فيدخل حسان بن ثابت، وعنده الأعشى والخنساء فينشدونه جميعا، ويفاضل بينهم، وينقد قول حسان:

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى

فيقول لحسان قللت العدد ولو قلت الجفان لكان أكثر وقلت يلمعن بالضحى ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ فى المديح، لأن الضيف بالليل أكثر طروقا.

وعمرو بن كلثوم بسوق عكاظ، ينشد قصيدته المشهورة:

---

(1) العمدة: جـ1 ص 25.

(2) الأغانى (ساسى): جـ1 ص 156.

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا[1]

وقس بن ساعدة يخطب الناس خطبته المشهورة، فيذكرهم بالله واليوم الآخر، والموت، قال[2]:

أيها الناس اجتمعوا واستمعوا وعوا، كل من عاش مات، وكل من مات فات، وكل ما هو آت آت، إن فى السماء لخبرا، وإن فى الأرض لعبرا... إلخ.

ومن هذا كله نرى أن الأمر لم يصل إلى الإنشاد أو الإلقاء فقط وتحويل هذا اللقاء الممتع الذى ينتظره العرب إلى معمعة كلامية جوفاء بحق أو بباطل، وإنما كان هناك نقاد يحكمون، ويستحسنون، ويهملون، وينقدون قبل أن يظهر النقد لما يلقى عليهم من شعر هناك وهذا ما يحاوله أرقى المجتمعات اليوم فى إبراز نتاج شعرائهم وفكر كتابهم.

وكانت موعدا للخطباء والدعاة، وكانت فوق هذا كله بيئة من بيئات النقد الأدبى يلتقى الشعراء فيها كل عام[3].

وقد اتجه الرسول ﷺ إلى عكاظ بعد بعثته وأخذ يدعو الناس إلى عبادة الله وحده وترك عباده الأصنام والأوثان؛ لأن عكاظ كانت مجمع القبائل العربية. روى الواقدى أن رسول الله أقام ثلاث سنين، من نبوته مستخفيا، ثم أعلن فى الرابعة، فدعا عشر سنين، يوافى الموسم، ويتبع الحاج فى منازلهم بعكاظ والمجنة وذى المجاز، يدعوهم أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه.

والخنساء نجدها كذلك تؤم سوق عكاظ، وتعلن فيها مصيبتها فى أبيها عمرو ابن الشريد وأخويها صخر ومعاوية، وتنشد فى ذلك القصائد، وتقلدها فى هذا

(1) شرح القصائد العشر: ص 218.

(2) مجمع الأمثال: الميدانى: جـ1 ص 99.

(3) تاريخ النقد الأدبى عند العرب: طه إبراهيم ص 14 ط بيروت.

العمل هند بنت عتبة حينما قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة فى موقعة بدر، وتفعل ما فعلته الخنساء.

وقالت اقرنوا جملى بجمل الخنساء، ففعلوا، فعاظمت هند الخنساء فى مصيبتها وتناشدتا الأشعار، تقول إحداهما قصيدة فى عظم مصيبتها، وترد الأخرى عليها.

وإذن فسوق عكاظ فى جاهلية التاريخ العربى كانت أشبه بأكاديمية فرنسية فى بلاد العرب[1].

وشأن العرب فى ذلك شأن اليونان القدماء فى (الجمناسيوم) وهى أبنية كانوا يجتمعون فيها للألعاب البدنية، وفيهم الفلاسفة والعلماء.. فكانوا يغتنمون فرصة وجودهم هناك، يتباحثون، ويتناظرون، ويتنافرون كما كان يفعل العرب فى عكاظ[2].

وأمثال هذه الأسواق كثيرة فى روسيا وتركيا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا وأمريكا، ففى روسيا سوق تقام فى مدينة (نوفكرود) مرتين فى السنة، يبلغ عدد الذين يؤمونها 2000 نفس يجتمعون هناك من سائر بلاد روسيا ومن شرق أوربا[3].

وللهنود سوقًا يقيمونها فى (هردوار) على ضفاف الكنج كل سنة، يبلغ عدد المجتمعين هناك فى المواسم 300000 نفس، وهو أكبر أسواق العالم[4].

ومن هذا كله نرى مدى أهمية هذه الأسواق العربية وأثرها فى حياة العرب، ففى كل مناسبة من المناسبات كانت تصدر نشرتها الرسمية بما أعده الخطباء لهذه المناسبة، وما نقحه الشعراء والحكماء.

---

(1) تاريخ آداب العرب: حيئى: جـ1 ص 128 ط بيروت

(2) تاريخ آداب اللغة العربية: جـ1 ص 172.

(3) المرجع السابق نفس الصفحة.

(4) المرجع السابق نفس الصفحة.

ويتلقف الرواة هذا كله ليسجلوه فى صفحات الزمن، وكان أكبر شاهد على حضارة العرب وتقدمهم البيانى واللسانى فى العصر الجاهلى.

وفى ذلك يقول حسان:

سأنشر ما حييت لهم كلاما ينشد فى المجامع من عكاظ[1]

وأثر هذه الأسواق خاصة عكاظ واضح فى تراث العرب الشعرى فقد مهدت الطريق قبل ظهور الإسلام لجمع اللغة العربية وتوحيد لهجاتها التى كانت منتشرة بين قبائل العرب. كما كان لها أثرها الكبير فى محو ما كان بين العرب من فروق لغوية.

وقد ظلت مركز إشعاع ثقافى فى العصر الإسلامى والأموى ولكن صورتها فى العصر الجاهلى كانت أقوى، وحياتها كانت أعمق أثراً فى حياة اللغة والأدب عنها فى العصرين الإسلامى والأموى إلى أن خربت وأضاع معالمها الزمان[2].

فعكاظ عاصرت العصر الجاهلى الذى كان فيه ما وصل إلينا من شعر وأدب، وجرت فيها أحداث تتصل بحياة النبى ﷺ قبل مبعثه، ومهدت السبيل قبيل الإسلام لتوحيد اللغة والأدب، وقصدها الرسول ﷺ يبث فيها دعوته، وعاصرت الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين والعهد الأموى، ولكن كانت حياتها فى الإسلام أضعف من حياتها قبله.

ويقول (سيديو) عن الأسواق العربية:

لا شىء أروع من تلك الأسواق على ما كان يسودها من البساطة، فقد كانت تشبه الألعاب الأولمبية، فكان ينهض مقاتل متزن الخطا أمام جمهور صامت

---

(1) الرسالة: عدد يوليو سنة 1933.

(2) فيض الخاطر: أحمد أمين جـ4 ص 278 ط لجنة التأليف.

جامع لحواسه، فلـم يكن عليه من الزينة ما يشير إلى أنه من طبقـة عالية، فكانت الأبصـار تتوجـه إليه مع ذلك، فـينشد بصـوته الرخيم من فـوق مرتقـى قصـيدة بأسرها، فـتراه يترنم بأعـماله السامـية وشرف عـشيرته أحـيانا، وتراه يصف نغم الانتقـام أحيانا، وتراه يمدح القـرى والشجاعة، ولا سـيما الكرامة، وأحـيانًا تراه يصور عجائب الطبيعة، وعزلة الصحراء والمناهل المبتغاة[1].

(1) تاريخ العرب العام: سيديو: ص 53 ط الحلبى.

العوامل المؤثرة فى الأدب

الأدب هو التعبير الحق عن خلجات المرء وعواطفه وأخيلته وهذه لها صلة وثقى بالمجتمع الذى يعيش فيه المرء، فتقلبات السياسة وأنظمة الحكم، وأنواع الديانات، وأحوال العيش وتقدم العلم - كل هذا يؤثر فى عقلية الأديب وأسلوبه وإنتاجه.

ولابد لدارس الأدب من الإلمام بالمؤثرات والعوامل التى تؤثر فيه حتى يكون حكمه سليما حينما ينظر فى نتاج الإنسانية، فيعرف أين وضع حكمه؟ وكيف استقاه؟ وعلى أى شىء بناء؟ والعوامل المؤثرة فى الأدب كثيرة نذكر منها ما يأتى:

الإقليم:

من المعلوم أن أحوال الإقليم وطبيعته، وما فيه من هدوء وجمال أو فوران واضطراب - تؤثر على عقلية من يعيشون فيه وكذلك الأحوال السياسية، والنظم الاجتماعية تؤثر كذلك على أفراد المجتمع.

وكلما زاد الثراء وانتشر الرخاء تقدم المجتمع نحو الحضارة خطوات، وأثر هذا على نفوس كتابه وشعرائه، وبالعكس كلما قل حظ الأمة من الثراء وانتشر الفقر أثر هذا بالتالى على فكر المجتمع وتخلف إلى حد بعيد.

وفى الحياة الجاهلية اضطربت الحالة الاقتصادية نتيجة القحط وقلة العشب وجدب الأرض، وأثرت على نفوس من عاشوا هناك، فانتشرت الصعلكة والسلب والنهب والإغارة، والقتل لأتفه الأسباب.

وصور الشعر الجاهلى هذا كله لأنه نابع من الحياة الجاهلية نفسها، فهو يترجم عن خيال البدوى فى صحرائه، وعاداته وتقاليده وأهدافه فى الحياة.

ومن هنا جاء هذا الشعر مشابها كل المشابهة لهذه الحياة فى ألفاظه، وأخيلته، وصوره، ومعانيه.

وفى كل بلدان العالم للآن الكثير من الصعاليك أمثال السليك، والشنفرى، وتأبط شرا، وغيره من الصعاليك الذين صوروا فى صدق إحساس وشعور حياة البادية، بما فيها من مناظر، وأباعر، وغزلان، وكثبان، وأطلال فى شعر متين الأسلوب صادق الشعور.

تأمل قول عبيد الأبرص الأسدى (ت سنة 555) وهو يصور ما كان يدور بينهم من معارك تصرع فيها الأبطال وتسفك فيها الدماء، فقد امتنع بنو أسد عن دفع الأتاوة - لحجر - والد امرئ القيس، فغضب وحاربهم واستباح أموالهم، وأخرجهم إلى تهامة، وحبس بعض سادتهم، وفيهم عبيد الأبرص، فذهب منهم وفد إليه وجاء عبيد فوقف وأنشده قصيدة جاء فيها:

ومعنعتهم نجدا فقد ... حلوا على وجل تهامة[1]

برمت بنو أسد كما ... برمت بيضتها الحمامة

جعلت لها عودين من ... نشم وآخر من ثمامة

مهما تركت تركت عفوا ... أو قتلت فلا ملامة

أنت المليك عليهم ... وهم العبيد إلى القيامة

ذلوا لسوطك مثل ما ... ذل الأشيقر ذو الخزامة[2]

فشعر الأمة العربية قبل أن تخرج من جزيرة العرب متأثر أشد التأثر بالبيئة الطبيعية الخشنة التى كانت تعيش فيها هذه الأمة[3].

فهل نقيس الشعر السابق لعبيد الأبرص؟ بشعر ابن خفاجة أشهر شعراء الأندلس (450 - 533) الذى قال:

(1) النشم. شجر. الثمامة: نبت. الأشيقر: الأحمر من الإبل. الخزامة: حلقة من شعر تجعل فى أنف البعير.

(2) تاريخ آداب العرب: جـ1 ص 104.

(3) التوجيه الأدبى: ص 10.

وإنى وإن جـئت المشـيب لمولع بطرة ظـل فـوق وجـه غـدير

فيـا حبـذا مـاء بمنعـرج اللوى ومـا اهتـز من أيك عـليـه مطيـر

ونفـحـه ريـح للربـيع ذكـيـة ولمحـة وجـه للشـبـاب نضـيـر

ونعسة طرف العين من سنة الكرى لرجع خـرير أو لشـجـو هدير[1]

ولا شك أن كلا من الشاعرين يعبر عما يجرى فى محيط بيئته، يستلهمها، ويعبر عنها، وينقل إلينا تأثره فى صورة صادقة وإحساس عميق.

وهكذا تجد دائما فروقا بين شعر الجـاهلية الذى يعتمد على وصف الصحراء بما فيهـا من إبل، وما يظهر من بروق، وما ينتـشر فيها من حـروب حول العشب وآبار المياه. وبيـن شعر الأندلس بعـد ذهاب العرب إليـها، وتقلبهم فى نـعيمـها الصافى ومائها العذب، وجوها الطلق الجميل.

وكذا شعر الشام والعراق ومصر لكلٍّ خصائصه المميزة، التى تربطه بإقليمه برباط لا ينفصم، ويظل دائما ضرورة لمجتمعه الذى خرج منه على الدوام.

والكاتب مهـما بلغت أصالته وعـبقريته، لا يسـعه التخلص من آثار البـيئة الاجتـماعية التى نشـأ فيها. ولا نسـتطيع أن نجد على هذا القول دليـلا أقوى من أفلاطون العظيم وجمـهوريته[2]. فقد قسمهـا إلى ثلاث طبقات: حكماء يرأسون المدينة، وجند يذودون عنها، وعـمال يوفرون لها وسائل الحـياة المادية. وهكذا لم تحل أصالة أفلاطون الفكرية دون تأثره بالمجتمع اليونانى وقيمه الاجتماعية[3].

(1) فى الأدب الأندلسى: الركابى ص 107 ط المعارف.

(2) حيرة الأدب فى عصر العلم: عثمان نويه ص 50.

(3) المرجع السابق نفس الصفحة.

الحالة السياسية:

من العوامل المؤثرة فى الأدب الحالة السياسية، ذلك أن لكل أمة من الأمم نظامها الخاص فى سياستها وتصريف أمورها وعلاقاتها بغيرها من الأمم المجاورة، ويتأثر الأدب بهذا كله، يتلون بلونها، ويلبس لباسها السياسى، وتجد ظل هذا عند الأدباء والشعراء الذين يعبرون عما فى المجتمع من حرية واستقرار، أو كبت وخصام.

ففى العصر الجاهلى كان الأدب صورة لحياة العرب وما اعتراها من تفكك بين القبائل، ونشط القتل وسفك الدماء.

ويأتى الإسلام، ويكون الشعر مصوراً للحياة السياسية فى هذا العصر على يد الشعراء الإسلاميين: كحسان، وكعب، وغيرهما.

وفى حياة معاوية يعبر الشعر أسمى تعبير ويصور أجمل تصوير حياة بنى أمية فى أقطارها المختلفة، فالهجاء ينتشر فى العراق، والغزل فى بلاد الحجاز، والمدح فى بلاد الشام.

وإذا بحثنا عن علة ذلك لا نجد إلا العامل السياسى، الذى كان يوجه الشعر فى هذا الوقت.

فقد كان معاوية يخشى العراق، فألهاهم بالتفريق، وبعث العصبية، ودفع روح المنافسة بين الشعراء من جهة والقبائل من جهة أخرى، ليشْغل الناس عن الخصومة فى الخلافة بالخصومة فى أمر جرير والفرزدق والأخطل أصحاب لعبة النقائض فى العراق.

ويظهر هذا جليا فى وصية معاوية الأخيرة لابنه يزيد، وذلك حينما دعا الضحاك بن قيس الفهرى، ومسلم بن عقبة المرى فقال لهما: أبلغا عنى يزيدا، وقولا له: انظر إلى أهل الحجاز فهم أصلك وعترتك، فمن أتاك منهم فأكرمه، ومن قعد عنك فتعاهده، وانظر أهل العراق فإن سألوك عزل عامل فى كل يوم

فاعزله، فإن عزل عـامل واحد أهون عليك من سل مائة ألف سيف، لا ترى على من تكون الدائرة[1].

وكـما بث الشـقاق والمـشاجـرة فى العراق لأنـه يخاف أهله، وبث التـرف والنعيم فى بلاد الحجاز، لأنه يريد لهم ذلك.

قال مرة للأحنف بن قيس: ما أذكر صفين إلا وكانت فى قلبى حرارة، فقال الأحنف: إن القلوب التى أبغضناكم بها لفى صـدورنا، وإن السيوف التى قاتلناكم بها لفى أغـمادها. ثم خرج فقـالت أخت معاوية من هذا؟ قـال: الذى غضب له ألف فارس من تميم، لا يدرون مما غضب[2].

فهـو يؤمن بالعصـبية ومـا لها من صولة، تزلزل أركـان ملكه، وتطيح به، ولهذا يخاف أمثال الأحنف أشد الخوف، كـما يخاف أهل العراق والحجاز، عامل كل هؤلاء المعاملة التى تنم عن سياستـه الحكيمة، التى تحافظ على الملك، وتسعى إلى السلامة من أى طريق وعدم الوقوف بشدة أمام تيار المخالفين.

وعلى هذا يكون معاوية قد سبق النظرية التى تقول: بأنه لا يتسنى لأى نظام من نظم الحكم أن يبـقى طويلا إلا إذا كان فيـه ما يرضى بعض عناصـر الطبيـعة البشـرية، التى لم تتح لهـا الفرصـة من قبل للتـعبـير عن نفسـها والتنفـيس عن مكظومها[3].

إن حكم الأمويين بنى على الضـغط والقهر، فكانت حاجتـهم إلى الشعراء والقصاص أشد، لأنهم هم الذين يبشرون بـهم، ويشيدون بذكرهم، ويقومون فى ذلك مقام الصحافـة لأحزابها. ومن أجل هذا لم يكن ينال الحظوة عند خلفاء بنى

(1) العقد الفريد، جـ4 ص 87 ط لجنة التأليف.

(2) شذرات الذهب: العماد الحنبلى، جـ1 ص 78 ط القدسى.

(3) الحرية والثقافة: جون ديوى ص 54 ط الأنجلو.

أميه إلا من كان مادحا لهم. فأما الشعراء العلويون والزبيريون ونحوهم فيحمدون الله أن سلموا منهم[1].

وفى العصر الحديث ترى الأدب قد واكب الأحداث السياسية وأصبح صورة صادقة للأحزاب التى جعلت من همها الوقوف ضد الاستعمار، الذى أراد أن يأخذ بأيدينا إلى التقدم، وسجل الأدب الثورات المتأججة التى أحالت حياته فى الأمة العربية جحيما لا يطاق، إلى أن كان فجر الخلاص وظهور شمس العربية من جديد.

الاتصال بين الشعوب:

الاتصال بين الشعوب من أكبر العوامل المؤثرة فى الأدب، ويظهر أثر هذا الاتصال فى نقل الأفكار والأساليب، والعادات والتقاليد وغيرها، كما يكسب الألفاظ والأساليب تجديداً وتقليداً.

وكلما كانت الأمة على صلة بغيرها من الأمم تطورت أفكارها. ورقت ألفاظها، وتنوعت أساليبها نتيجة الاتصال والاندماج.

والعكس إذا كانت الأمة منطوية على نفسها لا تتصل بغيرها - ظلت ألفاظها وخيالاتها ضيقة لا تتقدم إلا فى وضع ساذج بسيط.

وقد ظل العرب فى جاهليتهم يصورون حياتهم بما فيها من سلب ونهب وفتك وغيره، يرسمون الصحراء بما فيها من نبات وحيوان وطير ووحش، إلى أن تم الاختلاط الهائل بينهم وبين غيرهم من الأمم فى العصر العباسى، فرقّت أساليبهم وتنوعت أفكارهم، وفلسفوا الأمور، وتناولوها بعمق وإحاطة أكثر من تناولها فى حياتهم الجاهلية، وكان هذا من أثر الاتصال وتلقيح الأفكار فى العصر العباسى.

---

(1) فجر الإسلام: ص 154.

انظر إلى قول أبى تمام وهو يقول:

ينال الفتى من دهره وهو جاهل ... ويكدى الفتى فى دهره وهو عالم

ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا ... هلكن إذن من جهلهن البهائم

فلم يجتمع شرق وغرب لقاصد ... ولا المجد فى كف امرئ والدراهم

أو قول ابن المعتز فى وصف الهلال:

انظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

فترى دقة فى الخيال، وروعة فى الأداء، وقوة فى الألفاظ لم نعهدها فى العصر الجاهلى، وتجد كذلك قوة التشبيه وبراعة الاستقصاء. وهذا كله من أثر الحضارة الوارفة التى أظلت الشعراء، وأبعدتهم عن حر الصحراء، وجوها الخانق، ورملها الحارق، وليلها المظلم المخيف.

وفى الأندلس نرى ابن سهل الإسرائيلى يصف الأصيل بقوله:

انظر إلى لون الأصيل كأنه ... لا شك لون مودع لفراق

والشمس تنظر نحوه مصفرة ... قد خمشت خدا من الإشفاق

لاقت بحمرتها الخليج فألفا ... خجل الصبا ومدامع العشاق

سقطت أوان غروبها محمرة ... كالخمر خرت من أنامل ساقى

ويصف المعتمد نوارة قال:

ولربما سلت لنا من مائها ... سيفا وكان من النواظر مغمدا

طبعته لجينا فذانت صفحة ... منه ولو جمدت لكان مهندا[1]

فهذه الأمثلة تدلنا فى وضوح على مدى أثر الاتصال فى رقى الألفاظ والأساليب واستخراج الصور البديعة الخلابة. وما كان استمداد الشعراء بعضهم

(1) ديوان المعتمد: ص 29 ط الأميرية.

من بعض بدعا فى هذا الزمان. بل كان أمرا معروفا مألوفا أشار إليه كثير من أهل الأدب[1].

وأثر الفرس والروم وحضارتهما لا يجحد فى إبداع كثير من الأفكار والصور والأساليب والمعانى والأخيلة، ومع هذا لا يستطيع أحد إنكار فضل العرب ودورهم الحضارى على غيرهم من الأمم والشعوب؛ لأن المعارف متداولة تأخذ كل أمة حظها منها بقدر ما يتاح لها من اتصال واندماج.

فالشعر الأندلسى متأثر غاية التأثر بالشعر العربى وأكسبته الحضارة وبيئة الأندلس جمالا ورقة وروعة وحسن ابتكار.

وفى العصر العباسى فى بغداد التقى الطب اليونانى بالطب الهندى على صعيد واحد فقد سبق لهارون الرشيد نفسه ان استدعى مرة الطبيب الهندى (منكه) إلى بغداد كما سبق للبرامكة أن أمروا بنقل بعض كتب الطب الهندية إلى اللغة العربية.

فلما كانت خلافة المأمون لقيت هذه الجهود كلها عطفا ورعاية. فلقد حاول أن يجمع فى مكتبة بلاطه الموسومة ببيت الحكمة كنوز العلم الإسلامية، إلى كنوز العلم الأجنبية.

وفى عهده استهل أبو يوسف يعقوب الكندى (فيلسوف العرب) وأحد العقول الكبرى فى تاريخ العالم - نشاطه الفكرى، الذى لم يقتصر على تعريف مواطنيه بالفلسفة الأرسطوطاليسية والأفلاطونية الجديدة عن طريق الترجمة والاقتباس فحسب، بل عدا ذلك إلى توسيع آفاقهم العقلية بما أخرج من دراسات فى التاريخ الطبيعى وعلم الظواهر الجوية مكتوبة بروح الفلسفة[2].

---

(1) العمدة: جـ1 ص 176.

(2) الإمبراطورية الإسلامية وانحلالها: بروكلمان جـ2 ص 40.

وفى القرن الماضى اتصلت مصر والشرق العربى بأوربا فتطورت الحياة الأدبية تطوراً ملموساً. وهذا المؤثر يعظم خطره ويزداد من يوم إلى يوم، ولأن الاتصال بين الشعوب فى هذا العصر الحديث يقوى ويشتد، حتى ألغيت مسافات الزمان والمكان، أو كادت تلغى. وأصبحت شعوب الأرض المتحضرة يتصل بعضها ببعض فى كل يوم، بل فى كل لحظة، لا بين حين وحين، كما كانت الحال من قبل[1].

والحق أن الآداب واللغة من الأمور التى لا تأتى عفوا، وهى تتخذ دليلا على ماض طويل، وينشأ عن اتصال أمة بأرقى الأمم، واقتباسها لما عند هذه الامم العريقة من التمدن إذا كانت أهلا لذلك[2].

الاستعداد الفطرى:

هو موهبة الطبيعة لأمة من الأمم فترى بعض الأمم طبعت على سرعة الذهن وحضور القريحة والبراعة فى الشعر وفصاحة القول، وحسن التعبير، وسحر البيان فتصور أمجادها وبيئتها وأحوالها فى شعر رقيق أو نثر عذب وتبدع فى هذا الاتجاه.

وبعض الأمم يكون حظها أقل فلا نرى لها كثرة فى الشعر الجيد أو النثر الممتاز.

وكذا نجد بعض الأمم أخذت بحظ وافر فى العلوم والفنون فتظل رمزاً خالداً ومثلا حيا، وعنوانا للتقدم على مر العصور كمصر القديمة[3].

فالطبع أو الاستعداد فى نظر علم النفس الحديث هو مجموعة الخصال النفسية، التى تهيئ كل إنسان إلى مزاولة عمل ما فى الحياة بإحسان وإتقان، وهو

---

(1) التوجيه الأدبى: ص 13.

(2) حضارة العرب: لوبون، ص 88 ط الحلبى.

(3) التوجيه الأدبى: ص 10

القوة التى تيسر لمن وجدت فيه السبيل الذى تهيئه له طبيعته، وبعد قليل من مزاولته لهذا العمل المستعد له نفسيًا تظهر آثاره بوضوح وجلاء.

والذكاء والطبع متساندان، تتكون منهما فى النهاية نقطة ارتكاز تتجمع فيها كل القوى الفكرية والأدبية.

ومن هنا قيل إن فلانا نابغ فى القصة، والآخر فى الرواية، والثالث والرابع فى الشعر الغنائى، أو فى الشعر العاطفى، كما يقال إن فلانا أو فلانا نابغ فى الرياضيات أو الفنون الحربية أو الموسيقا[1].

وأمتنا العربية بلغت شأوا عظيما فى النظم والنثر وخير شاهد على ذلك ما بلغه الشعر فى العصر الجاهلى حيث بدا فى صور جميلة يمثل حضارة العرب وتقدمهم فى هذا الفن الجليل.

وفى هذا يقول رجل من بنى سدوس:

ياسلم إن تسألى فلا كشف عند اللقاء، ولسنا بالمقاريف
نحن الذين هزمنا يوم صبحنا جيش الزويرين فى جمع الأحاليف
ظلوا وظلنا نكر الخيل وسطهموا بالشيب منا وبالمرد الغطاريف[2]

وقال الأغلب بن جشم العجلى:

جاءوا بزويرهم وجئنا بالأمم شيخ لنا قد كان من عهد إرم
فكر بالسيف إذا الرمح انحطم كهمة الليث إذا ما الليث هم
كانت تميم معشرا ذوى كرم مخلصة من الغلاصم العظم

(1) بلاغة أرسطو: إبراهيم سلامة، ص 328.

(2) العقد الفريد: جـ5 ص 206.

قـد نفـخـوا لو ينفـخـون فى فـحم وصـبـروا لو صـبـروا على أمم

إذا ركـبـت ضـبـة أعـجـاز النعم فلم تـدع سـاقـا لهـا لا قـدم[1]

(1) المرجع السابق نفس الصفحة.

المعلقـــات

المعلقات هى قصائد من عيون الشعـر الجاهلى، كتبها العرب بماء الذهب فى القباطى المدرجـة، وعلقتها على أستار الكـعبة إجلالا لها، وتعظيمًـا لشأنها، ولما بلغته من الحسن والإحسان والبراعة والإتقان.

وقد احتفل النقاد بها، وعكف كثـير من الأدباء على شرحها لما احتوته على كثير من فنون القول، وتصوير حياة العرب فى كثير من نواحيها، عدا ما امتازت به من ابتكار التشبيه وعمق التصوير وقوة الأداء.

لماذا سميت بهذا الاسم؟

يذهب فريق من الأدباء إلى أن تسميتها بهذا الاسم جاءت من تعليق العرب لها على الكعـبة بعد كتـابتها بماء الذهب لما لهـا من نفاسة القيـمة وعلو المنزلة - وفريق آخر ينكر هذا أشد الإنكار.

مناقشة أصحاب الاتجاه الأول:

يقول (ابن عبد ربه الأندلسى المتوفى سنة 329هـ - 940م) صاحب العقد الفريد المشهور[1]:

وقد بلغ من كلف العرب به (أى الشـعر) وتفضيلها له أن عـمدت إلى سبع قصائد، اختارتها من الشعر القديم وكـتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة (ثياب من صنع قبط مصـر) وعلقتها فى أستار الـكعبة، فمنه يقال مذهبـة امرئ القيس، ومذهبة زهير، والمذهبات سبع، وقد يقال لها المعلقات.

ويلاحظ على رأى ابن ربه أن المعلقات كتبت دفعة واحدة وفى وقت واحد،

(1) العقد الفريد: جـ3 ص 93.

وهذا يخالف ما ذهب إليه كثير من الأدباء، كما أن هذا العمل الفورى قد لا يتحقق فى العصر الجاهلى.

(وابن رشيق) صاحب العمدة يقول: وكانت المعلقات تسمى (المذهبات) وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر، فكتبت فى القباطى بماء الذهب، وعلقت على الكعبة، فلذلك يقال مذهبة فلان، إذا كانت أجود شعره، ذكر ذلك غير واحد من العلماء. وقيل بل كان الملك إذا استجيدت قصيدة لشاعر يقول: علقوا لنا هذه لتكون فى خزانته[1].

فابن رشيق يوافق ابن عبد ربه على ما ذهب إليه، ويميل إلى القول بتعليقها، وذلك حينما قال إن تعليقها أشار إليه غير واحد من العلماء، ويضعف من يقول بعدم تعليقها على الكعبة بقوله (وقيل).

(وابن خلدون) يذهب إلى أن تسميتها بهذا الاسم وهو (المعلقات) من تعليقها على الكعبة. قال: حتى انتهوا. (أى العرب) إلى المناغاة فى تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم: وبيت إبراهيم، كما فعل (امرؤ القيس) (والنابغة) و(زهير) و(عنترة) و(طرفة) و(علقمة) و(الأعشى) وغيرهم من أصحابُ المعلقات السبع، فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبية ومكانة فى مضر[2].

ومن كلام ابن خلدون يتضح أن القصائد التى علقت على الكعبة تعتمد على القوة والعصبية، لا على نفاستها وجودتها، وهذا مخالف للمألوف.

ويرى (البغدادى) صاحب خزانة الأدب أنها سميت معلقات لتعليقها على الكعبة يقول: وكان العرب فى جاهليتهم يقول الرجل منهم الشعر فلا يعبأ به، ولا ينشده أحد: حتى يأتى مكة فى موسم الحج، فيعرضه على أندية قريش، فإن

(1) العمدة: جـ1 ص 61 ط السعادة.

(2) المقدمة: ص 529 ط بيروت.

استحسنوه روى، وكان فخراً لقائله، وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه، وإن لم يستحسنوه طرح وذهب فيما يذهب، قال أبو عمرو بن العلاء (المتوفى سنة 154هـ) وكانت العرب تجتمع فى كل عام، وكانت تعرض أشعارها على هذا الحى من قريش[1].

وعلى رأى البغدادى يمكن أن يكون التعليق فى مناسبة من المناسبات أو فى المناسبات كلها، ويجوز أن يكون هذا التعليق فى ساعة من ليل أو نهار.

رأى الأسكندرى[2]:

يذكر الأستاذ أحمد الأسكندرى أن السبب فى تسمية هذه القصائد بالمعلقات أن العرب لم تكن تكتب فى دفاف، وأنها لم تكتب قبل القرآن كتابا مدفقا، وإنما كانوا يكتبون فى رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد، يوصل بعضها ببعض، ثم تطوى على عود أو خشبة، وتعلق فى جدار الرواق أو الخيمة بعيدة عن الأرض حرصا عليها من قرض فأرة، أو عث أو نحو ذلك من دواب الأرض، وذلك تأويل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ... ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء]، إذ يظهر أن السجل ومعناه الصحيفة أو الكاتب الذى كان يعلق الكتب أو يطويها لعله كان يستعمل مثل هذا العود فى طى الكتاب وتعليقه.

رأى جورجى زيدان[3]:

يوافق الأستاذ جورجى زيدان على تعليقها على الكعبة فيقول: وأى غرابة فى تعليقها وتعظيمها بعد ما علمنا من تأثير الشعر فى نفوس العرب وتعظيمهم لأصحابه، ثم يرد على ابن النحاس الذى ينفى تعليقها فيفل حجته بقوله: أما الحجة التى أراد النحاس أن يضعف بها القول بتعليقها فهى غير وجيهة، لأنه قال:

---

(1) خزانة الأدب: جـ1 ص 87.

(2) الأدب العربى وتاريخه: هيوارث دن ص 122.

(3) تاريخ آداب اللغة العربية، جـ3 ص 3 ط الهلال.

(إن حمادا لما رأى زهد الناس بالشعر، والحقيقة أن الناس لم يكونوا راغبين في الشعر مثل رغبتهم في أيامه. ألم يكن الخلفاء يستقدمون حمادا هذا من العراق إلى الشام، ليسألوه عن بيت من قاله؟ أو فيم قيل؟

ونؤكد كلام زيدان بما نذكره من أخبار، وهي تدل على مدى حب الخلفاء للشعر واهتمامهم به.

فقد ذكر حماد الراوية قال: استدعاني الوليد بن يزيد، فقدمت عليه، فلما دخلت داره قال لي الخدم: أمير المؤمنين من خلف الستارة الحمراء، فسلمت بالخلافة، فقال لي: يا حماد؟ قلت: لبيك يا أمير المؤمنين قال: ثم ثاروا فلم أدر ما يعني. فقال ويحك يا حماد (ثم ثاروا).

فقلت في نفسي رواية أهل العراق لا يدري عما يسأل، ثم انتبهت فقلت:

ثم ثاروا إلى الصبوح يوما فقامت ... قينة في يمينها إبريق
قدمته على عقار كعين الـ ... ـديك صفى سلافها الراووق
ثم فض الختام عن صاحب الـ ... ـدن، وقامت لدى اليهودي سوق
فسباها منه أشم عزيز ... أريحي غذاه عيش رقيق[1]

فالوليد يود سماع شعر عدي بن الرقاع من حماد، فيختبره بهذه القرينة التي أظهرها له.

وفي مرة أخرى يقول له: لم سميت الراوية؟ وما بلغ من حفظك حتى استحققت هذا الاسم؟ فقال له: يا أمير المؤمنين، إن كلام العرب يجري على ثمانية وعشرين حرفا وأنا أنشدك على كل حرف منها مائة قصيدة فقال:

(1) الأغاني (الدار)، جـ7 ص 45.

إن هذا لحفظ، فهات، فاندفع ينشد حتى مل الوليد وأناب إحد خاصته حتى وفاه ما قال، فأحسن الوليد صلته وصرفه[1].

وقد بعث هشام فى استقدام حمـاد. فدخل عليه فقال له: أتدرى فيم بعثت إليك؟ فأجاب حماد: لا. فقال هشام: بعثت إليك لبيت من الشعر خطر ببالى لم أدر من قاله. فيقول حماد وما هو قال:

فـدعوا بالصـبوح يومـا فجـاءت قـينة فى يـمـيـنهـا إبـريق[2]

فقال حـماد: هذا يقوله عدى بن زيد فى قصـيدة له، فقال هشام أنشـدنيها فأنشده.

وبعد أن يسمع الشعر يطرب، ويقـول - أحسنت والله يا حماد، ويعطيه ما سأله وقطع حمـاد طريقه إلى دمشق فى اثنتى عشرة ليلة ليذكـر له صاحب البيت وسائر القصيدة[3].

وكل هذا يؤكد مكانة الشعر وسحره فى نفوس العرب خاصة خلفاء بنى أمية الأدباء.

مناقشة أصحاب الاتجاه الثانى:

من القدماء (أبو جعفر النحاس) المتوفى سنة 338هـ ينكر هذا الأديب تعليقها على الكعبة أشد الإنكار. فقد قال فى شرحه المعلقات بالنسخة الخطية الموجودة منه فى مكتبة برلين ما نصه (واختلفوا فـى جمع هذه القصائد السبع، وقيل إن العرب كان أكثرهم يجـتمع بعكاظ، ويتناشدون الأشعار... فإذا استحـسن الملك قصيدة قال: علقوها، وأثبتوها فى خزائنى، فأما قول من قال إنها علقت على الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة».

(1) الأغانى (الدار)، جـ6 ص 93.

(2) المرجع السابق: جـ6 ص 76

(3) تاريخ آداب العرب، جـ1 ص 408.

ويقـول: «إن حمـادا الرواية لما رأى زهد الناس فى الشـعر جـمع لهم هذه القصائد السبع، وقال هذه هى المشهورات، فسميت القصائد المشهورة. ويؤخذ من ذلك أن تسميتها بالمعلقات على فرض التسليم منه بقدم هذه التسمية يرجع إلى قول الملك علقوا لنا هذه، لا إلى أنها علقت على الكعبة»[1].

من المحدثين (حامد مصطفى):

لا يوافق على تعليـقهـا على الكعبـة ويرى أن تعليقـها يكون بحفـظها فى الرءوس أو الدفاتر عناية بها لنفاستها.

(مصطفى صادق الرافعى):

يسير الرافعى فى تيـار المخالفين، ويقول بعدم تعليقهـا على الكعبة ويحمل على (ابن السائب الكلبى المتوفى سنة 146هـ).

قال: أجمـعوا على تركه، واتهموه بالكذب والرفض وزيفـوا كلامه. وعنه أخذ (ابن هشـام الكلبى) صاحب الجـمهـرة، والكتب الكثيـرة فى أخبـار العرب وأحوالهـا ومناقبها، وأخـبار الأوائل والأمم البائدة والأحاديث والأسـماء ونموها، توفى سنة 204هـ وهو أول من افترى خبر كتابة القصائد السبع (المعلقات) وتعليقها على الكعبة وقد اتهمه العلماء كما اتهموا أباه بالرفض، وتركوا حديثه لذلك، ولما ظهر من كذبه.

ويقول (بلاشير)[2]:

ويظهر أن علـماء العراق فى القـرن الثالث للهـجرة - كانوا يـجهلون أصل التسمية والأسطورة التى رافقتـها، فلم يشر إليها ابن الكلبى ولا مؤرخو مكة، ولا

---

(1) تاريخ آداب اللغة العربية، جـ1 ص 91.

(2) تاريخ الأدب العربى: ص 155.

من ورد ذكره من الأعلام فـى كتاب الأغانى، وقد نذهب إلى أبـعد من ذلك فإن النحوى المصرى المتوفى سنة 1338هـ - 1950 يرفض الأسطورة تماما[1].

آراء المستشرقين:

نولدكه:

ذهب نولدكه الألمانى إلى أن مؤرخى العرب فى القـرون الوسطى يستعملون كلمة بمعنى العقد أى السمط عنوانا لكتبـهم، وهذا ما جرى للمعلقات التى سميت (بالسموط) وأنها سميت بذلك تشبيها لها بالقلائد التى تعلق فى النحور.

ليال[2]:

يقول ليـال: إن المعلقات مـشتقـة من العلق، وهو ما يضن به من الأشـياء والحلى والثياب، ومما يدعو إلى قبول هذا الرأى أن ابن رسته أحد جغرافيى العرب فى القرن الثالث للهجـرة أسمى كتابه (الأعلاق النفسية) فمـعنى المعلقات إذًا عقود من أحجار كريمة، تعلق، ويظهر لنا أن اشتقاق التسمية ارتكز على التباس لا يزال الناس يتداولونه منذ القرون الوسطى حتى يومنا هذا.

فون كريمر:

يذكر فـون كريمر أن الكلمة مـشتقة من علق أى كـتب، ويسوغ ذلك تنقل تلك القصائد عن طريق الرواية الشـفهية التى أعقبها التـدوين، غير أن هذا التعليل لا يتفق وعادة مؤلفى العرب المغرمين بالعناوين المجازية.

فإذا كان المستشرق المذكور يعتـمد على عبارة ابن النحاس التى وضعها على لسان أحـد ملوك العرب القدمـاء الذى كان إذا اسـتحسن قـصيدة قـال: «علقوها وأثبتـوها فى خزائنى»، فإنه وضع تـسمية مـكان أخرى. كما أن فـعل علق بمعنى دوَّن، استعمال متأخر، مقصور على أوساط النساخ، فهى تسمية أطلقها الأدباء.

---

(1) أخطأ (بلاشير) فى ذكر تاريخ ابن هشام والصحيح (المتوفى 761هـ/ 1360م).

(2) المرجع السابق نفس الصفحة.

هنجستنبرج:

قال هنجستنبـرج فى المقدمة الألمانية التى صدَّر بها مـعلقة امرئ القيس: إن هذه القصائد لا أساس لها من الصحة.

نيكلسون:

وأنكرها كذلك (نيكلسون) فى كتابة (تاريخ الأدب العربى).

إهلوارد[1]:

يذهب إهلوارد أن المعلقات مـعناها تعلق معنى البيت ببـيت يليه وليس هذا الرأى من الواقع فى شىء لأن هذا الاتجاه يتـمثل فى كل قصيـدة، فالبيت فى أى قصـيدة من القصـائد يرتبط بالأبيات التى قـبله، وكذا بالأبيات التـى بعده لتكون القصـيدة وحدة مـتماسكـة مترابطة. وعلى هذا يكون إطلاق هـذه التسمـية على المعلقات ليس من الواقع فى شىء.

ويلاحظ على الآراء السابقـة للمستـشرقين أنهـا مجرد وجـهات نظر، ولا تعتـمد على بحث دقيق، يعـتمد على الفـهم والذوق والخبرة والأصـالة بل قيلت لتكون فى مواجهة آراء الباحثين العرب التى هى أكثر دقة من آراء المستشرقين.

وينكر طه حسين هذه القصائد جملة، ويرى أنها منحولة ولا أساس لها فى الشعر الجاهلى. قال:

أما نحن فـمطئنون إلى مذهبنا، مـقتنعون بأن الشـعر الجاهلى أو كـثرة هذا الشعر الجاهلى لا تمثل شيـئا، ولا تدل على شىء إلا ما قدمنا من العبث والكذب والنحل[2].

---

(1) تاريخ الأدب العربى، ص 156.

(2) فى الأدب الجاهلى، ص 244.

وهذا الرأى جدير بالبحث الجاد، حتى نصل إلى الحقيقة من خلال تاريخ العرب، وليس بهذه السهولة نشك فى تراث أمتنا الذى شهد به الجميع، ونهدمه هكذا بجرة قلم.

يقول شارلس جيمس ليال[1]، وأنا أوافقه:

ومن الطبيعى أن يفترض المرء أن هذه القصائد اعتراها بعض التغيير فى أثناء التناقل: فقد تستبدل بعض الكلمات المترادفة بغيرها، وقد يؤدى عدم تثبت الذاكرة إلى إسقاط أبيات أو تغيير فى ترتيبها، أو وضع عبارات الراوى بدل العبارات التى نسيها، ومثل هذه الظواهر شائعة فى كل مكان.

غير أننا حين نفحص القصائد ذاتها نجد فيها من الشخصية الفردية ما يكفينا للاستدلال على أن القصائد فى معظمها، من نظم الشعراء المنسوبة إليهم، فالمعلقات السبع مثلا كلها قصائد ذات شخصية وخصائص واضحة، وتعرض لنا سبع شخصيات يتميز بعضها من بعض كل التميز.

ومن جموح الخيال أن نظن أن معظم القصائد المنسوبة لهم مصنوعة فى عصر متأخر، صنعها علماء عاشوا فى ظروف مغايرة تمام المغايرة، وفى حياة شديدة الاختلاف عن حياة الأعراب فى الصحراء العربية[2].

ويرجع عدم موافقة المنكرين لتعليق هذه القصائد إلى الأمور الآتية:

1 - أن تسمية هذه القصائد (بالمعلقات) حديثة مصنوعة فى عصر التدوين أو قبله بقليل.

2 - أن الكعبة حين هدمت وجدد بناؤها فى زمن الرسول ﷺ لم يذكر عن هذا التعليق شىء.

---

(1) مصادر الشعر الجاهلى: ناصر الأسد، ص 372.

(2) المرجع السابق نفس الصفحة.

3 - أن خبر تعليق هذه القصائد على الكعبة جاء مضطربا، فلم تذكر لنا الأخبار تفصيلا واضحا عن عددها وكيفية تعليقها، ولا من أمر بتعليقها، ولا من قام باختيارها، إلى غير ذلك من الأمور التى تحتاج إلى إيضاح.

4 - قداسة الكعبة عند العرب تجعلهم لا يدنسونها بمثل هذا الشعر وما فيه من فحش وفجور.

على أن مما يسقط شبهة القائلين بأن العرب كانوا يأنفون أن يضعوا فى أركان البيت الحرام شعر امرئ القيس، وتعاهر طرفة - أن عبد الله بن عباس كانت له مجالس فى مسجد رسول الله ﷺ يسمع فيها شعر ابن أبى ربيعة فى دبيبه وغزله، وما كان له مع إسلامه وقرابته من صاحب هذه الروضة المباركة أن يسمع بمثل ذلك فى هذا المكان لولا أن استجادة العرب للشعر لم تكن تتوقف على شرف معناه، كما يزعم أصحاب هذه الشبهة الواهية[1].

وقد مر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بحسان وهو ينشد الشعر فى مسجد رسول الله ﷺ فقال: أرغاء كرغاء البكر؟ فقال حسان: دعنى يا عمر، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد فى هذا المسجد من هو خير منك، فما يغير علىَّ ذلك. فقال عمر: صدقت[2].

هذا وإن لتعليقها بالكعبة نظير فى الأدب الإغريقى القديم، فإن القصيدة التى نظمها زعيم الشعر الغنائى (بندار) فى المدح قد كتبها الإغريق بالذهب على جدران معبد أثينا فى (لمنوس)[3].

---

(1) الأدب العربى وتاريخه: هيوارث دن، ص 123.

(2) العمدة جـ 1 ص 10 ط السعادة.

(3) الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى: محمد عبد المنعم خفاجى ص 274 ط المحمدية.

ومن هذا كله يتضح أن العرب عظموا شعرهم، واستودعوه مفاخرهم وأمجادهم فكان عنوان حضارتهم ودليل تقدمهم البيانى على مدى الأيام، ومن تراثهم الخالد هذه القصائد التى سميت بالمعلقات، وسنعرض لها بإيجاز.

أصحاب المعلقات

معلقة امرئ القيس[1]

تصور هذه المعلقة حياة البادية فى أجمل صورها، وأبرع مظاهرها. وقد بدأها بما عد من أروع المطالع فى الشعر العربى إلى جانب ألفاظها القوية، وتشبيهاتها المبتكرة، مع أبدع الغزل وأجمل الوصف، فبكى فيها على الأطلال، وذكر أيام لهوه وصباه فقال:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل　　بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها　　لما نسجها من جنوب وشمال

وقوفا بها صحبى على مطيهم　　يقولون: لا تهلك أسى وتجمل

وإن شفائى عبرة مهراقة　　فهل عند رسم دارس من معول؟

وانتقل بعد هذا إلى الغزل، وهذا الغرض استنفد الكثير من أبيات المعلقة، وغزله صريح مكشوف يتناول فيه كثيرا من معشوقاته، فيتحدث عن أم الحويرث والرباب وفاطمة وغيرها.

(1) هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر بن معاوية بن الحارث الأكبر، من قبيلة كندة من اليمن. وكانت تسكن غربى حضرموت، واتسع نفوذها فى عهد الحارث ابن عمرو بن حجر الذى اتصل بقباذ ملك الفرس فولاه الحيرة مكان اللخميين، وكان من نتيجة هذا أن بسط نفوذه على كثير من قبائل العرب، وفرق الحارث أبناءه على إمارة القبائل، فولى ابنه حجرا (أبا امرئ القيس) بنى أسد وابنه شرحبيل بكر بن وائل، وابنه معد يكرب قبيلة قيس وكنانة، وابنه سلمة قبيلة تغلب. وبعد مدة ارتفع نجم اللخميين فى الحيرة، وانتشر نفوذهم فيها، وقربهم ملك الفرس، فأوقعوا بأولاد الحارث، فقتل سلمة وشرحبيل، وتنكر بنو أسد لحجر، وامتنعوا عن دفع الأتاوة له إلى أن اغتالوه، ونهض امرؤ القيس ليأخذ بثأر أبيه واسترداد ملكه، ليحظى بشرف الملك وعلو الجاه وذيوع السلطان... إلخ.

كـدأبك من أم الحـويرث قـبلهـا وجـــارتهـــا أم الرباب بمـأسل

إذا قـامـتا تضـوع المسك منهـمـا نسيم الصبـا جاءت بريا القرنفل

وذكر قصتـه مع العذارى حنيما التقى بهن على الغدير، وقضى مـعهن وقتا جميلا، سجله حين قال:

ألا رب يوم لك مـنهن صـــالح ولاسـيـمـا يوم بدارة جـلجل

ويوم عـقـرت للعـذارى مطيـتى فـيا عـجبـا من رحلهـا المتحـمل

فظل العـذارى يرتمين بلحـمـهـا وشحم كـهداب الدمـقس المفتل

وذكر بعد هذا كله ما كان يفعله مع عنيزة وفاطمة، وبيضة الخدر (كناية عن المرأة المخدرة) وكـيف وصل إليهـا، ولم يبال بما كان عليـها من حـراس، ثم أخذ يصف جسمها وموضع القلادة من صدرها، وكيف خرج بها؟ إلخ.

وبيـضـة خـدر لا يرام خـبـاؤها تمتـعت من لهـو بها غـيـر معـجل

تجاوزت أحـراسا إلـيهـا ومعـشرا على حـراسـا لو يسـرون مـقـتلى

فـجئت وقـد نضت لـنوم ثـيـابهـا لدى السـتـر إلا لبـسـة المتـفـضل

فـقـالـت يمـين الله مـالك حـيلة ومـا أن أرى عنك الغـواية تنجلى

خـرجت بهـا أمـشى تجـر وراءنا علـى أثرينا ذيـل مـــرط مـــرحل

فلمـا أجزنا سـاحة الحى وانتـحى بنا بطن خـبث ذى قـفاف عـقنقل

هصرت بفـودى رأسها فتـمايلت على هضـيم الكـشح ريا المخلخل

مـهفـهـفة بيـضـاء غـير مـفاضـة ترائبـهـا مـصـقـولة كـالسـجنجل

تصـد وتبـدى عن أسـيل وتتـقى بناظـرة من وحش وجـدة مـطفل

ويضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنـطق عن تفضل

وقد استمر فى غزله وما كان له من مواقف مع من ذكرهن إلى البيت الثانى والأربعين. ثم انتقل بعده إلى الوصف فوصف الليل الذى يكابده، والفرس الذى يركبه، ووصف البرق والمطر والطيور وغير ذلك.

وقد امتاز بجودة الوصف، وبراعة التشبيه، وقوة التصوير مما عد به أقوى الشعراء وأحسنهم فى هذا الاتجاه.

قال فى وصف الليل:

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... على بأنواع الهموم ليبتلى

فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازا وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل

ثم قال فى وصف فرسه:

مكر مفر مقبل مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

له أيطلا ظبى وساقا نعامة ... وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

وانتقل إلى وصف البرق قال:

أصاح ترى برقا أريك وميضه ... كلمع اليدين فى حبى مكلل

يضىء سناه أو مصابيح راهب ... أهان السليط بالذبال المفتل

ثم وصف المطر بقوله:

كأن ثبيرا فى عرانين وبله ... كبير أناس فى بجاد مزمل

كأن مكاكى الجواء غدية ... صبحن سلافا من رحيق مفلفل

كأن السباع فيه غرقى عشية ... بأرجائه القصوى أنابيش عنصل

والناظر فى المعلقة يرى أن امرأ القيس انتقل فيها من غرض إلى غرض دون تمهيد، فوقف على الأطلال وبكى الديار، ثم انتقل إلى الغزل وهو كثير فى معلقته

صور فيه ما كان يفعله مع عنيزة، وفاطمة، والرباب، وأم الحويرث، وبيضة الخدر ولكل منهن قصة ذكرها فى جرأة وإصرار. وفى الوصف نراه يمعن، ويغوص، ويستقى ما يصفه فى قوة وبراعة وإتقان. وهو فنان ماهر فى عرض لوحاته الرائعة.

وفى المعلقة ألفاظ مبتكرة، ولعل ذلك راجع إلى تنقله وأسفاره الكثيرة.

وذلك حينما شبه إشراق حبيبته بسراج الراهب، وشبه ترائبها وهى موضع القلادة منها بالسجنجل وهى كلمة رومية معناها المرأة قال:

تضىء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتل
مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل

وشك النقاد فى بعض أبيات المعلقة، لما فيها من تناقض غريب، لأن امرأ القيس يصور نفسه فيها بأنه يحمل القربة على ظهره، ويعاشر الحيوانات المفترسة ويستأنس بها، ويقطع الأودية المقفرة الموحشة بدون خوف. وكل هذا ينافى ما ذكره فى المعلقة من ترف وحب وكلف بالنساء. فكيف بعد هذا يقول؟

وقربة أقوام جعلت عصامها على كاهل منى ذلول مرحل
وواد كجوف العير قفر قطعته به الذئب يعوى كالخليع المعيل
فقلت له لما عوى: إن شأننا قليل الغنى إن كنت لما تمول
كلانا إذا ما نال شيئا أفاته ومن يحترث حرثى وحرثك يهزل

وتشبه هذه الصورة صورة الشنفرى فى لاميته التى يصف نفسه فيها بالشريد المغامر، واللص الفاتك، الذى يبطش بالآمنين ويقتل ويشرد ويسرع الكر والفر فى فى ظلال الليل وشدة البرد وسط عواء الذئاب ونباح الكلاب.

قال فى لاميته[1]:

وليلة نحس يصطلى القوس ربها وأقطعه اللاتى بها يتنبل[2]

دعست على غطش وبغش وصحبتى سعار وأرزيز ووجر وأفكل[3]

فأيمت نسوانا وأيتمت الدة وعدت كما أبدأت والليل أليل[4]

فأصبح عنى بالغميصاء جالسا فريقان مسئول وآخر يسأل[5]

فقالوا لقد هرت بليل كلابنا فقلنا أذئب عس أم عس فرعل[6]

فلم يك إلا نبأة ثم هومت فقلنا قطاة ربع أم ربع أجدل[7]

وعلى كلٍّ فالأبيات السابقة من معلقة امرئ القيس هى صورة حية لحياة الصعاليك: كتأبط شرا، والشنفرى، وعروة بن الورد، وليست له لأنها لا تدل على حياته الزاخرة بالترف والنعيم والملك والجاه والسلطان.

---

(1) خزانة الأدب: م4 ص 542 ط الأميرية

(2) النحس: البرد ولهذا يصطلى بالقوس والسهام صاحبها لشدة البرد.

(3) دعست: دفعت دفعا بإسراع وعجلة. الغطش: الظلمة. البغش: المطر الخفيف. السعار: بالضم حر يجده الإنسان فى جوفه من شدة الجوع والبرد. الأرزيز، بالكسر: صوت أحشائه من الشدة. الوجر: الخوف: الأفكل الرعدة.

(4) أيمت نسوانا: أى جعلتهن أيامى بقتل أزواجهن. أيتمت الدة: أى جعلت الأولاد أيتاما بقتل آبائهم.

(5) الغميصاء بضم العين: موضع فى ديار بنى جذيمة من بنى كنانة.

(6) هرير الكلب: نباحه من قلة صبره على البرد. العس: الطواف بالليل عس الكلب إذا طاف. الفرعل: بضمتى الفاء والعين ولد الضبع.

(7) النبأة: الصوت. الروع: الإفزاع. الأجدل: الصقر.

معلقة زهير

هو زهير بن أبى سلمى المتوفى سنة 615م من قبيلة مزينة إحدى قبائل مضر، وقد عاش بين قومه وعشيرته فى بلاد غطفان بالحاجز من نجد، فى بيت ارتفع فيه نجم الشعر، فأصبح من أشهر بيوتات العرب، فقد كان أبوه شاعرا، وكان ابناه: كعب وبجير شاعرين، وحفيده (عقبة بن كعب) شاعرا ويقال له المضرب[1]. وكان ابن عقبة هذا، ويسمى العوام، شاعرا، وكانت أختاه سلمى والخنساء شاعرتين.

يقول - كرنكو - مشيدا برفعة أسرة زهير وأصالة الشعر فيهم: إن لنا فى زهير وأسرته لمثلا بليغا لفن الشعر الموروث منذ أجيال كثيرة[2].

ويقول الأخطل: أشعر الناس بيتا آل أبى سلمى[3].

ومما لا شك فيه أن زهيرا حاز إعجاب النقاد والأدباء، لما امتاز به شعره من سهولة وعذوبة وحكمة ومثل، فاق بها الشعراء.

وقد اشتهر بأنه من الشعراء المنقحين لشعرهم والمهذبين له، فلا يخرج شعره إلا على درجة عالية من الجودة والإتقان.

وكان لزهير أخلاق عالية ونفس كبيرة، مع سعة صدر وحلم فرفع القوم منزلته وجعلوه سيدا، وكثر ماله، واتسعت ثروته، وكان مع ذلك عريقا فى الشاعرية[4].

---

(1) ديوان كعب بن زهير: ط (الدار) المقدمة.

(2) دائرة المعارف الإسلامية: م4 ص 23.

(3) الأغانى (الدار) جـ8 ص 283.

(4) تاريخ آداب اللغة العربية: جـ1 ص 98.

وبلغ من إعجاب عمر بن الخطاب به أن قال يوما لابن عباس: أنشدنى لأشعر شعرائكم، فقال: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير، كان لا يعاظل بين الكلام ولا يتتبع حوشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه[1].

والناظر فى معلقته التى نذكرها يرى فيها من صدق العرض وقوة التصوير ما بلغ به الغاية، فهو لا يقنع بالمعانى السطحية، بل كان كثير العمق فى شعره وتفكيره، وهو يعرض شعره بتجربته الخاصة الفريدة وأسلوبه القوى، ويبث فيه حكمه الرائعة التى بز بها الشعراء.

وقد بدأ معلقته بالغزل، فوقف على الأطلال الدارسة التى عفى عليها الزمن، فغير معالمها، فأصبحت كخطوط الوشم الدقيقة فلا تعرف إلا بتأمل عميق، ويعلن هلعه وحزنه من جراء ما أصاب هذه الديار - مرتع هواه وحبه وصباه.

ويصور بخياله الهدوء الذى انتاب هذه الديار بعد ذهاب أهلها، فأصبحت مكانا خصبا للأبقار والظباء، وقد خلت لنفسها - هذه الحيوانات - لا يروعها أى شىء، ولا يقيد حريتها أحد، فهى ترتع فى أمان.

لقد رجع إليها، ولكنه لم يعرفها إلا بعد تأمل وإمعان، وما أن عرفها حتى أسرع يبثها نجواه وحبه ورضاه، متمنيًا لها السلامة والأمن والرخاء.

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم ... بحومانه الدراج فالمتثلم
ديار لها بالرقتين كأنها ... مراجيع وشم فى نواشر معصم
بها العين والأرءام يمشين خلفة ... وأطلاؤها ينهض من كل مجثم
وقفت بها من بعد عشرين حجة ... فلأيا عرفت الدار بعد توهم
فلما عرفت الديار قلت لربعها ... ألا عم صباحا أيها الربع واسلم

(1) معانى الشعر: ص 157، وراجع طبقات الشعراء ص 20 ط صبيح.

ووصف الظعائن بقوله:

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن تحملن بالعلياء من فوق جرثم[1]

علون بأنماط عتاق وكلة وراد حواشيها مشاكهة الدم[2]

بكرن بكورا واستحرن بسحرة فهن لوادى الرس كاليد للفم[3]

وفيهن ملهى لطيف ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسم[4]

وبعد هذا الغزل الذى استنفد خمسة عشر بيتا من معلقته فى أم أوفى زوجته خلص إلى هدفه الأسمى وسببه الأوحد من معلقته، وهو يمدح عظيمى غطفان الحارث بن عوف وهرم بن سنان اللذين أصلحا بين عبس وذبيان وتحملا ديات القتلى من الفريقين رغبة منهما فى حقن الدماء وإيثار السلم بدلا من الحرب، وما تجره من ويلات ومصائب. فقال يمدحهما:

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما تبزل ما بين العشيرة بالدم[5]

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم[6]

(1) الظعائن: النساء فى الهوادج. جرثم: ماء. تحملن: رحلن. العلياء: مكان.

(2) الأنماط: ما يبسط من صنوف الثياب. العتاق: الكريهة. الكلة: الستر الرقيق. الوراد: جمع ورد وهو الأحمر. مشاكهة: مشابهة.

(3) الرس: ماء ونخل لبنى أسد، والرسيس حذاءه ومعنى كاليد للفم: أى لا يجاوزن هذا الوادى أى لا يخطئنه كما لا يجاوز اليد الفم.

(4) ملهى: لهو، وهو فى موضع رفع بالابتداء. اللطيف: المتلطف الذى ليس معه جفاء. أنيق: بمعنى مونق أى معجب، المتوسم: الناظر بتفرس.

(5) غيظ بن مرة: حى من ذبيان. تبزل: تشقق.

(6) السحيل: حبل من خيط واحد لا يضم إليه آخر. المبرم: الحبل الذى يتكون من خيطين ليصير حبلا واحدا. المراد على كل حال من سهولة الأمر.

تداركتما عبسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم[1]

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا بمال ومعروف من القول نسلم

فأصبحتما منها على خير موطن بعيدين فيها من عقوق ومأثم

ثم صور الحرب تصويرا دقيقا فيه صدق العرض وبراعة الشاعرية ودقة الوصف فتارة يشبهها بالرحى التى تطحن الحب طحنًا، وتارة بالأرض الخصبة التى تنتج الغلة الوفيرة لأهلها، وتارة أخرى بالناقة التى تلد أولادًا شؤمًا يجلبون لأهلهم العار والدمار.

وكلها أوصاف تثير الفزع والرعب وتضع أيديهم على معالم الفناء الذى ينتظر من هذه الحرب، التى أتت على سادتهم وأشرافهم، وأكلت الأخضر واليابس ولم تبق على شيء.

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم[2]

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا أضريتموها، فتضرم

فتعرككم عرك الرحى بثقالها وتلقح كشافا، ثم تحمل فتتئم[3]

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم[4]

فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم[5]

---

(1) منشم: امرأة من خزاعة كانت تبيع العطر، فتحالف قوم فغمسوا أيديهم فى عطرها على أن يقاتلوا، فقتلوا جميعا، فتطير العرب بعطرها.

(2) المرجم: الذى يرجم فيه بالظنون أى يحكم فيه بها.

(3) تعرككم: تطحنكم. الثفال: الجلدة توضع تحت الرحى، ليقع عليها الطحين - اللقاح: حمل الولد. الكشاف: تحمل فى السنة مرتين: تتئم: تلد توأمين.

(4) أحمر عاد: أحمر ثمود وهو عاقر الناقة واسمه كما يزعمون قدار بن سالف.

(5) القفيز: مكيال معروف عند العرب.

ويختم زهير معلقته بحكمه البارعة التى تدل على عقله الصافى فى فهم النفوس وأحوال الحياة.

ومن يعص أطراف الزجاج فإنه مطيع العوالى ركبت كل لهذم[1]

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم

ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم، ومن لا يظلم الناس يظلم[2]

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب، ويوطأ بمنسم

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره، ومن لا يتق الشتم يشتم

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وأعلم ما فى اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عم[3]

وبعد فهذه معلقة زهير وقد وضح أسلوبه فيها فلا غريب فى ألفاظها، ولا التواء فى فهم معانيها، ولا تكلف فى عباراتها، ونظمها سهل غير متكلف، هذبته عاطفة زهير التى بعدت كل البعد عن الغرابة والتعقيد.

---

(1) الزجاج: جمع زج وهو أسفل الرمح - العوالى: جمع عالية وهى أعلى الرمح. اللهذم: الحاد. وهذا تمثيل أى من لا يقبل الأمر الصغير يضطره إلى أن يقبل الأمر الكبير.

(2) يذد: يطرد ويدفع والمعنى من لا يمنع عن عشيرته يذل.

(3) أى أعلم ما مضى فى أمس، وما أنا فيه اليوم لأنه شىء قد رأيته، فأما ما فى غد فلا علم لى به لأنى لم أره.

طرفة بن العبد

هو طـرفة بن العـبد بن سـفيان بن سعد بن مالك بن ضبـيعة بن قيس بن ثعلبة[1]، وينهى نسبه إلى بن وائل من ربيعه.

وقد نشـأ طرفة يتـيمًـا، وأهمل أعمامـه تربيتـه، فلم يوجهـوه نحو الحـياة السليمة، فأمسى مـتلافا مقامرا، وأنفق جميع ما يـملك فى شرب الخمر والعربدة والفسق والفجور وضاقت به السبل، فقصد ملك الحيرة عمرو بن هند، فذهب إليه مع خاله المتلمس، طمعـا فى نوال صلاته وعطاياه، وعاشا زمنا فى صـحبة الملك وأخيه قابوس، ولكن الحياة تقلبت بطرفة وخاله، وتحولت حالهما إلى بؤس وشقاء بعد أن غضب عليهما الملك عمرو بن هند من جراء هجاء طرفة له وأخيه.

وأراد عمرو بن هـند أن يتخلص منهما فـأرسلهما إلى عامله على الـبحرين ومع كل منهما خطابا فيه الأمر بقتله. ولم يستطع طرفة أن يقرأ ما فى كتابه لجهله وأميته. أما خاله فقد التمس من يقرأ له كتابه، فوجد فيه الأمر بقتله، ونصح طرفة بالرجوع ولكنه لم يرض، وما أن وصل إلى هناك حتى قتله عامل عمرو بن هند، وهو لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره.

ويمتاز شعر طرفة بالصدق، والبعد عن الغلو. وقد صور فيه بيئته الحقة التى كان يعيشها بدون إسراف.

وسئل لـبيد من أشـعر الناس؟ قـال: الملك الضليل، قيل: ثـم من؟ قال: الشاب القـتيل. وهو من المقلين فى الشعر، قـال صاحب العمدة: وطرفـة أفضل الناس واحدة عند العلماء وهى المعلقة، وله سواها يسـير، لأنه قتل صغيرا. قالت أخته ترثيه[2]:

---

(1) العمدة: جـ1 ص 60.

(2) المرجع السابق: جـ 1 ص 65.

عـددنا له سـتـا وعـشـريـن حـجـة فلما توفـاها استوى سـيدا ضخـما

فـــجـــعنا بـه لما رجـــونا إيـابه على خير حال لا وليدا ولا قحما[1]

وقد بدأها بذكـر الأطلال والديار على عادة الشـعراء قبـله فى هذا الاتجاه، قال:

لخـولـة أطلال ببـــرقـة ثهـــمـد تلوح كـبـاقى الوشم فى ظاهر اليـد

وقـوفـا بهـا صـحـبى عـلى مطيـهم يقـــولون: لا تهـلك أسى وتجـلد

كـــأن حـــدوج المالكيـــة غـــدوة خـلايا سـفـين بالنواصف من دد[2]

عـــدوليـــة أو من ســـفـين بـن يامن يجـور بها المـلاح طورا ويهتـدى[3]

يشق حـبـاب الماء حـيـزومـهـا بهـا كـمـا قسم التـرب المفـايل باليـد[4]

وبعد هذا انتـقل طرفة إلى وصف ناقته وأسـهب فى هذا وأبدع، وأجاد إلى حد بعيد. فقال:

وإنى لأمـضى الهم عند احـتـضـاره بعـوجاء مـرقـال تروح وتغتـدى[5]

---

(1) العمدة: جـ1 ص 65.

(2) الحدوج: جـمع حدج، وهو مركب من مـراكب النساء. المالكية: منسـوبة إلى مالك بن سعد بن ضبيـعة. الخلايا: جمع خلية، وهى السفينة العظيمـة، النواصف: جمع ناصفة وهى الرحبة الواسعة تكون فى الوادى. دد: موضع

(3) عدوليـة: نسبة إلى عدولى، قـرية بالبحرين، كان أهلـها يصنعون السفن العظيـمة. ابن يامن: ملاح من هجر. يجور: يميل.

(4) حباب الماء: طرائقه. الحيزوم: الصدر أى يشق حيزومها حباب الماء. المفايل: الذى يلعب لعبة الأفـيال أو المفايلة: وهى تراب يكومه الصـبيان ويخبئـونه فيه خبيـئا ثم يشق المفايل التراب قسمين ويبين فى أيهما الخبىء فإن عرف فاز وإلا غلب.

(5) العوجاء: الضامرة الملتصقة البطن فتكون معوجة الأسفل. المرقال: السريعة السير.

أمـون كـألواح الأران نسـأتهـا على لاحب كـأنه ظهـر بـرجـد[1]

لهـا فخـذان أكمل الـنحض فيـهمـا كـأنـهـمـا بابـا منيـف ممرد[2]

لهـا مـرفـقـان أفـتـلان كـأنهـا تمر بـسلمى دالـج مـتـشـدد[3]

صـهـابيـة العـثـنون مـوجـدة القـرا بعـيـدة وخد الرجل مـوارة اليـد[4]

وبعد أن وصف ناقته أخذ يفتخر بنفسه، ويظهر فتوته وشجاعته ومدى فسقه وعربدته ومعـاقرته للخمر ومن خلال هذا يتـحدث عن فروسيته ومـا يلازمها من شيم وإباء.

إذا القـوم قالوا من فـتى؟ خلت أننى عنـيت فـلم أكـسل، ولـم أتبـلد

ولست بحـلال التـلاع مـخـافـة ولكن مـتى يسترفـد القوم أرفـد[5]

فـإن تبـغنى فى حلـقـة القـوم تلقنى وإن تقتنصنى فى الحوانيت تصطد[6]

---

(1) أمون: يؤمن عـثارها. الأران: التابوت العظيم. نسـأتها: ضربتـها بالمنسأة وهى العـصا. اللاحب: الطريق الواضح. البرجد: كساء مخطط.

(2) أكمل: أتم. النحض: اللحم. أناف: أشرف. الممرد: المطول.

(3) الأفـتـلان: المتباينان. السلم: الدلو لهـا عروة واحدة. الدالج: الذى يمـشى بين الحوض والبئر. يقول هما مفتولان كانهما سلمان بيدى دال، فهو يجافيهما عن ثيابه.

(4) الصهـبة: هى بيـاض يخالطه حـمرة. العـثنون: ما تحت لحيـتهـا من الشعـر. الموجدة: المحكمة. الوخد: ضـرب من السير السريع. موارة اليـد: أى أن كتفيها تتـبعان يدها فى سهولة. مار يمور إذا دار.

(5) التلاع: جمع تلعة وهى مجارى المياه من رءوس الجبال إلى الأودية. استرفد: طلب الرفد وهو العطاء.

(6) فى حلقة القوم، حيث الرأى والمشورة، الحانوت بيت الخمار، والحوانيت: بيوت الخمارين والحوانيت أيضا الخمارون.

متى تأتنى أصبحك كأسا روية وإن كنت عنها غانيا فأغن وازدد[1]

ندامای بيض كالنجوم وقينه تروح علينا بين برد ومجسد[2]

رحيب قطاب الجيب منها رقيقة بحس الندامى بضة المتجرد[3]

إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا على رسلها مطروقة لم تشدد[4]

وما زال تشرابى الخمور ولذتى وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى[5]

ألا أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد[6]

ألا أيهذا اللائمى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى[7]

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى فدعنى أبادرها بما ملكت يدى[8]

أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوى فى البطالة مفسد[9]

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد[10]

---

(1) الصبوح: شرب الغداة.

(2) الندامى: الأصحاب. القينة: الأمة. المجسد: الثوب المصبوغ بالزعفران.

(3) قطاب الجيب: مجتمع الجيب. البضة: البيضاء الرخصة.

(4) أسمعينا: غنينا. مطروقة: ساكنة الطرف. لم تشدد: لم تجتهد.

(5) الطارف: ما استحدثه الرجل واكتسبه. التالد: التليد ما ورثه عن آبائه.

(6) تحامتنى: تركتنى. المعبد: الأجرب.

(7) المعنى: ألا أيها اللائمى فى حضور الحرب لئلا أقتل وفى أن أنفق مالى لئلا أفتقر ما أنت مخلدى إن قبلت منك فدعنى أنفق مالى ولا أخلفه.

(8) المعنى. اتركنى وما أنا فيه من لذة حتى يأتينى الموت.

(9) النحام: البخيل. الغوى: الذى يتبع هواه ولذاته.

(10) يعتام: يختار العقيلة فى الأصل المرأة الكريمة النفيسة ثم استعمل فى الكريم من كل شىء من الذوات والمعانى. الفاحش: البخيل.

أرى الدهـر ناقـــصـــا كـل ليـلة ومـا تـنقص الأيام والـدهر ينفـــد[1]

سـتبـدى لك الأيام مـا كنت جـاهلا ويأتـيك بالأخـــبـــار من لـم تزود[2]

(1) أراد أهل الدهر.

(2) ستبدى: أى ستظهر لك الأيام ما لم تكن تعلمه.

معلقة عنترة العبسى

حياته:

هو عنترة بن شداد، من قبيلة عبس وهى إحدى قبائل مضر، وقد سكن نجدا مع قومه، وهو أحد أغربة العرب، وهم ثلاثة: عنترة، وخفاف بن عمير، والسليك بن السلكة.

وعنترة من أشجع العرب، وأعلاهم همة، وأعزهم نفسا. ضرب به الأمثال واتخذ كأنموذج الفتى الكامل المروءة والشجاعة، فلم يزل صيته يطير فى كل الأنحاء لما ألف فيه من القصص والروايات العجيبة المتداولة بين العوالم حتى الآن. والمعروفة بسيرة عنترة[1].

وقد اشترك فى حرب داحس والغبراء، وقتل عنترة ضمضم أبو الحصين المرى والحارث بن بدر، وفى ذلك يقول:

ولقد خشيت بأن أموت ولم تكن ... للحرب دائرة على ابنى ضمضم

الشاتمى عرضى ولم أشتمهما ... والناذرين إذا لم ألقهما دمى

إن يفعلا فلقد تركت أباهما ... جزر السباع وكل نسر قشعم[2]

وقد أحب بنت عمه (عبلة) فى شبابه، ولكن عمه رفض زواجها منه، لأنه كان عبدا فى ذلك الوقت، فهو من (زبيبة) وهى حبشية سوداء، سباها أبوه فى إحدى معاركه، فأولدها عنترة، ومن هنا ظل عبدا لأنه كان من عادة العرب ألا يعطوا الحرية لأولاد الإماء. إلى أن حصل عنترة على حريته من خلال أمجاده

(1) تاريخ الآداب العربية: ص 76.

(2) شرح القصائد العشر: ص 215.

وأعماله البطولية وفروسيته النادرة، فألحقه أبوه بنفسه، واعترف ببنوته وزوجه عبلة، لأنه أصبح فى عداد الأحرار.

ومعلقة عنترة مزيج من القوة والشجاعة والمروءة والنجدة، وفيها يظهر كرمه، وطبعه العربى الأصيل، كما تظهر بسالته ورجولته فى القتال.

وقد أوضح فى بدايتها أن الشعراء قد أخذوا عليه أقطار القول، فلم يتركوا له شيئا، ثم تحدث عن عبلة حبيبته، وأفاض فى هذا، وكيف لا؟ وقد استولت على عقله، وأصبحت أمله الكبير.

هل غادر الشعراء من متردم ... أم هل عرفت الدار بعد توهم[1]

يا دار عبلة بالجواء تكلمى ... وعمى صباحا دار عبلة واسلمى[2]

وتحل عبلة بالجواء وأهلنا ... بالحزن فالصمان فالمتثلم[3]

حييت من طلل تقادم عهده ... أقوى، وأقفر بعد أم الهيثم[4]

ولقد نزلت فلا تظنى غيره ... منى بمنزلة المحب المكرم

كيف المزار وقد تربع أهلها ... بعنيزتين، وأهلنا بالغيلم[5]

ثم خلع على حبيبته أوصافا شتى، تدل على مدى تعلقه بها وحبه لها، فهى كالروضة الأنف الجميلة، وثغرها فى عذوبته فارة مسك، ولها رائحة ذكية، إلى آخر هذه الأوصاف الشائعة عندهم.

---

(1) المتردم: من قولك ردمت الشىء إذا أصلحته.

(2) الجواء: موضع.

(3) الحزن: الصمان، المتثلم: أماكن.

(4) أقوى، وأقفر: خلا.

(5) تربع القوم: نزلوا فى الربيع: عنيزتان، الغيلم: موضعان.

إذ تستبيك بذى غروب واضح عذب مقبله لذيذ المطعم[1]

أو روضة أنفا تضمن نبتها غيث قليل الدمن ليس بمعلم[2]

جادت عليه كل بكر حرة فتركن كل قرارة كالدرهم[3]

سحا وتسكابا فكل عشية يجرى عليها الماء لم يتصرم[4]

وخلا الذباب بها فليس ببارح غردا كفعل الشارب المترنم[5]

هزجا يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجذم[6]

تمسى وتصبح فوق ظهر حشية وأبيت فوق سراة أدهم ملجم[7]

وحشيتى سرج على عبل الشوى نهد مراكله نبيل المجزم[8]

ثم أخذ يصف لها قوته وشهامته وبسالته فى المعارك فهو لا يرضى الضيم ولا يرهب الأعداء.

أثنى على بما علمت فإنى سمح مخالقتى إذا لم أظلم

---

(1) تستبيك: تذهب بعقلك. غروب الأسنان: حدها. الواضح: الأبيض.

(2) الأنف: التام من كل شيء. الغيث: المطر. المعلم: العلم والعلامة واحد.

(3) البكر: السحابة. الحرة: البيضاء. القرارة: الموضع المطمئن من الأرض.

(4) السح: الصب. لم يتصرم: لم ينقطع.

(5) غرد: طرب. المترنم: الذى يرجع الصوت بينه وبين نفسه.

(6) الهزج: السريع الصوت. الأجذم: المقطوع اليد.

(7) الحشية: الفرش المحشو. سراة كل شيء: أعلاه ووسطه. الملجم: موضع اللجام. الأدهم: الذى يضرب لونه إلى السواد.

(8) حشيته: فراشه. العبل: الغليظ. الشوى: الأطراف. النهد: المشرف الضخم. المراكل: جمع مركل وهو حيث تبلغ رجل الرجل من الدابة. المحزم: موضع الحزام.

فـإذا ظـلمت فـإن ظلمى بـاسل ... مـر مـذاقـتـه كطعم العـلقم[1]

ولقـد شـربت مـن المدامـة بعـدمـا ... ركـد الهواجـر بالمشـوف المعلم[2]

بزجـاجـة صـفـراء ذات أسـرة ... قرنت بأزهر فـى الشمال مـفدم[3]

فـإذا شـربـت فـإننى مسـتـهلك ... مـالى، وعـرضى وافـر لم يكلم[4]

وإذا صحوت فمـا أقصر عن ندى ... وكما علمت شـمائلى وتكرمى[5]

وحليـل غـانيـة تركـت مـجـدلا ... تمكو فـريصـته كـشـدق الأعلم[6]

هلا سـألت الخـيل يا ابنة مـالك ... إن كنـت جـاهلة بما لـم تعلـمى

يخـبـرك من شـهد الوقـيـعـة أننى ... أغـشى الوغى وأعف عند المغنم[7]

ومـدجج كـره الكمـاء نـزالة ... لا ممعن هـربا ولا مـسـتـسلم[8]

جـادب يداى له بعـاجل طعـنة ... بمثـقف صـدق الكعـوب مقـوم[9]

---

(1) العلقم: الحنظل.

(2) ركد: سكن. المشوف: المجلو. المعلم: المعلم.

(3) ذات أسرة: أى ذات طرائق وخطوط. أزهر: أى إبـريق أبيض. فى الشمال: أى شـمال الكأس أو الساقى. الفدام: المصفاة.

(4) العرض: موضع المدح والذم من الرجل. لم يكلم: لم يجرح.

(5) الندى: السخاء. الشمائل: الخلق.

(6) الحليل: الزوج. الغانية هى التـى استغنت بحسنها عن ألوان الزينة وقـيل الشابة الحسناء. تمكو: تصـفر. الفـريصـة: الموضع الذى يرعد مـن الدابة والإنسان إذا خـاف. الأعلم: الجمل المشقوق الشفة العليا.

(7) الوغى: أصوات أهل الحرب، ثم استعير للحرب.

(8) المدجج: الذى توارى بالسلاح.

(9) المثقف: المصلح المقوم.

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

فتركته جزر السباع ينشنه ما بين قلة رأسه والمعصم[1]

وانظر كيف تكون ملاقاته للأعداء؟ وكيف يفد عليهم بفرسه الأدهم؟ القوى الذى اشتكى له من كثرة ما وقع عليه من طعنات فى القتال، فهو يقتحم به حصار الموت، ولا يلوى على شىء.

فعنترة بهذا فارس مغوار، واسمه فى معامع القتال يتردد على ألسنة الأبطال، وظله لا يغيب عن حومات الوغى وهو على استعداد دائم للقتال والنزال.

لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذامرون كررت غير مذمم[2]

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر فى لبان الأدهم[3]

مازلت أرميهم بثغرة وجهه ولبانه حتى تسربل بالدم[4]

فازور من وقع القنا بلبانه وشكى إلى بعبرة وتحمحم[5]

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمى[6]

---

(1) الجزرة: الشاة والناقة تذبح وتنحر. ينشنه: يتناوله بالاكل. المعصم: موضع السوار من اليد. قلة كل شىء: أعلاه.

(2) يتذامرون: أى يحض بعضهم بعضا على القتال.

(3) الأشطان: جمع شطن وهو حبل البئر. اللبان: الصدر. الأدهم: فرسه.

(4) الثغرة: الثقبة فى أعلى النحر. تسربل: صار بمنزلة السربال.

(5) ازور: مال. التحمحم: صوت مقطع ليس بالصهيل.

(6) المحاورة: المراجعة.

والخـيل تقـتـحم الخـبـار عـوابسًـا

مـا بـين شـيظمـة وأجـرد شـيظم[1]

ولقـد شـفى نفـسى وأذهب سـقـمـهـا

قـيل الفـوارس ويك عـنتـرة أقـدمى

وختم المعلقـة بالرد على ابنى ضمضم وكان عنتـرة قتل أباهما وجعلـه نهبا للأسود والطيور[2].

(1) الاقـتحـام: الدخول فى الشـىء بسرعـة. الخبـار: الأرض اللينة. العـوابس: الكوالح. الشيظم: الطويل. الأجرد: القصير الشعر.

(2) ذكرت الأبيات سابقا فى ترجمته.

معلقة لبيد

لبيد من الشعراء المخضرمين، الذين عاشوا فى الجاهلية والإسلام[1].

وكان شريفا فى قومه، صاحب مكانة وفضل كبير، وهو من أكرم العرب وأجودهم، وله فى ذلك مواقف مشهورة.

ومعظم شعر لبيد قاله فى الجاهلية، فظهر فيه متانة الأسلوب، وقوة الديباجة وفخامة اللفظ، وروعة الأداء.

وسئل لبيد: من أشعر الناس؟ قال: الملك الضليل، قيل: ثم من؟ قال: الشاب القتيل، قيل: ثم من؟ قال: الشيخ أبو عقيل يعنى نفسه[2].

وقد أدرك الإسلام وأسلم، ولكن شعره فى الإسلام قليل، ويدلنا على ذلك ما رواه ابن سلام قال: كتب عمر إلى عامله أن أرسل (لبيد) و(الأغلب) وما أحدثا من الشعر فى الإسلام، فقال الأغلب:

أرجزًا سألت أم قصيدا ... فقد سألت هينا موجودا

وقال لبيد: قد أبدلنى الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران، فزاد عمر فى عطائه، فبلغ به ألفين[3].

ونسب لبيد يرجع إلى مضر، وشعر مضر يميل إلى متانة الأسلوب، وقوة الأداء، وفخامة الألفاظ. وعلى هذا جاء شعر لبيد قويا فخم الأداء.

---

(1) العمدة: جـ 1 ص 72.

(2) المرجع السابق: جـ 1 ص 60.

(3) طبقات فحول الشعراء: ص 113.

قال فى معلقته[1]:

عفت الديار محلها فمقامها ... بمنى تأبد غولها فرجامها[2]

فمدافع الريان عرى رسمها ... خلقا، كما ضمن الوحى سلامها[3]

دمن تجرم بعد عهد أنيسها ... حجج خلون حلالها وحرامها[4]

رزقت مرابيع النجوم وصابها ... ودق الرواعد جودها فرهامها[5]

من كل سارية وغاد مدجن ... وعشية متجاوب إرزامها[6]

فعلا فروع الأيهقان وأطفلت ... بالجلهتين ظباؤها ونعامها[7]

وجلا السيول على الطلول كأنها ... زبر، تجد متونها أقلامها[8]

---

(1) ديوان لبيد: ص 48 ط الكويت.

(2) عفت: درست. تأبد: توحش. منى: موضع. الغول والرجام: جبلان.

(3) المدافع: مجارى الماء. الريان: اسم جبل فى بلاد بنى عامر. الوحى: جمع وحى وهو الكتاب. السلام: الحجارة.

(4) الدمن: جمع دمنة وهى الآثار. تجرم: تقطع. الحجج: السنون.

(5) المرابيع. السحاب. الودق: المطر الدنى من الأرض. الرهام: جمع رهمة وهى المطرة اللينة.

(6) سارية: سحابة تجىء ليلا. غاد: يجىء بالغداة. الأدجان: إلباس الغيم السماء. إرزامها: تصويتها بالرعد.

(7) علا: ارتفع: الأيهقان: جرجير البر. الجلهتان: جانبا الوادى وهما ما استقبلك منه.

(8) الطلول: ما شخص من آثار الديار. زبر: جمع زبور وهو الكتاب. متونها: ظهورها وأوساطها وأرادها كلها.

وانظر إلى غزله حين يقول:

شـاقتك ظـعن الحى يوم تحـملوا فـتكنسـوا قطنا تصـر خيـامهـا[1]

من كل مـحـفـوف يظل عـصـيه زوج عليـه قلة وقـرامـهـا[2]

زجـلا كـأن نعـاج توضح فـوقـهـا وظبـاء وجـرة عطفـا أرءامـهـا[3]

حـفـزت وزايلهـا السـراب كـأنهـا أجـزاع بيـشـة أثلهـا ورضامـهـا[4]

بل مـا تذكـر من نوار وقـد نأت وتقطعت أسـبـابهـا ورمـامـهـا[5]

مـرية حـلت بفـيـد وجـاورت أهل الحـجاز فـأين منك مـرامهـا[6]

بمشـارق الجـبلين أو بمـحـجـر فـتـضـمنتـهـا فـردة فـرخـامـهـا[7]

---

(1) شاقتك: دعـتك إلى الشوق إليها. الظعن: النساء اللـواتى فى الهوادج. تحملوا: ارتحلوا بأحـمالهم. تكنـسوا: دخلوا فى الهـوادج. القطن: جـمع قطين، والقطين الجـماعـة، الجيران، العبيد.

(2) المحفوف: الهـودج قد حف بالثياب. العـصية: خشبـة. الزوج: النمط الواحد. الكلة: الستر الرقيق. القرام: يجعل فوق الفراش تحت الرجل والمرأة.

(3) زجل: جمـاعات الواحدة زجلة. النعاج: الـبقر الوحشـية. توضح ووجرة: موضـعان. عطف: ملتفات.

(4) حفزت: دفـعت واستجثت فى الـسير. زايلها الـسـراب دفعها إلى سراب الـسـراب: لمعان الشمس فى الفضاء. بيشة: موضع. الأثل: شجر. الرضام: جبال صغار.

(5) نوار: اسم امراة، النوار النفور من الوحش. نأت: بعدت. السـبب: الحبل. رمام: جمع رمه وهى القطعة من السبب.

(6) مرية منسـوبة إلى مرة بن عوف بن سعـد بن ذبيان بن بغيض. مرامـها: مطلبهـا. فيد: موضع فى طريق مكة.

(7) الجبلين: جبل طىء، أجـا وسلمى. محجر: اسم موضع. فردة: أرض. رخـامها: جبل قريب من فردة.

فـاقطع لبـانة من تعـرض وصله ولخيـر واصل خلة صـرامـهـا[1]

ويصف ناقته وصفًـا دقيقًا معتمـدا على ذوقه البدوى الأصيل، فهو يشـبهها بأتان وحـشيـة وسحـابة تارة، وببقـرة وحـشيـة تارة أخرى، ويفـيض فى وصف سرعتها، وقطعها المسافات البعيدة بدون تعب أو إرهاق.

وفى كل هذه التشبيـهات الجميلة يستقصى صفـات المشبه به فى عمق وذوق بلغ مداه من الدقة وحسن التصوير.

فلهـا هبـاب فى الزمـام كـأنهـا صهـباء راح مع الجنوب جهامـهـا[2]

أو ملمع وسـقت لأحـقـب لاحـه طرد الفـحول ضـربها وكـدامهـا[3]

يعلو بهـا حـدب الأكام مـسـحجا قـد رابه عـصيانـها ووحـامـهـا[4]

بأحـزة الثلبـوت يربأ فـوقـهـا قـفر المراقب خـوفـهـا آرامـهـا[5]

حـتى إذا سـلخـا جـمـادى سـتـة جـزءا فطال صيـامـه وصيـامهـا[6]

---

(1) الخلة: الصداقة. اللبانة: الحاجة.

(2) هباب: هياج ونشـاط من هبت الريح إذا هاجت. صهباء: أى سـحابة صهبـاء. الجهام: السحاب الذى لا ماء فيه.

(3) الملمع: الذى استبان حملها. الكدام: العض. وسـقت: استجمعت. الأحقب: الذى فى موضع الحقب منه بياض. لاحه: غيره. الطرد: اسم.

(4) الحدب: ما ارتفع من الأرض. الآكام: الجبال الصغار. المسحج: المعضض.

(5) الأحـزة: جمع حـزيز وهو ما غلـظ من الأرض. الثلبوت مـاء لبنى ذبيـان. يربأ: يعلو ويشرف. المراقب: مـواضع مشـرفة ينظر منها من يمـر بالطريق. الآرام: حجـارة تجعل أعلاما ليعرف بها الطريق.

(6) سلخ النهر: أى مضى.

أقتلك أم وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصوار قوامها[1]

خنساء ضيعت القرير فلم يرم عرض الشقائق طوقها وبغامها[2]

وتضيء في وجه الظلام منيرة كجمانة البحري سل نظامها[3]

ثم أخذ يعلن كرمه وفروسيته وتجاربه مع الحياة والناس، واتبع هذا كله بإبراز مكانة قومه ومدى أمانتهم، وأنهم أهل نجدة وكرم وحسب ونسب ورفعة وشرف وهذا يجعلهم من أبرز القبائل وأعلاهم كعبا ومجدا.

أولم تكن تدري نوار بأنني وصال عقد حبائل جذامها[4]

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يعتلق بعض النفوس حمامها[5]

بل أنت لا تدرين كم من ليلة طلق لذيذ لهوها وندامها[6]

قد بت سامرها وغاية تاجر وافيت إذ رفعت وعز مدامها[7]

وغداة ريح قد وزعت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها[8]

---

(1) مسبوعة: أكل السبع ولدها. خذلت: تأخرت عن القطيع. هادية الصوار: مقدمته. الصوار: القطيع من البقر.

(2) خنساء: صفة البقرة الوحشية. الخنس: تأخر الأنف في الوجه وقصره. القرير: ولد البقرة. الشقائق: جمع شقيقة وهي أرض غليظة بين رملتين. بغامها: صوتها.

(3) الجمانة: اللؤلؤة الصغيرة. البحري: الغواص.

(4) نوار: اسم امرأة من بني جعفر. جذام: قطاع.

(5) يقول: أترك الأمكنة إذا رأيت فيها ما يكره إلا أن يدركني الموت.

(6) ليلة طلق وطلقة: إذا لم يكن فيها حر يؤذي ولا برد. الندام: المنادمة.

(7) سامرها: من السمر وهو حديث الليل. التاجر: الخمار. غايته: رايته التي ينصبها ليعرف موضعه. عز مدامها: أي كثر من يشتريها.

(8) وزعت: كففت ويروى كشفت أي بالطعام والكسوة وإيقاد النيران. القرة: البرد.

ولقد حميت الخيل تحمل شكتى فرط وشاحى إذ غدوت لجامها[1]

وفى الأبيات التالية يشيد بقومه، ويرفع منزلتهم بين الناس ويعلن فضلهم على القبائل.

إنا إذا التقت المجامع لم يزل منا لزاز عظيمة جشامها[2]

ومقسم يعطى العشيرة حقها ومغرزمر لحقوقها هضامها[3]

من معشر سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سنة وإمامها[4]

فبنوا لنا بيتا رفيعا سمكه فسما إليه كهلها وغلامها[5]

فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علامها[6]

وإذا الأمانة قسمت فى معشر أوفى بأوفر حظنا قسامها[7]

وهم ربيع للمجاور فيهم والمرملات إذا تطاول عامها[8]

---

(1) حميت: منعت. الشكة: اسم لجميع السلاح. فرط: يعنى فرسا متقدما.

(2) اللزاز: الذى يلزم الشىء ويعتمد عليه فيه. الجشام: المتكلف للأمور القائم بها.

(3) المغزمر: الذى يضرب بعض حقوق الناس ببعض فيأخذ من هذا ويعطى هذا. الهضام: الذى ينقص قوما ويعطى قوما بتدبير وقد وثق به فى ذلك.

(4) الإمام: المثال. السنة: الطريق والأمر الواضح.

(5) سما: ارتفع.

(6) الخلائق: الطبائع. العلام: الله سبحانه وتعالى.

(7) أوفى: ارتفع.

(8) المرملات: اللواتى قد مات أزواجهن.

معلقة عمرو بن كلثوم

حياته:

فى بيت عز ومجد وجاه وشرف، ولد الفارس الشاعر عمرو بن كلثوم. وأم عمرو هى ليلى بنت المهلهل، وأبوه كلثوم من مشاهير العرب فى الرياسة والسيادة. ونسب عمرو يرجع إلى قبيلة تغلب المشهورة، وله قصيدة أولها:

ألا هبى بصحنك فاصبحينا[1]

وهى معلقته التى سنذكرها بعد قليل. وقد أنشدها فى سوق عكاظ[2]، وتناول عمرو فيها الإشادة بقومه ومدحهم ورفع منزلتهم، وأنهم أعزة، لا يستطيع أحد أن يلحق بهم أذى أو ضيمًا، وكان ذلك أمام الملك عمرو بن هند.

وقد سار بها الركبان، وبلغ من إعجاب تغلب بها وتعظيمهم لها أن صغار القبيلة وكبارها كانوا يرددونها صباح مساء حتى قال أحد الشعراء يهجوهم:

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة ... قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

يفاخرون بها مذ كان أولهم ... يا للرجال لفخر غير مسئوم[3]

وغرض المعلقة الفخر، وإظهار القوة والشجاعة والعزة والسيادة والرياسة لتغلب على بكر، وفى هذه القصيدة يحذر عمرو بن كلثوم الملك عمرو بن هند من الانحياز إلى جانب البكريين وأن الأولى له تقريب بنى تغلب وإبعاد بنى بكر حتى لا يتعرض لغضب قومه وجبروتهم.

---

(1) طبقات فحول الشعراء - ص 127.

(2) الرسالة - عدد 13 يوليو سنة 1932.

(3) الشعر والشعراء - ص 120 ط ليدن.

وقد بدأها بوصف الخمر ومدى تأثيرها على شاربيها، وهذا الاتجاه لم يكن عادة الشعراء الذين سبقوه.

قال:

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ... لا تبقى خمور الأندرينا[1]

مشعشعة كأن الحص فيها ... إذا ما الماء خالطها سخينا[2]

ثم انتقل إلى الغزل فقال:

قفى قبل التفرق يا ظعينا ... نخبرك اليقين وتخبرينا[3]

بيوم كريهة ضربا وطعنا ... أقر به مواليك العيونا[4]

قفى نسألك هل أحدثت صرما ... لوشك البين أم خنت الأمينا[5]

تريك إذا دخلت على خلاء ... وقد أمنت عيون الكاشحين[6]

ذراعى عيطل أدماء بكر ... تربعت الأجارع والمتونا[7]

وثديا مثل حق العاج رخصا ... حصانا من أكف اللامسينا[8]

---

(1) الصحن: القدح الواسع. الصبوح: شرب الغداة. الأندرين: قرية بالشام كثيرة الخمر.

(2) المشعشة: الرقيقة من العصر أو المزج. الحص: الزعفران.

(3) الظعينة: المرأة فى الهودج.

(4) الكريهة: اسم لشده البأس. الموالى: العصبة.

(5) الصرم: القطيعة. وشك البين: سرعته.

(6) الكاشح: العدو.

(7) العيطل: الطويلة. الأدماء: البيضاء. البكر: التى ولدت ولدا واحدا. الأجارع: جمع أجرع وهو من الرمل ما لم يبلغ أن يكون جبلا. المتون: جمع متن وهو ما غلظ من الأرض.

(8) الرخص: اللينة. الحصان: العفيفة. اللامسون: أهل الريبة.

ومتنى لدنة سمقت وطالت ... روادفها تنوء بما ولينا[1]

تذكرت الصبا واشتاقت لما ... رأيت حمولها أصلا حدينا[2]

وأعرضت اليمامة واشمخرت ... كأسياف بأيدى مصلتينا[3]

وبعد هذا انتقل إلى الحديث عن عمرو بن هند، وما كان لقومه معه من مواقف بطوليه عظيمة، وأخذ يسرد ويعدد الفضائل ويفخر بقومه وما كان عندهم من شجاعة وإقدام خاصة فى الحروب ومعامع القتال.

أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظرنا نخبرك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضا ... ونصدرهن حمرا قد روينا

وأيام لنا غر طوال ... عصينا الملك أن ندينا

وسيد معشر قد توجوه ... بتاج الملك يحمى المحجرينا[4]

تركنا الخيل عاكفة عليه ... مقلدة أعنتها صفونا[5]

نطاعن ما تراخى الناس عنا ... ونضرب بالسيوف إذا غشينا

بسمر من قنا الخطى لدن ... ذوابل أو ببيض يعتلينا[6]

تخال جماجم الأبطال فيها ... وسوقا بالأماعز يرتمينا[7]

---

(1) اللدنة: اللينة. روادفها. أعجازها. تنوء: تنهض.

(2) الاشتياق: رقة القلب للقاء المحبوب. الحمول: الإبل التى يحمل عليها الأثقال. الأصل: جمع أصيل.

(3) عرضت: ظهرت. اشمخرت: طالت: المصلت: الشاهر سيفه.

(4) المحجر: الممنوع.

(5) الصافن: القائم.

(6) الخط: الرماح. السمر: الرماح الجيدة. لدن: لينة. ذوابل: فيها بعض اليبس.

(7) الأماعز - جمع أمعز: وهى الأرض الصلبة الكثيرة الحصى.

بأى مشيئة عمرو بن هند ... تطيع بنا الوشاة وتزدرينا

تهددنا وتوعدنا رويدا ... متى كنا لأمك مقتوينا[1]

ورثنا مجد علقمة بن سيف ... أباح لنا حصون المجد دينا[2]

ونحن الحاكمون إذا أطعنا ... ونحن العازمون لما عصينا

وإنا المانعون لما يلينا ... إذا ما البيض زايلت الجفونا

وإنا المنعمون إذا قدرنا ... وإنا المهلكون إذا أتينا

وإنا الشاربون الماء صفوا ... ويشرب غيرنا كدرا وطينا

قريناكم فعجلنا قراكم ... قبيل الصبح مرداة طحونا[3]

إذا ما الملك سام الناس خسفا ... أبينا أن نقر الخسف فينا

ملأنا البر حتى ضاق عنا ... وماء البحر نملؤه سفينا

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ويلاحظ أن أكثر أبيات هذه المعلقة - كما يتضح للنظر - فيها كثير من الغلو والتهويل، ولعل مرد هذا إلى إحساس الشاعر بمدى قوة قومه، وما هم عليه من عزة ومنعة وجبروت، واعتقاده أن لهم السيادة على العرب وغيرهم بدون منازع.

---

(1) مقتوينا: خدمة الملوك خاصة.

(2) الدين: الطاعة، علقمة: رجل منهم.

(3) مرادة: صخرة شبه الكتيبة بها.

معلقة الحارث بن حلزة

الحارث بن حلزة اليشكرى البكرى من أصحاب المعلقات، وقد اشتهر بالحلم والرزانة فى قومه، وكان شاعرهم وحكيمهم ولسانهم فى مجالس الملوك والعظماء، بما له من خبرة وتجارب بالحياة.

ويرجع السبب فى صنع هذه المعلقة ما كان بكر وتغلب من عداوة وخصام أدى إلى حرب البسوس المشهورة.

وبعد أن تاججت بينهما نار العداوة والخصام أصلح بينهما المنذر بن ماء السماء، وقد حرص على أن يأخذ من كل منهما رهينة من الغلمان حتى يظهر مدى قوة هذا الصلح.

وجاء عمرو بن هند، فسار على شاكلة أبية فى الصلح بين بكر وتغلب، وبعد أن تجددت بينهما العداوة والحرب، ذهب إليه الطرفان، وكان الحارث بن حلزة شاعر بكر، وعمرو بن كلثوم شاعر تغلب، وأنشد الحارث قصيدته التى نعرضها أمام الملك، وكان عمرو قد ألقى بينه وبين الحارث سبعة ستور، لما كان عليه من وضح وما أن سمع عمرو بن هند قوله:

آذنتنا ببينها أسماء ... رب ثاو يمل منه الثواء

حتى أمر برفع ستر من الستور، وكلما أخذه الإعجاب والطرب أمر برفع ستر آخر.. وهكذا حتى أزيلت جميعا وأجلسه قريبا منه، وحكم لبكر على تغلب.

وينكر نالينو ارتجال الحارث بن حلزة لهذه المعلقة بين يدى عمرو بن هند[1]، ونحن نخالفه ولا مانع أبدا من ارتجالها خاصة بعد أن علمنا أن الشعر كان يجرى

(1) تاريخ الآداب العربية: ص 75.

على ألسنة العرب بدون كد أو معاناة، فعاطفتهم قوية وخيالهم خصب، فإذا اجتمع مع هذا شدة الموقف وما فيه من خصام وجدال. أدركنا مدى قوة تصوير الحارث فى قصيدته، فهو يمتح من الواقع، ويسجل ما يدور فى خياله من صور وأحداث، اختمرت فى ذهنه، واستولت على نفسه فهو يخرجها متأثرا بهذا الجو المشحون بالتفاخر والخصام والاشتجار المميت.

قال الجاحظ: كل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة، وإنما هو أن يصرف همه إلى الكلام وإلى جملة المذهب والعمود الذى إليه يقصد، فتأتيه المعانى أرسالا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا[1].

وبدأ الحارث معلقته بالغزل فقال:

آذنتنا ببينها أسماء ... رب ثاو، يمل منه الثواء[2]

بعد عهد لنا ببرقة شماء ... فأدنى ديارها الخلصاء[3]

لا أرى من عهدت فيها فأبكى ... اليوم دلها وما يرد البكاء[4]

ثم انتقل إلى وصف ناقته، وأضفى عليها صفة النعامة من جهة شدة العدو والفرار والخفة فى الجرى.

غير أنى أستعين على الهم ... إذا خف بالثوى النجاء[5]

---

(1) البيان والتبيين: جـ 2 ص15.

(2) البين: الفراق. ثاو: مقيم.

(3) برقة شماء: مكان. الخلصاء: مكان.

(4) الدله: الحيرة والدهشة - يقال دلهه الحب: أى حيره وأدهشه.

(5) الثوى: المقيم. النجاء: السرعة.

بزفـــوف كـــأنهـــا هقلة أم رئال دوية ســـقـــفـــاء[1]

آنست نبـأة وأفـزعـهـا الـقنـ ـاص عصرا، وقـددنا الإمساء[2]

فـترى خلفـهـا من الرجع والوقـ ـع مـنينا كـــأنه إهبـــاء[3]

وطراقـــا مـن خلفـــهـن طراق ساقطات تلوى بهـا الصحراء[4]

وينتقل بعد هذا إلى الغرض الرئيسى والهـدف الذى من أجله أنشأ قصيدته. فشرح قضيته فى وضوح، وتحدث عن خروج تغلب على الاتفاق، وأظهر ما عليه قومه من الشدة والبأس والقوة، فهم أصحاب بطش وجبروت ولا يستطيع أحد أن ينال منهم لما هم عليه من مكانة وسلطان.

ومن خلال التلويح بالقوة - أشاد بالملك الهمـام، ووجه إليه كثيرا من المدح والثناء والتقدير، وعلق عليه الآمال فى كبح جماح تغلب، وأن الأولى له أن يقف بجانبهم لأنهم أصحاب حق واضح لا خفاء فيه.

وكل هذا فى سحر جميل، وشعر أخـاذ، استولى به على قلوب السامعين، وحظى منهم بالإعجاب والثناء وعلى رأسهم الملك الأديب عمرو بن هند.

---

(1) الزفيف: السـرعة. الهقلة: النعـامة. الرال: ولد النعامـة. دوية: منسوبة إلى الدو وهى الأرض البعـيدة الأطـراف. سـقـفاء: مـرتفعـة. وهذا كله مبـالغة فى وصف ناقـته بالسرعة.

(2) آنست: أحست. النبأة: الصوت الخفى. عصرا: عشيا.

(3) المتين: الغبار. الرجع: رجع قوائمها. الواقع: وقع خفافها.
الإهباء: مصدر أهبى يهبى إهباء إذا أثار التراب.

(4) الطراق: مطارقة نعال الإبل. من خلفن طراق: أى طورقت مرة بعد مرة.
ساقطات: قد سقطت من أرجلها. تلوى بها الصحراء: أى تذهب بها وتفرقها.

وأنانا من الأراقم والأنبـــــا ء خطب نعنى به ونساء[1]

إن إخـــــوانـنا الأراقم يغلو ن علينا وفى قيلهم إخفاء[2]

يخلطون البرىء منا بذى الذنـ ـب ولا ينفع الخلى الخلاء[3]

زعموا أن كل من ضرب العيـ ـر مـــوال لنا وأنا الولاء[4]

أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء[5]

من مناد ومن مجيب ومن تصها ل خيل خلال ذاك رغاء[6]

أيهـــا الناطق المرقش عنا عند عمرو، وهل لذاك بقاء؟[7]

لا تخلنا على غـــراتك إنا قبل ما قد وشى بنا الأعداء[8]

فبقينا على الشناءة تنميـ ـنا حصون وعزة قعساء[9]

---

(1) الأراقم: أحياء من بنى تغلب وبكر بن وائل. أنباء: جمع نبأ وهو الخبر. الخطب: الأمر العظيم. نعنى به: أى نتهم ونظن به أى يعنوننا به. نساء: أى يساء بنا فيه الظن.

(2) الغلو: مجاوزة الحد. القيل: القول. إخفاء: إلحاح.

(3) الخلاء بكسر الخاء، والخلان فى الإبل بمنزلة الحران فى الدواب.

(4) العير: الوتد والمعنى أنهم يلزموننا ذنوب الناس، أى كل من ضرب وتدا لخيمة ألزمونا ذنبه.

(5) أجمعوا: أحكموا. الضوضاء: الجلبة والاختلاط.

(6) رغاء الإبل: أصواتها.

(7) المرقش: المزين القول بالباطل ليقبل منه الملك باطله. هل لذاك بقاء؟: أى أن الباطل لا يبقى.

(8) لا تخلنا: لا تحسبنا.

(9) الشناءة: البغض. قعساء: ثابتة.

ملك مـقـسط وأكـمـل من يمـ ـشي ومن دون مـا لدته الـثناء[1]

إرمـي بمثـلـه جـالـت الجـن فآبت وتأبى لخـصمهـا الأجلاء[2]

من لـنا عـنده من الخـيـر آيا ت ثلاث في كلـهن القـضـاء[3]

وفي المعلقة سرد لأحـداث تاريخية عظيمة القيـمة بين بكر وتغلب. كحلف ذي المجاز، وما كان بين تغلب وبعض القبائل الأخرى من وقائع.

واذكروا حـلف ذي المجاز ومـا قد م فـيـه الـعـهـود والكفـلاء[4]

حـذر الجـور والتـعـدي ولن ينـ ـقض مـا فـي المهـارق الأهواء[5]

أعـلـيـنـا جـنـاح كـنـدة أن يـغـ ـنم غـازيهم، ومنـا الجـزاء؟[6]

أم عليـنا جـرى حـنيـفـة أو مـا جـمـعت من مـحارب غـبـراء[7]

---

(1) المقسط: العادل.

(2) إرمي، نسب إلى إرم. جالت: من المجالاة وهي المكاشفة، آبت: رجعت، والمعنى أن من كاشف بفخر هذا الملك انكشف أمره وتبين لأن فخره لا يخفى على أحد فأمره منجل.

(3) آيات: علامات.

(4) ذي المجاز: موضع، وكان عمرو بن هند أصلح فيه بين بكر وبني تغلب فأخذ عليهم المواثيق والرهائن من كل حي ثمانين.

(5) التعدي: الاعتداء. المهارق: الصحف واحدها مهرق فارسي معرب.

(6) يريد أن يقول: إننا لا نتحمل ما فعلته كندة بتغلب، وكانت كندة قد غزت تغلب، وقتلت فيهم وسبت.

(7) يقول: لا نتحمل كذلك ما فعلته قبيلة حنيفة بكم ولصوص محارب، لأن هذا ليس من شروط صلحنا معكم.

ومن كل ما تقـدم نرى أن الحارث كان رائعًا فى سرده لـلأحداث، قويا فى إظهار عظمة قومه، ومدحـه للملك بما امتاز به من شاعرية عميقة وخبرة عظيمة، فـلا غرو بعـد ذلك أن يفوز فى هذا الموقف، ويكـتب لقصـيدته الخلود على مـر الزمان.

الباب الثالث

الفصل الأول

النثر الجاهلى

النثر هو دائرة الاتصال بين الأفراد والجماعات، والمترجم عما فى نفوسهم من اتجاهات فى الأمة الواحدة، أو بين أمة وأخرى إذا كان بينهما مودة واتصال.

فهو يتناول شئون الحياة وما يكتنفها من متاعب وآلام ومشاكل، يتفاهم الناس من خلال هذا الكلام تنفيسا لهم، وتعبيرا عما بداخلهم.

فإذا ارتقى هذا اللون واتجه إلى الموضوعية وأبدعته قرائح الكتاب والبلغاء، وأخرجته ألسنة الفصحاء - كان نثرا فنيا فيه بلاغة وفن، وجمال تعبير وقوة بيان.

والنقاد والأدباء لا يحفلون بالنوع الأول، لأنه كلام عادى متداول بين الناس فى كل الطبقات.

أما النوع الثانى: فهو محط أنظار النقاد والبلغاء لما فيه من أساليب رائعة وحكم خالدة، وخطب ملتهبة وقصص شيقة، ورسائل معبرة، فهو يحوى أسرار البيان وألوان التعبير، وخلوه من الوزن والقافية كان سببًا فى دخوله فى جميع المجالات وتعبيره عن جميع الحالات.

ومن شرف النثر وأهميته أن الكتب القديمة والحديثة النازلة من السماء على ألسنة الرسل بالتأييد الإلهى مع اختلاف اللغات كلها منثورة مبسوطة، متباينة الأوزان، متباعدة الأبنية، مختلفة التصاريف لا تنقاد للوزن، ولا تدخل فى الأعاريض. والنثر من قبل العقل، والنظم من قبل العاطفة[1].

قال ابن طرادة: وكان من فصحاء أهل العصر بالعراق النثر كالحرة والنظم كالأمة، والأمة قد تكون أحسن وجها وأدمث شمائل وأحلى حركات، إلا أنها لا توصف بكرم جوهر الحرة، ولا يشرف عرقها وفضل حيائها[2].

---

(1) الإمتاع والمؤانسة: التوحيدى جـ2 ص 122 ط لجنة التأليف.

(2) المرجع السابق، ص 123.

ونحن لسنا بصدد تفضيل الشعر على النثر أو النثر على الشعر، بل هدفنا البحث عن النثر الفنى فى العصر الجاهلى أكان موجوداً أم لا؟ فهل وجد عند العرب نثر فنى؟.

من ينظر إلى حالة العرب وواقع حياتهم يتبين له أن الشعر كان له المقام الأول فى كثير من حالاتهم، لأن فطرتهم سليمة وفصاحتهم عريقة، ولهذا ظهر الشعر وكثر. وقل النثر الفنى فيهم لأسباب منها:

أولاً: غلبة الأمية عليهم وهذا أدى إلى عدم التركيز والتنظيم الذى يعتمد عليه الكاتب أو الأديب فى وضوح الفكرة، وإظهارها وعرضها للناس.

ثانيًا: عدم انتشار الكتابة والمشقة فى استخدام أدواتها.

ثالثًا: أن النثر من قبل العقل، والشعر من قبل العاطفة والخيال. ولهذا كله تأخر ظهور النثر الفنى عندهم لما سبق.

على أن هناك بعض الآراء تنكر وجود النثر بدون تثبت أو تمحيص.

والحجة التى يعتمد عليها هؤلاء هى عدم وجود الدليل المادى الذى يسجل لهم هذا النثر الذى يدل عليهم، ومادام النثر قد ضاع فلا أقل - فى رأيهم - من إنكار وجوده اعتماداً على الزعم السالف.

وفاتهم أنهم كانوا لسنا مقاويل، عبروا عن أمورهم بالخطابة والحكم، كما عبروا بالشعر.

وفاتهم أيضا أن القرآن نزل متحديًا لهم، لما كان عندهم من فصاحة وبيان، وأن هذه النهضة الشعرية التى وصلت إلينا من براثن الزمن لا بد أن يصاحبها نهضة نثرية تعبر عن مختلف مناحى حياتهم.

وليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة تدل على أن الجاهليين عرفوا

الرسائل الأدبية، وتداولوها، وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة، فقد عرفوها غير أن صعوبة وسائلها جعلتهم لا يستخدمونها فى الأغراض الأدبية الشعرية والنثرية، ومن ثم استخدموها فقط فى الأغراض السياسية والتجارية[1].

يقول بروكلمان:

يمكن عد الأمثال، من بقايا أقدم النثر العربى، لما يبدو أن بعضها كان سائراً مشهوراً فى الجاهلية، وكثيراً ما تشير هذه الأمثال إلى أحداث ووقائع معينة حصلت قديمًا، ولكنها انطوت فى زوايا النسيان[2]. ويقول: وأخيرا يمكن القول بأن فن التأثير بالكلام المتخير، والحسن الصياغة والتأليف فى أفكار الناس وعزائمهم قد ازدهر عند عرب الجاهلية، أن هذا الفن قد اشتمل أيضًا على بذور النمو الأدبى المتأخر[3].

ويقول زكى مبارك[4]:

وخلاصة ما أراه أنه كان للعرب قبل الإسلام نثر فنى يتناسب مع صفاء أذهانهم، وسلامة طباعهم، لكنه ضاع لأسباب أهمها شيوع الأمية، وقلة التدوين وبعد ذلك النثر عن الحياة الجديدة التى جاء بها الإسلام ودونها القرآن.

وما نقله الرواة من النصوص لا يكفى لتعيين أساليب النثر فى العصر الجاهلى، وبيان الاتجاهات العقلية التى كان يرمى إليها الكاتبون إذ ذاك، وهو على قلته لا يعين مدرسة نثرية، ولا مذهبًا اجتماعيًا، ولا رأيًا عاما وإنما يعين أذواق واضعيه، ومذاهبهم السياسية واتجاهاتهم الدينية[5].

---

(1) العصر الجاهلى: شوقى ضيف، ص 399.

(2) تاريخ الأدب العربى: جـ 1 ص 128.

(3) المرجع السابق: جـ 1 ص 129.

(4) النثر الفنى: ص 33.

(5) المرجع السابق: ص 35.

ويوافق طه حسين المسيو مرسيه فى إنكار النثر الجاهلى ويقضى رأيهما أن العرب فى الجاهلية كانوا يعيشون عيشة أولية، والحياة الأولية لا توجب النثر الفنى، لأنه لغة العقل، وقد تسمح بالشعر لأنه لغة العاطفة والخيال.

والمسيو مرسيه يؤمن بوجود الخطب فى العصر الجاهلى، وينكر إنكاراً مطلقًا أن يكون هناك نثر فنى كالذى يلجأ إليه الرجل لإذاعة فكرة، أو دفع شبهة أو إيضاح مشكلة[1].

ولا رد لنا على هذا المستشرق إلا بما سبق أن سجلناه من أن طبيعة العرب أنفسهم تنطق بما كان عندهم من فصاحة وبيان، وأن ما وصلنا من خطب وأمثال وحكم ووصايا كفيل بأن يثبت لهم هذا النثر الذى ينكره أشد الإنكار. كما أنه يخطىء حينما يتصور أن النثر الفنى عندهم هو أن يتناول كتابهم المقدمات التى تؤدى إلى نتائج كالعصر الحديث مثلاً، فهذا كله من عمل الحضارة والمدنية، ونحن نأباه على طبيعة الجاهليين.

أما النثر الذى يعالج شئون حياتهم فى بساطة ويدللون به على مشاكلهم وما يعتريها من تقلص وفتور فمن الأولى أن نقره لهم بدون خوف أو مداراة. وكل الشواهد بين أيدينا تدلنا فى صدق على طبيعة حياتهم، وما حفلت به من نثر جيد كان له أثره الكبير فى حياتهم.

فهذه الخطب القوية والأمثال الصائبة، والمفاخرات والمنافرات التى كثرت عندهم كلها ألوان جيدة للنثر الجاهلى، وكذا ما كان عندهم من قصص يعلى منزلتهم بين الأمم، ويرفع من عزيمتهم بين القبائل، ويمجد فروسيتهم وبطولتهم، ويظهر عظمتهم وشجاعتهم، ويدل كل هذا على مدى تناول النثر لمختلف مناحى حياتهم التى عاشوها فى ذلك الوقت.

---

(1) المرجع السابق: ص 33.

وهذه الألوان السابقة قد استمعوا إليها فى أوقات فراغهم واستمتعوا بها خير الاستمتاع بين مضارب الخيام لقبائل البدو المتنقلة. وفى مجالس أهل القرى والحضر فقد كان القصاص يستمدون قصصهم تارة من الأساطير والخرافات السائرة والمتنقلة بين الأمم، وتارة أخرى من الأخبار والأحاديث الخرافية والتاريخية المأثورة عن العرب أنفسهم وعمن جاورهم[1].

وهذه قصة من قصصهم وهى تدلنا على ما كان عندهم من خيال واعتقاد. روى الأصمعى[2]:

أن الهدهاد بن شرحبيل كان متزوجًا من الجن، وهو ابن بلقيس صاحبة العرش التى زوجها الله تعالى من سليمان بن داود عليهما السلام، وقصة الهدهاد وتزوجه من الجن طويلة، ولا داعى لذكرها ونكتفى بما سجله الهدهاد من أحداثها بالشعر قال:

عجائب الدهر لا تفنى أوابدها ... والمرء ما عاش لا يخلو من العجب

ما كنت أحسب أن الأرض يعمرها ... غير الأعاجم فى الآفاق والعرب

وكنت أخبر بالجن الجفاة ولا ... أرد أخبارهم إلا إلى الكذب

حتى رأيت مقاصيراً مشيدة ... للجن محفوظة الأبواب والحجب[3]

يحفها الزرع والماء المحيط بها ... من الفواكه من نخل ومن عنب

وكل بيضاء تحكى الشمس ضاحية ... هيفاء لفاء من موصوفة العرب[4]

---

(1) تاريخ الأدب العربى: جـ 1 ص 128.

(2) تاريخ العرب قبل الإسلام: ص 78 ط بغداد.

(3) المرجع السابق نفس الصفحة.

(4) العرب قبل الإسلام ص 78.

يمضى جمادى ويأتى بعدها رجب وسوف أسرى على الميعاد من رجب
حتى أوافى خير الجن من عرم ذاك ابن صعب الفتى المعروف باليلب
يبغى لديه الذى نادى ومن به من التواصل والأصهار والنسب

وسواء أكانت هذه القصة حقيقية أم خيالية فهى تدلنا فى صدق على مدى ما كان يتداول بينهم من أفكار وأوهام.

والقصص الجاهلى لم يدون إلا بعد أن مر بمراحل إلى أن وصل إلى العصر العباسى، فدون على أيدى الكتاب والأدباء فى هذا العصر، وقد نقلوا إلينا هيكله ومضمونه وليس نصه مما قد يتيح للرواة التزيد فيه حسب أهوائهم[1]. ومن المؤكد أنهم كانوا يشغفون بالقصص شغفًا شديداً وساعدتهم على ذلك أوقات فراغهم الواسعة فى الصحراء، فكانوا حين يرخى الليل سدوله يجتمعون للسمر، وما أن يبدأ أحدهم فى مضرب من مضارب خيامهم بقوله: كان وكان حتى يرهف الجميع أسماعهم إليه، وقد يشترك معه فى الحديث شباب الحى وشيوخه ونساؤه وفتيانه والمخدرات وراء الأخبية، كل هؤلاء يتابعون الحديث فى شوق ولهفة.

ويتمثل هذا النثر فى الخطب والأمثال والحكم والوصايا؟ وما كان بينهم من مفاخرات ومنافرات.

(1) العصر الجاهلى ص 299.

الخطابة فى العصر الجاهلى

سماتها - ألوانها - خصائصها - دواعيها

أشهر الخطباء فى العصر الجاهلى

إذا كان العرب قد برعوا فى قول الشعر، وأبدعوا فيه بحيث صار عنوان أمتهم ودستور حياتهم، ودليل بلاغتهم، فإنهم قد ارتفعوا منزلة عالية بما كان عندهم من خطابة.

وقد كثرت فيهم وزاد من كثرتها ما كان بينهم من خصام وتشاجر، وقتال فى أغلب الأحيان، فهذا الصراع المر بينهم أدى إلى ازدهار الخطابة وعلو شأنها، وبراعة بيانها، فقد كانوا يفزعون إلى خطبائهم فى الملمات، وخضم الغارات، يفدون على الملوك والأمراء بخطبائهم الذين ضربوا بسهم وافر فى البلاغة وحسن البيان، فكانوا سفراء قومهم وألسنتهم المعبرة الفصيحة.

فما من معركة دارت رحاها بين العرب وغيرهم، أو بينهم وبين بعضهم إلا وظهر فى غبارها كثير من الخطب التى تشحذ الهمم، وترثى القتلى، وتمجد الصلح، أو تدعو إلى الأخذ بالثأر.

وما من صلح تم بين بعضهم إلا كان للخطابة فى وضوحه وإبرازه والدعوة إليه مجال كبير - فى جمع أطرافه والحث على الالتزام به.

وما من وفادة على عظيم أو أمير أو ملك إلا كان للخطابة فضل كبير فى رسم صورة للحب والوئام، أو طلب الرفد والعطاء أو إظهار الوعيد والإنذار، وكل هذا فى إطار الحالة الملحة على الوفد المرسل، والمهمة الموكل بإبلاغها والتحدث عنها.

وظهرت أهمية الخطابة أيضًا فيما كان يقع بينهم من مفاخرات ومنافرات

استدعتها حالتهم الاجتماعية الصحراوية، حيث كان الافتخار بالأصول، والتباهى بالأمجاد والأحساب والعدة والعتاد.

واتجه بعض الخطباء فى هذا العصر إلى التحذير والتذكير والخوف من الله الجبار خالق السموات والأرض، والتفكر فى ملكوت الله العظيم، والعمل للآخرة، والنظر فى أحوال الحياة، وأنها فانية فناء الإنسان.

وجاء هذا اللون على ألسنة الحكماء والوعاظ الذين اشتهروا فى هذا العصر، كقس بن ساعدة وغيره من الحنفاء.

كما كان للخطابة مجال كبير فى المناسبات الاجتماعية من نكاح وتقريب أواصر المحبة بين الأهل والأقارب، أو بين القبائل مع بعضها.

وفى هذا يظهر الخطيب المفوه القدير، الذى يعتمد عليه فى وقت الشدة وأحلك المفاجآت. قال لبيد بن ربيعة[1]:

ومقام ضيق فرجته ... بيان ولسان وجدل

لو يقوم الفيل أو فياله ... زل عن مثل مقامى وزحل

ولدى النعمان منى موطن ... بين فاثور أفاق فالدخل[2]

إذ دعتى عامر أنصرها ... فالتقى الألسن كالنبل الدول[3]

فرميت القوم رشقا صائبا ... ليس بالعصل ولا بالمقشعل[4]

---

(1) البيان والتبيين: جـ 1 ص 265 ط لجنة التأليف.

(2) فاثور: موضع أو موضع بنجد. أفاق بالضم موضع فى بلاد بنى يربوع. الدخل: ماء بنجد.

(3) الدول: بالتحريك المتداول.

(4) الرشق: أن يرمى الرامى بالسهام كلها. أى ليس رميا بالعصل من السهام وهى المعوجة، والمقشعل من السهام: الذى لم يبر بريا جيدا.

وانتضلنا وابن سلمى قاعد كعتيق الطير يغضى ويجل[1]

وقبيل من لكيز شاهد رهط مرجوم ورهط ابن المعل[2]

وكل هذا جعل مهمة الخطابة عسيرة شاقة، لحاجة العرب إليها فى كل مجال ومناسبة من المناسبات، وارتفعت منزلة الخطيب عندهم، وأحاطوه بالمهابة والعزة والتكريم. فهو فخر القبيلة، وعزها، وعمادها، والذائد عنها فى كل مجال. ويدلنا التاريخ على خطباء اشتهروا بالعزة والمكانة عند قبائلهم فكان لهم الرفعة والجاه والسلطان.

ولمكانة الخطابة عندهم كانوا يمدحون الجهير الصوت، ويذمون الضئيل الصوت، ولذلك تشادقوا فى الكلام، ومدحوا سعة الفم. وقيل لأعرابى: ما الجمال؟ قال: طول القامة، وضخم الهامة، ورحب الشدق، وبعد الصوت[3].

قال بشار بن برد يهجو بعض الخطباء:

ومن عجب الأيام أن قمت ناطقًا

وأنت ضئيل الصوت منتفخ السحر[4]

وهذا يدل على مدى اهتمامهم بصفات الخطيب، ليكون كلامه وبيانه أوقع، وحجته أفصح، وحسن هيئته وتناسق أعضائه ألصق بالنفوس.

وإذا كان العرب أحاطوا شعراءهم بالاحتفاء والتكريم ورفع المنزلة وعلو الجاه، لما كان للشعر من جليل المكانة والشأن الخطير فى مجتمعهم، فإنهم اعتزوا

(1) ابن سلمى هو النعمان بن المنذر، وأم النعمان سلمى بنت الصائغ يهودى من أنباط الشام، جلى ببصره تجلية إذا رمى به كما ينظر الصقر إلى الصيد.

(2) لكيز بن قصى بن عبد القيس، مرجوم بالجيم، اسمه شهاب بن عبد القيس، وابن المعلى: هو الجارود بن العملى، وكان سيد عبد القيس قدم على الرسول وأسلم وحسن إسلامه.

(3) البيان والتبيين: جـ 1 ص 121.

(4) المرجع السابق: ص 22.

كذلك بخطبائهم وأحلوهم المنزلة اللائقة بهم. إذ كانت الخطابة لا تسند إلا لرئيس أو كبير أو حكيم عليه كثيراً من الوقار والخبرة ما يؤهله لشغل هذا المنصب الخطير ويكون بعيد النظر، بحيث يستطيع أن يذود عن القبيلة فى أى غرض تحتاج إليه.

وإذا كان الشعر قد سما عند العرب، وارتفعت منزلته وارتفع لهذا نجم الشعراء، فإن منزلتهم قد تداعت حينما حادوا عن الطريق السليم، واتجهوا به إلى هتك الأعراض وطلب الاستجداء.

فقد كان الشاعر فى مبتدأ الأمر أرفع منزلة من الخطيب لحاجتهم إلى الشعر فى تخليد المآثر، وشدة العارضة وحماية العشيرة، وتهيبهم عند شاعر غيرهم من القبائل، فلا يقدم عليهم خوفًا من شاعرهم على نفسه وقبيلته، فلما تكسبوا به وجعلوه طعمة وتولوا به الأعراض وتناولوها صارت الخطابة فوقه[1].

أشهر الخطباء:

عدت عوادى الدهر وخطوب الأيام على تراث العرب الشعرى والنثرى فلم يصل إلينا منه إلا القليل، ونستطيع أن نذكر بعض الأسماء الذين كان لهم الشأن الكبير فى الخطابة هناك، وقد ذكر الجاحظ أسماء كثيرة للخطباء فى هذا العصر ولا سبيل إلى مجاراته فى هذا. وما نميل إليه هو عرض لبعض الخطباء ممن اشتهروا بحسن البيان وبراعة القول، وكان لهم أثر ملموس فيما وصل إلينا من خطابة نقلها الرواة عبر التاريخ.

فمن أشهر الخطباء:

«قس بن ساعدة»، و«أكثم بن صيفى»، و«سحبان بن وائل»، و«قيس بن خارجة» و«علقمة بن علاثة»، و«الحارث بن عباد» و«الحارث بن ظالم المرى»، و«مرثد الخير»، و«زهير بن جناب»، و«الحارث بن كعب»، و«حاجب بن زرارة».

---

(1) العمدة: جـ 1 ص 50.

ومن خطباء غطفـان فى الجاهلية: خـويلد بن عمرو، والعشـراء بن جابر بن عقيل بن هلال، وخويلد خطيب يوم الفجار[1].

وبعض الخطباء الذين ذكـرناهم شعراء، ولهذا كانت منزلتـهم أعظم وبيانهم أرفع، ومكانتهم أسمى.

وفى الخطبـاء من يكون شاعـراً ويكون إذا تحدث أو وصف أو احـتج بليـغا مفوها بينا، وربما كان خطـيبا فقط وشاعراً فقط، وبيِّن اللسـان فقط، فمن الخطباء الشعراء، والأبيناء الحكماء - قس بن ساعدة الإيادى، والخطباء كثير والشعراء أكثر منهم، ومن يجمع الشعر والخطابة قليل[2].

وكانت الخطابة تجرى على ألسنة الخطبـاء بدون تكلف لما فطروا عليه من قوة السليقة، وبراعة الحافظة، وعظمة الذاكرة، قال الجاحظ:

وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، وإنما هو أن يصرف همـه إلى الكلام وإلى العمود الذى إليـه يقصد، فتـأتيه المعانى أرسـالا، وتنثال عليه الألفـاظ انثيالا، وكان الـكلام البائت عندهم كالمقتضب اقتدارا عليه[3].

يقول طه حسين:

إن الخطابة العـربيـة فن إسلامى خـالص؛ ذلك أن الخطابة ليـست من هذه الفنون الطبيعيـة التى تصدر عن الشعوب عفوا ويعنى بها الأفـراد نفسها. وإنما هى ظاهرة اجتماعية ملائمة لنوع خاص من الحيـاة، وكل الحياة الاجتماعية للعرب قبل

---

(1) البيان والتبيين: جـ1 ص 45.

(2) المرجع السابق جـ 2 ص 250.

(3) المرجع السابق جـ 1 ص 13.

الإسلام لم تكن تدعو إلى خطابة قوية ممتازة، فالحواضر كانت حواضر تجارة ومال واقتصاد، ولم يكن للحياة السياسية فيها خطر يذكر[1].

فهو يقرر أن الخطابة فن إسلامى خالص. وهو بهذا ينكر التراث الجاهلى جملة وبجرة قلم، وفى هدوء، وله الحرية فيما ذهب إليه.

ونود أن نسأله هل الخطابة الإسلامية والخطباء الذين كانوا فى العصر الإسلامى وبعضهم أدرك الإسلام والجاهلية - نشأوا من فراغ؟ وهل كانوا فى الحال خطباء وفصحاء، ولسنا مقاويل؟ اللهم لا.

فإذا أنكر الخطابة فالواقع يكذبه، وحقيقة الحال توضح أن فن الخطابة فن جاهلى، وكان للعرب فيه باع طويل، بما خلق الله فيهم من موهبة، وفطرة ودراية وعلم وفصاحة، وضياع بعض الخطب لا يعنى ضياعها كلها وذهاب الحفظة والرواة لا يعنى أننا فقدنا الخطابة العربية الجاهلية إلى الأبد.

فالحق الواضح يشير إلى أن العرب كان لهم ملكة الفصاحة والبيان بدليل نزول القرآن الكريم بلغتهم، فكيف يغفل هذا ويجرى وراء سراب.

إن ما ظهر من خطابة إسلامية، وما ظهر من خطباء فى العصر الإسلامى كان له جذوره الضاربة فى العصر الجاهلى، ولا ينكر هذا إلا عاق لقوميته وساب لعروبته ومتخلف فى تصوره لواقع الأمة العربية وحياتها فى العصر الجاهلى.

ويريد برأيه أن يسم العرب بالعزلة والتخلف وعدم الاتصال مع غيرهم وجيرانهم من الأمم والشعوب التى جاورتهم، وغفل أن ما كان عندهم من سفارات وحروب ومفاخرات يستدعى الخطابة، ويؤكد وجودها بما لا يدع مجالا للشك أو الإنكار.

---

(1) الأدب الجاهلى ص 331، 332.

يقول نالينو[1]:

أما فن الخطابة فله عند العرب مقام عال جدا، فلو جمعنا الأبيات التى يحمد فيها خطيب لملأنا بضع صحائف، ولذلك أسباب مرتبطة بنظامهم السياسى، المبنى على الحرية ونوع من مجلس الشورى، فكان رجال كل قوم من أهل الوبر يبحثون أمور القوم فى مجلسهم كما كان كبار أهل مكة يتقاضون فى دار الندوة المنسوب تأسيسها إلى قصى بن كلاب. ثم أثرت فى ارتقاء فن الخطابة سياسة العرب الخارجية، أعنى العلائق بين قوم وقوم، أو بين قبيلة وملوك اليمن والحيرة، والفرس وغسان، فكان حينئذ الخطيب وكيل جميع قبيلته يخطب باسمها فى المواسم والوفود للمفاخرة والمشاجرة والدفاع عن حقوق قومه. فوصف أوس بن حجر منصب الخطيب فى داخل قومه وخارجه حين قال: وهو يرثى أبا دليجة فضالة بن كلدة:

أبا دليجة من يكفى العشيرة إذ
أمسوا من الخطب فى لبس وبلبال
أم من يكون خطيب القوم إذ حفلوا
لدى الملوك ذوى أيد وأفضال

ويقول حسان:

وأبى فى سميحة السائل الفا صل يوم التقت عليه الخصوم
يفصل القول بالبيان، وذو الرأ ى من القوم ظالع مكعوم[2]

ويقول الرافعى: إن العرب قوم معنويون، ولم يجر من الأحكام النفسية على أمة من الأمم ما يجرى عليهم، ولهذا كان لا بد لهم فى أصل الخلقة من

(1) تاريخ الآداب العربية: ص 97.

(2) البيان والتبيين: جـ2 ص 325.

الحوافظ القـوية التى ترتبط بمآثر تلك النفوس ارتباطًا وإلا اخـتل تركيبهم الطبـيعى وانتفت الموازنة بيـن قواهم، فلم يقم صلاح القـوة الواحدة بفسـاد الأخرى، وإذا أردت أن تعرف مـصداق ذلك فاعـتبر مـا اتسعوا فـيه من المحفـوظ، فإنك لست واجـده إلا فى المعانى النفـسيـة، مما يرجع إلى التـفاخـر والتفـاضل بالأحسـاب والأنساب والتعاير بالمثالب، والتنابز بالألقاب، ولو أن الكتابة كانت فاشية فيهم ما عدلوا إليها، ولا استغنوا بها عن الحفظ، لأن سـبيل تلك المعانى الطبيعية أن تجىء من أداة طبيـعيـة أيضا حـتى تكون عند الخاطر إذا خطر والهـاجس إذا بدر وليس لذلك غير اللسان[1].

(1) تاريخ آداب العرب: جـ 1 ص 275.

نماذج من الخطابة الجاهلية

قال الجاحظ: ومن خطباء إياد قس بن ساعدة، وهو الذى قال فيه النبى ﷺ: رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر، وهو يقول: أيها الناس اجتمعوا فاسمعوا وعوا. من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، آيات محكمات، مطر ونبات، آباء وأمهات، ذاهب وآت، ضوء وظلام، بر وآثام، لباس ومركب؛ ومطعم ومشرب، نجوم تمور، بحور تغور، سقف مرفوع، مهاد موضوع، ليل داج، وسماء ذات أبراج، مالى أرى الناس يموتون ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا أم حبسوا فناموا: يا معشر إياد، أين ثمود وعاد، أين الآباء والأجداد. أين المعروف الذى لم يشكر - والظلم الذى لم ينكر.

أقسم قس قسما بالله، إن لله دينا هو أرضى من دينكم هذا، وقال:

فى الذاهبين الأولـ ـين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها تمضى الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضى ولا يبقى من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محا لة حيث صار القوم صائر[1]

وهذه الأفكار التى فى خطبة قس من التأمل وبث العظة والعبرة، والتفكر فى السموات والأرض وبمن مات فى غابر الأزمان تجدها فى خطبة المأمون الحارثى الذى قال[2]:

(1) البيان والتبيين: جـ1 ص 309.

(2) الأمالى: جـ1 ص 273.

ارعونى أسماعكم، واصغوا إلى قلوبكم، يبلغ الوعظ منكم حيث أريد، طمح بالأهواء الأشر، وران على القلوب الكدر، إن فيما نرى لمعتبراً لمن اعتبر، أرض موضوعة وسماء مرفوعة، شمس تطلع وتغرب، ونجوم تسرى فتعزب، قمر تطلعه النحور، وتمحقه أدبار الشهور، عاجز مثر، شاب مختصر، يفن قد غبر، راحلون لا يؤوبون، ومطر يرسل بقدر، فيحيى البشر، ويورق البارى، ويطلع الثمر، ينبت الزهر، إن فى ذلك لأوضح الدلائل على المدبر المقدر، البارئ المصور. يا أيها العقول النافرة، أنى تؤفكون، وعن أى سبيل تعمهون، وفى أى حيرة تهيمون، وإلى أى غاية توفضون، لو كشفت الأغطية عن القلوب وتجلت الغشاوة عن العيون، لصرح الشك عن اليقين وأفاق من نشوة الجهالة؛ من استولت عليه الضلالة[1].

ومن خطب التحريض على القتال ما قاله هانئ بن قبيصة الشيبانى لقومه يوم ذى قار[2]:

يا معشر بكر، هالك معذور، خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجى من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، والطعن فى ثغر النحور أكرم منه فى الأعجاز والظهور. يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا بد.

ومن خطب إصلاح ذات البين ما قاله مرثد الخير لميثم بن مثوب بن ذى رعين، وسبيع بن الحارث ليصلح بينهما.

لا تنشطوا عقل الشوارد، ولا تلقحوا العون القواعد، ولا تؤرثوا نيران الأحقاد، ففيها المتلفة المستأصلة، وعفوا بالحلم إبلاء الكلم، وأنيبوا إلى السبيل

(1) الأمالى: جـ1 ص 273.

(2) المرجع السابق: جـ1 ص 169.

الأرشد، والمنهج الأقصد، فإن الحرب تقبل بزبرج الغرور، وتدبر بالويل والثبور[1].

سمات الخطابة الجاهلية:

للخطابة فى العصر الجاهلى سمات وخصائص، توافق طبيعة حياتهم وما كانوا عليه من فصاحة وبيان.

ومن يتأمل ما وصل إلينا من خطب يجد فيها صورة حياتهم الفكرية بما حفلت من صفاء ونقاء، ونجد فيها الكثير من الحكم والأمثال وألوان البيان من تشبيه وكناية واستعارة وغيرها.

وتمتاز بالإيجاز وإصابة الهدف بدون خروج. فلا زخرف لفظى ولا إطناب ممل. وهذا ألصق بطبيعتهم وفطرتهم التى طبعت على صدق العاطفة وبراعة الشعور: فتناولوا المعانى الواضحة واستخدموا الأساليب السهلة التى ترجمت عن أمور حياتهم فى أساليب قوية وعبارات فصيحة.

ولهذا كثرت حكمهم القصار وشاع بينهم الإيجاز، وبان فى خطبهم أثر الارتجال، والانفلات من ترتيب الخطبة إلى مراحل وأجزاء، واتسمت معانيهم بالصدق والبعد عن المبالغات، ولعل هذا من تأثير الشعر فى الخطابة من حيث الإيجاز والجمل القصار، أو لعل السبب ميلهم إلى النظر الجزئى والتعبير العاجل السريع الموجز[2].

---

(1) المرجع السابق: جـ 1 ص 92.

(2) فن الخطابة: أحمد الحوفى: ص 230 ط الرسالة.

الوصايا

إذا كانت الخطابة الجاهلية قد ضربت بسهم وافر فى شتى مناحى حياتهم، وما استدعته ظروفهم: كالتفاخر والتنافر الذى شاع بينهم، وكذا الاجتماع فى المواسم والأسواق، ومجالس الصلح والزواج، وما كانوا يقومون به من وفادات على الملوك والأمراء. فإن الوصايا قد شاعت بينهم كذلك ولكنها كانت فى مجال ضيق محدود وأكثر ما تكون عند الإحساس بقرب نهاية الحياة وختام مطافها، وتكون من أب لابن عزيز عنده أو من أم لبناتها أو من حكيم لقومه، يعرفهم بدروب الحياة ومسالكها، ويعطيهم ما اكتسبه من خبرة وتجارب.

فهى لون من ألوان النثر الجاهلى الذى ملأ فراغ حياتهم وعالج كثيراً من أمورهم. وقد تكون الوصية خطبة يبث فيها الخطيب وصاياه لمن يسمعه من قومه وعشيرته.

فمن وصايا العرب المأثورة ما قاله الأوس بن حارثة لابنه مالك[1]، حيث عاش دهراً وليس له ولد إلا مالك، وكان لأخيه الخزرج خمسة: عمرو، وعوف، وجشم، والحارث، وكعب. فلما حضره الموت قال له قومه: قد كنا نأمرك بالتزوج فى شبابك فلم تزوج حتى حضرك الموت، فقال الأوس: لم يهلك هالك ترك مثل مالك، إن كان الخزرج ذا عدد، وليس لمالك ولد، فلعل الذى استخرج العذق من الجريمة. والنار من الوثيمة[2] أن يجعل لمالك نسلا، ورجالا بسلا، يا مالك المنية ولا الدنية، العتاب قبل العقاب، التجلد لا التبلد. واعلم أن القبر خير من

(1) الأمالى: جـ1 ص 102.

(2) معانى المفردات: العذق: النخلة بلغة أهل الحجاز. الجريمة: النواة. الوثيمة: هى الموثومة يريد قدح حوافر الخيل النار من الحجارة.

الفقر، وشر شارب المشتف وأقبح طاعم المقتف، وذهاب البصر خير من كثير من النظر[1].

ومن كرم الكريم الدفاع عن الحريم، من قل ذل، ومن أمر فل. خير الغنى القناعة، وشره الفراعة، والدهر يومان: يوم لك، ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصبر، فكلاهما سينحسر، ولو كان الموت يشترى لسلم منه أهل الدنيا، لكن الناس فيه مستوون[2].

وقال لقمان لابنه: لا تركن إلى الدنيا، ولا تشغل قلبك بها، فإنك لم تخلق لها وما خلق الله خلقا أهون عليه منها، فإنه لم يجعل نعيمها ثوابا للمطيعين، ولا بلاءها عقوبة للعاصين، يا بنى لا تضيع مالك وتصلح مال غيرك، فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت! يا بنى إنه من يرحم يرحم، ومن لا يملك لسانه يندم، ومن يصمت يسلم، ومن يقل الخير يغنم، ومن يقل الباطل يأثم، يا بنى زاحم العلماء بركبتيك وأنصت إليهم بأذنيك فإن القلب يحيا بنور العلماء كما تحيا الأرض الميتة بمطر السماء[3].

وقال أكثم بن صيفى: احذر الأمين ولا تأتمن الخائن فإن القلوب بيد غيرك[4].

---

(1) المشتف: المستقصى، ويقال: استشف ما فى إنائه، استشف إذا شرب السفافة وهى باقية تبقى فى الإناء، المقتف: الأخذ بعجلة.

(2) أمر: كثر عدده، يقال أمر القوم يأمرون إذا كثر «عددهم» قال لبيد:

تعلوهم كلما ينمى لهم ساف بالمشرفى ولولا ذاك قد أمروا

(3) العقد الفريد: جـ1 ص 361. ط بولاق

(4) المرجع السابق نفس الصفحة.

المنافرات

المنافرات لون من ألوان النثر الذى كثر فى العصر الجاهلى. وصورة المنافرات فيها احتدام وعنف وجدال وخصام، ذلك أن كلا من الرجلين المتنافرين يظهر أنه أحق من الآخر بالسيادة والشرف والجاه، ويحتكمان إلى من يفصل بينهما.

وفى المنافرات نجد التباهى بالأحساب والأنساب والتغنى بالكرم والفروسية، وذم البخل وإظهار الفضائل والفخر بالآباء والأجداد الأحياء منهم والأموات.

وقد أهال الإسلام التراب على مثل هذه العادات الجاهلية وجعل الشرف والرياسة والقبول فى تقوى الله وحده لا شريك له، فهى ميزان الرجال لا الفخر بمآثر الأجداد.

ومن المنافرات التى حدثت فى العصر الجاهلى ما وقع بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة، وقد ذكرها صاحب الأغانى[1]، ولا سبيل إلى مجاراته وإسهابه فيها ونكتفى بأجزاء منها مما يوضح صورة المنافرات فى العصر الجاهلى.

قال عامر لعلقمة: والله لأنا أكرم منك حسبا، وأثبت منك نسبا، وأطول منك قصبا.

فقال علقمة: لأنا خير منك ليلا ونهارا.

فقال عامر: لأنا أحب إلى نسائك أن أصبح فيهن منك.

فقال علقمة: على ماذا تنافرنى يا عامر؟

فقال عامر: أنافرك على أنى أنحر منك للقاح، وخير منك فى الصباح، وأطعم منك فى السنة الشياح.

---

(1) الأغانى (الدار) جـ16 ص 284.

فقال علقمة: أنت رجل تقاتل والنـاس يزعمون أنى جبان، لأن تلقى العدو وأنا أمامك، أعز لك من أن تلقاهم وأنا خلفك. وأنت جواد والناس يزعمون أنى بخيل. ولست كـذلك ولكى أنافرك أنى خـير منك أثرا، وأحد منك بصـرا وأعز منك نفرا، وأسرع منك ذكرا.

فقـال عامر: ليس لبنى الأحـوص فضل على بنى مالك فى العـدد، بصرى ناقص بصرك صحيح، ولكنى أنافرك عـلى أنى أنشر منك أمة، وأطول منك قمة، وأحسن منك لمة، وأجعد منك جمة، وأبعد منك همة.

قال علقمة: أنت رجل جسيم، وأنا رجل قضيف، وأنت جميل، وأنا قبيح ولكنى أنافرك بآبائى وأعمامى... إلخ.

وظلا هكذا فى لجـاجـهمـا المر إلى أن اتفـقا علـى الذهاب إلى من يحكم بينهمـا، وطافا بكثيـر من الأحياء، ولكن أكابر العـرب الذين ذهبوا إليهم خـافوا عليهما من الشر والفتنة إلى أن ذهبا إلى هرم بن قطبة الفزارى، فقال لهما[1]:

أنتما كركبتى البعير الأدرم: تقعان إلى الأرض معا وليس فيكما أحد إلا وفيه ما ليس فى صاحبه وكلاكما سيد كريم[2].

وفى ذلك يقول لبيد بن ربيعة:

يا هرم بن الأكـرمـين منصبـا إنك قـد أوتيت حكمـا مـعجبـا

فطبق المـفـصل واغنم طيـبـا[3]

يقول: أأحكم بن عامـر الطفيل وعلقمة بن علاثة بكلمة فـصل وبأمر قاطع فتفصل بها بين الحق والباطل كما يفصل الجزار الحاذق مفصل العظمين[4].

(1) هرم بن قطبة: غير هرم بن سنان المرى، ممدوح زهير.

(2) الأغانى (الدار). جـ16 ص 292.

(3) البيان والتبيين: جـ1 ص 109.

(4) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

وعاش هرم حتى أدرك سلطان عمر بن الخطاب رضى الله عنه فسأله عمر فقال: يا هرم، أى الرجلين كنت مفضلا لو فضلت؟ فقال: لو قلت ذاك يا أمير المؤمنين لعادت جذعة. فقال عمر: نعم مستودع السر ومسند الأمر إليه أنت يا هرم، مثل هذا فليسد العشيرة.

وقال: إلى مثلك فليستبضع القوم أحكامهم[1].

(1) الأغانى: جـ 16 ص 293.

الحكم والأمثال

الحكمة قول موجز صائب، يأتي عن طريق التجارب الكثيرة والخبرات الدقيقة لأحوال الحياة، وما يكتنفها من أسرار.

فهي قول يدل على صدق وفيه إيجاز وبلاغة، ويصدر عن تفكير منظم خبير أصقلته التجارب، وعركته الحياة، فاستخلص الحكمة من دقائقها استخلاص عالم قدير، فتتعلق بها النفس، ويرتاح لها الفؤاد لما فيها من حسن البيان وروعة الأسلوب وجمال الأداء.

وبيئتنا العربية قد حفلت بالكثير من الرجال وكذا النساء الذين اشتهروا بالحكمة في العصر الجاهلي. وإذا كان لكل قبيلة شاعر يمجد أهلها ويرفع شأنها، ويشيد بمحامدها بين القبائل الأخرى - فقد كان لكل قبيلة حكيم - أيضا - تفزع إليه في الملمات وفي وقت الأزمات، فتنهل من علمه وحكمه الكثير، فينير عقولها ويبصرها بأحوالها في الحياة بما كان عنده من تجارب وخبرة وحياة.

وتعتمد الحكمة على الإيجاز وقوة التصوير وبراعة التعبير، وصفاء الذهن، وسلامة الفطرة، وهذا سر خلودها ودورانها على الألسنة في كل زمان ومكان.

وقد مدح الرسول الحكمة، وأشاد بها، فقال: الحكمة ضالة المؤمن، يأخذها ممن سمعها، ولا يبالي في أي وعاء خرجت.

ومن الذين اشتهروا بالحكمة وكثرة التجارب في العصر الجاهلي كثير، منهم: قس بن ساعدة: فقد سئل ما أفضل المعرفة قال: معرفة الرجل لنفسه. قيل له ما أفضل العلم؟ قال: وقوف المرء عند علمه، وقيل له فما أفضل المروءة؟ قال: استبقاء المرء ماء وجهه[1].

(1) العقد الفريد: جـ 1 ص 211.

ومن أقدم حكماء العرب لقمان. ويقول العتبى بلغنى أن لقمان الحكيم كان يقول: ثلاثة لا يعرفون إلا فى ثلاثة مواطن: الحليم عند الغضب، والشجاع عند الحرب، وأخوك عند حاجتك إليه[1].

ومنهم عامر بن الظرب، وأكثم بن صيفى، ومن حكمه التى ذكرها الأصمعى قوله: من صبر ظفر، وأكرم أخلاق الرجال العفو، ومن عرف قدره لم يهلك[2].

وقال أيضًا: مقتل الرجل بين فكيه[3]. ومن حكماء العرب عبد المطلب جد الرسول ﷺ، وذو الأصبع العدوانى، وهاشم بن عبد مناف، وصخرة بن ضمرة التميمى، وحاجب بن زرارة، وغير هؤلاء كثير.

وتأتى الحكمة نثرا كما سبق، وقد تأتى شعرًا، وذلك مثل قول زهير فى معلقته المشهورة:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم[4]

ومن حكيمات العرب حزام بنت الريان اليمنية، وهند بنت الخس، وبنت عامر بن الظرب وغيرها كثير.

والمثل كالحكمة، وهو كما قال المبرد: قول سائر يشبه به حال الثانى بالأول. قال المرزوقى: هو جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلة بذاتها. فتتسم

(1) الأمالى: جـ2 ص 179.

(2) المرجع السابق: ص 172.

(3) العقد الفريد: جـ1 ص 233 ط بولاق

(4) شرح القصائد العشر. 128.

بالقبول، وتشتهر بالتداول فتنتقل عما وردت منه إلى كل ما يصح منها من غير تغير يلحقها فى لفظها.

والأصل فيه التشبيه، وقولهم: «مثل بين يديه» إذا انتصب، ومعناه أشبه الصورة المنتصبة. و«فلان أمثل من فلان» أى أشبه بما له من الفضل، والمثال القصاص لتشبيه حال المقتص منه بحال الأول فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول. كقول كعب:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا وما مواعيدها إلا الأباطيل

فمواعيد عرقوب علم لكل ما لا يصح من المواعد.

قال ابن السكيت: المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له، يوافق معناه معنى ذلك اللفظ، شبهوه بالمثال الذى يعمل عليه غيره[1].

وقال إبراهيم النظام: يجمع فى المثل أربعة: لا تجمع فى غيره من الكلام:

إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية.. فهو نهاية البلاغة.

وقال ابن المقفع: إذا جعل الكلام مثلا كان أوضح للمنطق، آنق للسمع، أوسع لشعوب الحديث[2].

وللعرب قدرة واسعة على ضرب الأمثلة فى مختلف مناسباتها وهذا يدل على فكرهم الصافى وإبداعهم الخلاق، والأمثال التى وصلت إلينا تدلنا على حياة العرب الاجتماعية والثقافية، فهى مرآة صادقة لخيال العرب المرهف البديع.

والأمثال تكسب الكلام رونقًا، وبهاء، وروعة، وجمالاً، وتعمل عمل

---

(1) مجمع الأمثال: الميدانى: جـ 1 ص 5.

(2) المرجع السابق نفس الصفحة.

الإطناب، وتقوم مقام البرهان، وتجمع بين الإيجاز وإتقان التشبيه وإصابة المعنى، فهى أسيَر من الشعر.

ولما كانت الأمثال كنزا من كنوز العرب وأثرا من آثارهم الخالدة - عنى بها كثير من الأدباء والكتاب وأشهر ما وصلنا:

«جمهرة الأمثال» لأبى هلال العسكرى المتوفى سنة 395هـ، «مجمع الأمثال للميدانى» أبى الفضل المتوفى سنة 518 والأخير حسن النظام، فقد جمع فيه أكثر من ستة آلاف مثل، وسار فيه على حروف المعجم من حيث الترتيب، وجعل فى آخر كل باب منها ما جاء على أفعل للعرب ثم للمولدين، وهذا جهد مشكور لهذا العالم الكبير.

والعسكرى والميدانى لا يفرقان - على ما ظهر - بين الحكمة والمثل لأنهما جمعا فى كتابيهما بين الحكم والأمثال، وسميا الكل أمثالا. وهذا الاتجاه فيه صواب وبعد نظر، لأن الحكمة إذا اشتهرت صارت مثلا، ولأن كلا من الحكمة والمثل يؤديان دورا واحدا، هو بث العظة والعبرة فى نفوس الناس، فهدفهما واحد ومن هذا كانا على صواب فيما ذهبا إليه.

والأمثال لا بد لها من أصل ينقل عنه، وفى الإمكان فرض ذلك الأصل إذا صدر عن حيوان أو نبات أو جماد مثلا، وعلى هذا تكون الأولى حقيقية والثانية فرضية.

ومعروف أن المثل لا يتغير، بل يجرى كما جاء على الألسنة، وإن خالف النحو وقواعد التصريف، فقد جاء فى أمثالهم «اعط القوس باريها» بتسكين الياء فى باريها والأصل فتحها. وجاء أيضًا فى أمثالهم «أجناؤها أبناؤها» جمع بان وجان، والقياس الصرفى: جناتها بناتها لأن فاعلا لا يجمع على أفعال.

وتقول الصيف ضيعت اللبن بكسر التاء إذا خوطب بها المذكر والمؤنث

والاثنان والجمع. ومعنى ذلك أن المثل لا يغير، وأنهم يستجيزون فيه ما لا يستجيزون فى سائر الكلام[1]. فمن الأمثال الحقيقية قولهم:

- من هرم:

هو ابن سنان بن حارثة المرى وكان لا يليق شيئا من ماله لفرط جوده فحرقه قومه باللوم، وهموا بالأخذ على يديه خوفا عليه من الفقر فقال: ما ظننت أنى أعيش إلى زمان ألام فيه على الجود، فركب ناقة له تسمى الجهول، وأخذ فى الفيفاء أنفا وحمية، فلم يعاين هو ولا ناقته بعد فسمى ضالة غطفان. وفيه يقول زهير بن أبى سلمى:

إن الرزية لا رزية مثلها ... ما تبتغى غطفان يوم أضلت

إن الركاب لتبتغى ذامرة ... بجنوب نخل إذا الشهور أحلت

يبغين خير الناس عند شديدة ... عظمت مصيبته هناك وجلت[2]

- ما يوم حليمة بسر:

هى حليمة بنت الحارث بن أبى شمر وكان أبوها وجه جيشا إلى المنذر بن ماء السماء، فأخرجت لهم طيبا من مركن فطيبتهم[3].

قال المبرد: هو أشهر أيام العرب، يقال ارتفع فى هذا اليوم من العجاج ما غطى عين الشمس حتى ظهرت الكواكب.

(ويضرب مثلا فى كل أمر متعالم مشهور).

قال النابغة يصف السيوف:

---

(1) الفن ومذاهبه فى النثر العربى: شوقى ضيف: ص 2.

(2) المستقصى فى أمثال العرب: الزمخشرى: جـ 1 ص 54 ط الهند حيدر أباد.

(3) مجمع الأمثال: الميدانى: جـ 2 ص 272.

تخيـرن من أزمـان يوم حليـمـة إلى اليوم قد جربن كل التجارب

تقـد السلوقى المضـاعف نسجـه ويوقد بالصفـاح نار الحباحب[1]

- لا مخبأ لعطر بعد عروس، ويروى لا عطر بعد عروس:

قال الفـضل: أول من قال ذلك امرأة مـن عذرة يقال لهـا أسماء بنت عـبد الله، وكان لها زوج من بنى عمـها يقال له عروس، فمات عنها، فـتزوجها رجل من غير قومهـا يقال له نوفل، وكان أعسر أبخر بخيلا دمـيما، فلما أراد أن يظعن بها قالت له لو أذنت لى فـرثيت ابن عمى وبكيت عند رمسه فقال افـعلى، فقالت أبكيك يا عـروس الأعراس، يا ثعلبـا فى أهله وأسدا عند البـاس مع أشيـاء ليس يعلمها الناس قـال: وما تلك الأشياء؟ قالـت كان عند الهمة غيـر نعاس، ويعمل السيف صبيحات البـاس، ثم قالت: يا عروس الأغر الأزهر، الطيب الخيم الكريم المخبـر، مع أشياء له لا تذكر قـال: وما تلك الأشيـاء؟ قالت: كان عيـوفا للخنا والمنكر، طيب النكهة غيـر أبخر، أيسر غير أعسر، فـعرف الزوج أنها تعرض به، فلمـا رحل بها قـال: ضمى إليك عطـرك وقد نظر إلى قـشوة عطرها مطروحـة، فقالت: لا عطر بعد عروس، فذهب مثلا (يضرب لمن لا يدخر عنه نفيس)[2].

- أظلم من أفعى[3]:

قـال أبو بكر بن دريد: العـرب تقول: هو أظلم مـن أفعى، وذلك أنهـا لا تحتفر جحرا، إنما تهجم على الحيات وتدخل فى كل شق وثقب.

قال الشاعر:

كـأنما وجـهك ظل من حـجـر ذو خـضـل فى يوم ريح ومـطر

---

(1) مجمع الأمثال: الميدانى: جـ 2 ص 272.

(2) المرجع السابق- جـ 2 ص 212 ط السعادة.

(3) الأمالى - القالى - جـ2 ص 12 (ط دار الكتب).

فأنت كالأفعى التى لا تحتقر ثم تجى سادرة فتنحجر[1]

- إن الشقى وافد البراجم[2]:

قاله عمرو بن هند الملك، وكان سويد بن ربيعة التميمى قتل أخاه وهرب، فأحرق به مائة من تميم: تسعة وتسعين من بنى دارم وواحدا من البراجم، فلقب بالمحرق.

- صارت الفتيان حمما[3]:

هذا المثل من قول الحمراء بنت ضمرة بن جابر. وقصة هذا المثل والذى قاله أن بنى تميم قتلوا سعد بن هند أخا عمرو بن هند الملك، فنذر عمرو ليقتلن بأخيه مائة من بنى تميم، فجمع أهل مملكته فسار إليهم، فبلغهم الخبر، فتفرقوا فى نواحى بلادهم، فأتى ديارهم فلم يجد إلا عجوزا كبيرة وهى الحمراء بنت ضمرة، فلما نظر إليها وإلى حمرتها قال لها: إنى لأحسبك أعجمية، فقالت: لا. والذى أسأله أن يخفض جناحك ويهد عمادك ويضع وسادك، ويسلبك بلادك، ما أنا بأعجمية، قال: فمن أنت؟ قالت: أنا بنت ضمرة بن جابر، ساد معداً كابراً عن كابر، وأنا أخت ضمرة بن ضمرة، قال: فمن زوجك؟ قالت: هوذة بن جرول، قال: وأين هو الآن؟ أتعرفين مكانه؟ قالت: هذه كلمة أحمق، ولو كنت أعلم مكانه حال بينك وبينى، قال: وأى رجل هو؟ قالت: هذه أحمق من الأولى، أعن هوذة يسأل؟ وهو والله طيب العرق، سمين العرق، لا ينام ليلة يخاف، ولا يشبع ليلة يضاف، يأكل ما وجد، ولا يسأل عما فقد، فقال عمرو: والله لولا أنى أخاف أن تلدى مثل أبيك وأخيك، وزوجك لاستبقيتك فقالت: وأنت والله لا تقتل إلا نساء أعاليها ثدى وأسفلها دمى، ووالله ما أدركت ثأرا، ولا محوت

(1) الأمالى - القالى - جـ 2 ص 12 ط دار الكتب.

(2) مجمع الأمثال - الميدانى - جـ1 ص 9.

(3) المرجع السابق - جـ1 ص 394.

عارا. وما من فعلت هذه به بغافل عنك، ومع اليوم غدا، فأمر بإحراقها فلما نظرت إلى النار فقالت: ألا فتى مكان عجوز؟ فذهبت مثلا، ثم مكثت ساعة فلم يفدها أحد، فقالت هيهات! صارت الفتيان حمما، فذهب مثلا، ثم ألقيت فى النار، ولبث عمرو عامة يومه لا يقدر على أحد، حتى إذا كان فى آخر النهار أقبل راكب يسمى عمارا توضع به راحلته حتى أناخ إليه، فقال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا رجل من البراجم؟ قال: فما جاء بك إلينا؟ قال: سطع الدخان، وكنت قد طويت منذ أيام فظننته طعاما. فقال عمرو: إن الشقى وافد البراجم، فذهب مثلا، وأمر به فألقى فى النار، فقال بعضهم: ما بلغنا أنه أصاب من بنى تميم غيره، وإنما أحرق النساء والصبيان.

وفى ذلك يقول جرير:

وأخزاكم عمرو كما قد ضربتم ... وأدرك عمارا شقى البراجم

ولذلك عيرت بنو تميم بحب الطعام لما لقى هذا الرجل، قال الشاعر:

إذا مات ميت من تميم ... فسرك أن يعيش فجيء بزا

بخبز أو بلحم أو بتمر ... أو الشيء الملفف فى البجاد

تراه ينقب فى الآفاق حولا ... ليأكل رأس لقمان بن عاد[2]

- أشأم من قاشر[3]:

هو فخر لبنى عوافة بن زيد مناة بن تميم، وكان لقوم إبل تذكر فاستطرقوه رجاء أن يؤنث إبلهم، فماتت الأمهات والنسل، ويقال قاشر اسم رجل وهو قاشر ابن مرة أخو زرقاء اليمامة وهو الذى جلب الخيل إلى جو حتى استأصلهم.

---

(1) مجمع الأمثال - الميدانى - جـ1 ص 395.

(2) المرجع السابق جـ1 ص 380.

- خذ من جذع ما أعطاك[1]:

جذع: اسم رجل يقال له جذع بن عمرو الغسانى، وكانت غسان تؤدى كل سنة إلى ملك سليح دينارين عن كل رجل، وكان الذى يلى ذلك سبطة بن المنذر السليحى، فجاء سبطة إلى جذع يسأله الدينارين فدخل جذع منزله ثم خرج مشتملا على سيفه، فضرب به سبطة حتى برد، ثم قال: خذ من جذع ما أعطاك وامتنعت غسان من هذه الأتاوة بعد ذلك.

- مواعيد عرقوب:

قال أبو عبيدة: هو رجل من العماليق، أتاه أخ له يسأله، فقال له عرقوب إذا طلعت هذه النخلة فلك طلعها، فلما اطلعت أتاه للعدة، فقال: دعها حتى تصير بلحا، فلما أبلحت قال: دعها حتى تصير زهراً، فلما زهرت قال: دعها حتى تصير رطبا، فلما أرطبت قال: دعها حتى تصير تمراً فلما أتمرت عمد إليها عرقوب من الليل فجذها ولم يعط أخاه شيئا، فصار مثلا فى الخلف وفيه يقول الأشجعى:

وعدت وكان الخلف منك سجية مواعيد عرقوب أخاه بيترب

ويروى بيثرب. وهى مدينة الرسول ﷺ ويترب بالتاء وفتح الراء- موضع قريب من اليمامة. وقال آخر:

وأكذب من عرقوب يترب لهجة وأبين شؤما فى الحوائج من زحل[2]

خذه ولو بقرطى مارية[3]:

هى مارية بنت ظالم بن وهب، وأختها هند الهنود امرأة حجر آكل المرار الكندى، وقال أبو عبيدة: هى أم ولد جفنة وقال حسان:

---

(1) مجمع الأمثال - الميدانى - جـ1 ص 329.

(2) المرجع السابق جـ2 ص 311.

(3) المرجع السابق - جـ2 ص 231.

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

يقال إنها أهدت إلى الكعبة قرطيها وعليهما درتان كبيضتى حمام لم ير الناس فى مثلهما ولم يدروا ما قيمتهما.

«يضرب فى الشىء الثمين، أى لا يفوتك بأى ثمن»[1].

- الصمت حكم وقليل فاعله[2]:

الحكم: الحكمة، ومنه قوله تعالى: ﴿... وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم]: ومعنى المثل: استعمال الصمت حكمة، ولكن قل من يستعملها.

يقال: إن لقمان الحكيم دخل على داود عليهما السلام، وهو يصنع درعا فهم لقمان أن يسأله عما يصنع، ثم أمسك ولم يسأل حتى تم داود الدرع، وقام فلبسها، وقال: نعم أداة الحرب، فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله.

- من لم يأس على ما فاته أراح نفسه[3]:

قاله أكثم بن صيفى:

«يضرب فى التعزية عند المصيبة وحرارتها وترك التأسف عليها».

- من يطع عريبا يمسى غريبًا[4]:

يعنى عريب بن عمليق - ويقال عملوق بن لاوذ بن سام بن نوح وكان مبذرا للمال.

---

(1) مجمع الأمثال - الميدانى جـ2 ص 231.

(2) المرجع جـ2 ص 402.

(3) المرجع جـ2 ص 275.

(4) المرجع جـ2 ص 298.

- من يمش يرض بما ركب[1]:

يضرب للذى يضطر إلى ما كان يرغب عنه.

- أنجد من رأى حضنا[2]:

أنجد أى بلغ نجداً من رأى هذا الجبل.

يضرب فى الدليل على الشىء، أى ظهر حصول المراد وقربه[3].

والأمثال الفرضية هى ما حكيت على لسان نبات أو جماد أو حيوان، وقد تنفس فيها الأدباء والحكماء والوعاظ تعبيرا عما فى نفوسهم من خواطر ومشاكل، وقالوها على ألسنة الطير والحيوان لينجوا من البطش والاستبداد وخوفا من الحكام وكان لها تأثيرها الكبير فى تحريك النفوس وثورة الشعوب بدون أن يتعرضوا للوم أو خطر.

ومن أبدع الكتب فى هذا الاتجاه كتاب كليلة ودمنة، وكتاب العيون اليواقظ، وفاكهة الخلفاء.

ومن الأمثلة الفرضية قولهم: «فى بيته يؤتى الحكم».

وأصله أن الثعلب والضبع أتيا الضب فى جحره فقالا: أبا جميل: قال: أجبتكما. قالا: جئناك نختصم. قال: فى بيته يؤتى الحكم. قالت الضبع: فتحت عينى. قال: فعل النساء فعلت. فلقطت ثمرة. قال: حلوا جنيت. قال: فاختطفها ثعالة. قال: على نفسه بغى ثعالة قالت: فلطمته لطمة. قال: حقا قضيت. قالت: فلطمنى أخرى.

---

(1) المرجع جـ 2 ص 312.

(2) المرجع جـ2 ص 337.

(3) أى بلغ نجدا من رأى هذا الجبل.

قال: كان حرا فانتصر. قالت: فاحكم الآن بيننا قال:

حدث امراة حديثين وإن لم تفهم فأربعة[1].

ومنها: أن رجلا من بنى إسرائيل صاد قبرة فقالت ما تريد أن تصنع بى قال: أذبحك فآكلك. قالت: والله لا أشفى من برم، ولا أغنى من جوع، ولكنى أعلمك ثلاث خصال هى خير لك من أكلى. أما الواحدة فأعلمها وأنا فى يدك، والثانية إذا صرت على الشجرة، والثالثة إذا صرت على الجبل، فقال: هات. قالت: لا تلهفن على ما فاتك. فخلى عنها، فلما صارت على الشجرة قال: هات الثانية، قالت: لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون، ثم طارت فصارت على الجبل فقالت: يا شقى لو ذبحتنى لأخرجت من حوصلتى درة فيها زنة عشرين مثقالا.

فعض على شفتيه، وتلهف ثم قال: هات الثالثة. قالت له: أنت قد نسيت الاثنتين فكيف أعلمك الثالثة. ألم أقل لك لا تلهفن على ما فاتك فقد تلهفت على إذ فتك. وقلت لك لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون فصدقت وأنا وعظمى وريشى لا أزن عشرين مثقالا؛ فكيف يكون فى حوصلتى ما يزنها[2].

(1) العقد الفريد جـ1 ص 329 ط بولاق.

(2) المرجع السابق نفس الصفحة.

الفصل الثانى

الشعر الجاهلى وفنونه

من العسير صب الشعر العربى فى قوالب مميزة، يدخل فيها كل ما جادت به قرائح الشعـراء على مر العصور؛ لأن الأبواب والموضوعات التى يتناولهـا الشعراء تختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال، ومكانة الشعراء ومركزهم الاجتماعى. فمنهم من هو صعلوك فـاتك، أو لص خطير، أو فيلسوف عالم، أو زاهد فـقير. على أنه قامت مـحاولات لتبويب الشـعر العربى وحصـره فى عدة أبواب، تندرج تحتها أغراض الشعر فى مختلف المناسبات كمحاولة أبى تمام فى حماسته التى قسم فيـها الشـعر إلى عـشرة أبواب هى: الحـماسة، والمراثـى، والنسيب، والهـجاء، والمديح، والصفات، والسير، والنعـاس، والملح، وذم النساء. وفى الإمكان حصر هذه الأبواب فى سبعة فقط هى: الحـماسة، والهجاء، والرثاء، والمدح، والوصف والأدب والنسيب.

وحصـر البارودى أقسام الشـعر فى: الأدب، والمديح، والرثاء، والوصف، والنسيب، والهجـاء، والزهد. وهو تقسيم ضيق كسـابقه، لأنه كان من الممكن أن يندمج الزهد فى الأدب وأن يفـرد بابا خاصـا للحمـاسة والفخـر، ولكنه رأى أن يدمج الفخر والحماسة فى المديح؛ لأن الذى يفتخر أو يتحمس إنما يمدح نفسه، أو يعلى قومه ويشيد بأعمالهم وبطولاتهم.

وقد حاول البحترى تقـسيم الشعر، فجعله فى مائه وسبعيـن بابا حصر فيها الموضوعات التى طرحها الشعراء. وهذا التقـسيم على سعته لا يمكن أن يستوعب نتاج الإنسانية بحال، لأن الفكر الإنسانـى فى إبداع دائم وتجديد مستمر على طول الزمان.

وسنقتـصر فى مقامنا على تقـسيم أبى تمام؛ لأنه ملائم كل الملاءمـة للشـعر الجاهلى الذى نتناوله.

الحماسة

الحماسة فى اللغة الشجاعة والفروسية، والشعر الحماسى: هو الذى يمجد القتال ويفتخر بكثرة الرجال، ويستهين بالموت ويطالب بأخذ الثأر، ويرفع من حمية المقاتلين، ويشد أزرهم فى المعارك.

ولا شك أن حياة العرب كانت صالحة لظهور هذا اللون الذى كثر عندهم لأسباب منها الخصام المر الذى كان بين القبائل، والخلاف حول الماء والكلأ، فكانت الحروب تقوم لأتفه الأسباب وأوهى الدواعى. واقترن هذا الاتجاه بالحديث عن كثير من الفضائل التى كانت شائعة عندهم كالكرم، والوفاء وحماية الجار، والصبر على المكروه فى قتال الأعداء. ومن هنا يظهر أن الشعر الحماسى لا يمجد الشجاعة فقط بل يواكبها بالحديث عن خصال أخرى، وأفعال حميدة، وعلى هذا يمكن أن نعتبر الفخر بالقبيلة وإظهار الفروسية، والتغنى بحب فتاة يحبها الفارس من هذا اللون.

ويظهر هذا الاتجاه فى قصائد المديح التى تعلى من شأن القبيلة، وتظهر عزها فى القديم، وترفع من درجة رجالها العظام.

وفى الرثاء نجد هذا اللون أيضا، والسبب فى ذلك يرجع إلى أنهم كانوا يمجدون الأبطال إذا سقطوا صرعى فى مواطن القتال، ويشيدون بمكارم أخلاقهم وشجاعتهم التى فقدتها القبيلة، ويعلنون على الناس أنهم سيذكرون أبطالهم وسيأخذون بثأرهم مهما طال الوقت وبعد الزمان.

ومن البديهى أن هذا اللون من الشعر إنما ينمو ويزدهر فى عهد البداوة، حيث ينعدم القانون ويضعف القصاص، وتسود شريعة الغاب، ويقل أو ينعدم فى عصور الحضارة حيث يوجد التقدم والقانون.

ولهذا يعتبر العصر الجاهلى العصر الزاهر لهذا اللون لما كثر فيه من طيش وسفه، واحتكام إلى الرماح والسلاح.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك معلقة عمرو بن كلثوم التغلبى التى أنشدها أمام عمرو بن هند ملك الحيرة، يحذره فيها ويحذر قبيلة بكر من عسفها بقومه التغلبيين قال فيها:

أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظرنا نخبرك اليقينا

بأنا نورد الريات بيضا ... ونصدرهن حمرا قد روينا

وأيام لنا غر طوال ... عصينا الملك فيها أن ندينا

وسيد معشر قد توجوه ... بتاج الملك يحمى المحجرينا

تركنا الخيل عاكفة عليه ... مقلدة، أعنتها صفونا

متى ننقل إلى قوم رحانا ... يكونوا فى اللقاء لها طحينا[1]

نطاعن ما تراخى الناس عنا ... ونضرب بالسيوف إذا غشينا

نشق بها رؤوس القوم شقا ... ونخليها الرقاب فيختلينا

وقال عدى بن زيد السكونى يمدح بنى شيبان يوم ذى قار[2]:

إنى حمدت بنى شيبان إذ خمدت ... نيران قومى، وفيهم شبت النار

ومن تكرمهم فى المحل أنهم ... لا يعلم الجار فيهم أنه الجار

حتى يكون عزيزاً من نفوسهم ... أو أن يبين جميعًا وهو مختار

كأنه صدع فى رأس شاهقة ... من دونه لعتاق الطير أو كار

(1) شرح القصائد العشر: التبريزى: ص 228.

(2) الحماسة: 1 - 114.

ومن هذا القبيل قول طرفة[1]:

إذا القوم قالوا من فتى خلت أننى عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد

فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى وإن تقتنصنى فى الحوانيت تصطد[2]

وقول عنترة:

أثنى على بما علمت، فإننى سمح مخالقى إذا لم أظلم

فإذا ظلمت فإن ظلمى باسل مر مذاقته كطعم العلقم

وحليل غانية تركت مجدلا تمكو فريصته كشدق الأعلم[3]

سبقت يداى له بعاجل ضربة ورشاش نافذة كلون العندم

ولأوزان الشعر وبحوره أثر فى قوة الأسلوب وبراعة الأداء (فالطويل) يتسع للحماسة وكذا (الوافر) الذى يصلح كما فى قصيدة عمرو بن كلثوم التى ذكرنا بعضها سابقا.

(1) شرح القصائد العشر: ص 78.

(2) المرجع السابق الصفحة نفسها.

(3) تمكو: تصفر. الغانية: هى التى استغنت بزوجها. الفريصة: الموضع الذى يرعد من الدابة والإنسان إذا خاف. الأعلم: المشقوق الشفة العليا والمراد بالأعلم هنا الجمل.

الوصـــــف

الوصف: الكشف والإظهار، وفى الإمكان إرجاع الشعر كله إلى هذا اللون لأنه باب واسع النطاق.

والمراد بالوصف فى الأدب اللون الذى يعتمد على الخيال المحلق فى رسم الإنسان والحيوان والحوادث، والطبيعة صامتة أو متحركة، يعبر عن كل هذا باللغة التى تشبه ريشة الرسام الماهر القدير.

وقد أبدع العرب فى الجاهلية فيه وتناولوه بعواطفهم الصادقة المبدعة فوصفوا كل ما شملته أرضهم، وتناولته حياتهم من سماء وسحاب، وأمطار وبروق وضياء وظلام، وألوان، ونبات وحيوان إلى غير ذلك من مظاهر الحياة والطبيعة وما فيها من جمال بديع.

وكانت عاطفتهم هى الدافع الأول فى هذا الاتجاه فكانت تلونه حسب نظرتهم، وتخلع عليه من المهابة والجلال أو القوة والبأس حسب ما تتراءى لها وما هى عليه من الحب أو الكره أو التفاؤل أو التشاؤم، وغير ذلك.

فإذا كان الموصوف حربا دائرة مثلا رأينا الأبطال صرعى والسيوف اللامعة والسهام المتطايرة، والغضب الأحمر، والدم الجارى، والخصام القديم، والثأر المتربص، بخلاف ما إذا كان الموصوف روضة غناء أو ناقة سريعة أو فرسًا كريمًا.

ولا يخلو فن من الوصف، فهو فى الحرب حماسة، وفى الجمال نسيب، وفى الفضائل مديح، وفى الحزن رثاء، والخيال يصور كل هذا بصور جميلة ملموسة محببة إلى النفس والفؤاد، فالشمس ذهب، والشعر ليل، والثدى حق، والخد ورد، والنسيم أنفاس الأحبة إلى غير ذلك حتى يخيل للقارئ أنه أمام الموصوف حيث يتأمل ملامح الجمال والجلال فيه.

وفى العصر الجاهلى تناول الشعراء هذا اللون وأبدعوا فيه. فبعضهم برع فى وصف الخيل وبعضهم فى الإبل، وبعضهم فى الخمر وغير ذلك مما وقعت عليه أعينهم فتناولوه تناولا قويا يعجب النفس، ويلقى عليها الضياء والإشراق.

قال الأصمعى:

إن نعات الخيل المجيدين ثلاثة:

أبو داود، وطفيل الغنوى، والنابغة الجعدى[1].

فأبو داود يصف حصانه وصفا رائعًا دقيقًا، فهو ضامر الجسم من كثرة الجرى، قوى البصر، طويل العنق، مستقيم صلب، شديد الطرف يسبق من يقوده، تهتز جميع أعضاء جسمه إذا جرى. وهو متكامل الأعضاء وتؤدى حركاته فى سرعة ونشاط وحيوية. قال:

وقد أغتدى فى بياض الصباح ... وأعجاز ليل مولى الذنب

بطرف ينازعنى مرسنا ... سلوف المقادة، محض النسب[2]

طواه القنيص وتعداؤه ... وإرشاس عطفيه حتى شسب[3]

بعيد مدى الطرف،خاظى البضيع ... ممر القوى، مسمهر العصب[4]

وقال امرؤ القيس يصف فرسه:

وقد أغتدى والطير فى وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل

مكر مفر مقبل مدبر معًا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل[5]

---

(1) الشعر والشعراء: ص 28 ط أولى سنة 1322.

(2) سلوف المقادة: رسنه طويل، كناية عن طول عنقه.

(3) القنيص: الصيد. إرشاش عطفيه: تعريقه حتى ضمر. شسب: ضمر.

(4) خاظى البضيع: ممتلىء اللحم. ممر: مفتول. المسمهر: الشديد.

(5) شرح القصائد العشر: ص 40.

كـميت يزل اللبـد عن حال متنه كـمـا زلت الصـفـواء بـالمتنزل

له أيطلا ظبى وسـاقـا نعـامـة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل[1]

وطرفة يصف ناقته فى براعة قائلا[2]:

فـإذا تغـالى لحـمـهـا وتحسـرت وتقطعت بـعـد الكلال خـدامـهـا

فلهـا هبـاب فى الـزمـام كـأنـهـا صهباء راح مع الجنوب جهامها[3]

أو ملمع وسـقت لأحـقب لاحـه طرد الفحول وضربها وكدامها[4]

يعلو بهـا حدب الأكام مـسحـجا قـد رابه عصـيانـها ووحـامهـا[5]

بأحـزة الثلبـوت يربأ فـوقـهـا قـفـر المراقب خـوفهـا آرامـهـا[6]

وبعـد، فالوصف يدور فى غـالب أمره على الحس الفـردى الذى يشعـر به صاحبه عندما يكون فى حال تماثل حال الشاعر الذى يصور ذلك.

---

(1) شرح القصائد العشر: ص 40.

(2) المرجع السابق: ص 144.

(3) هباب: هيج ونشاط. صهباء: سحابة صهباء.

(4) الملمع: الذى استبـان حملها. وسقت: جمعت. الأحـقب: الذى فى موضع الحقب منه بياض. لاحه: غيـره. كدامها: عضاضها. شـبه ناقته بسحاب قد هراق مـاؤه فهو أسرع لمره أو بأتان يتبعها حمار هذه صفته.

(5) الحدب: ما ارتفع من الأرض. الأكام: الجبال الصغار الواحدة أكمة.

المسحج: المعضض قد عضعضته الحمير.

الوحام: الشهوة على الحمل.

(6) الأحزة: جـمع حزيز وهو مـا غلظ من الأرض. الثلبـوت: ماء لبنى ذبيـان. يربأ: يعلو ويشرف. المراقب مواضع مشرفة ينظر منها من يمر بالطريق. الآرام: حجارة تجعل أعلاما ليعرف بها الطريق.

أما الإحساس الجماعى فلا يصوره الشعر فى العصر الجاهلى؛ لأن حياة الجماعة لم تكن واضحة المعالم فى تلك العصور.

فالشاعر يتحدث عن نفسه أو يمس نفسه، لا يكاد يتجاوزها بالنظرة البعيدة أو الفكرة الشعبية.

على أن هذا يغض من قيم الوصف العربى فقد فطر الشعب العربى على ثوران النفس، وتوقز الحس لا يطمئن ويهدأ حتى يفكر ويتعمق، فشعره قائم على البديهة والارتجال أو ما يشبه الارتجال، ومن كان هذا شأنه لا يرضى من شعره إلا بما يرضى عاطفته ويعبر عن شعوره[1].

(1) الوصف فى الشعر العربى عبد العظيم قناوى، ص 54 ط الحلبى.

الرثـــاء

الرثاء فن من فنون الشعر العربى وأشهرها وأكثرها اتساعا، لأن الموت شامل للجميع فـى كل زمان ومكان، وهو فن الأسى، ومجال الحزن، ومـعرض التكريم وذكر الفضائل؛ والحسنات والأعمال الجليلة التى سيخلدها الدهر والتاريخ.

وفى معـرض الرثاء يبدو الحـزن، ويسيطر الألم، وتنطوى النفـس، ويظهر الجزع لهذا الوقع الفادح، والمصاب الجلل العظيم.

وأسلوب الرثاء فى العادة سهل ودقيق، وخـاصة إذا صدر عن نفس مكلومة وصدر محترق بلغ به الأسى والحزن مداه. وقد قيل لأعرابى: ما بال المراثى أجود أشعاركم؟ قال: لأنا نقولها وقلوبنا تحترق[1].

ويتأثر الرثاء باتجاهات تنوعه كذكر فلسفة الموت والحياة، والتهويل فى المصيبة وتعديد أعمال الميت وأمجاده وجعل موته عظة وعبرة.

ويظهر من خلال هذا الإشارة بمجد أسرته أو أحد أقاربه أو غير ذلك.

ولا بد أن نعـثر فى الرثاء على صـور كثـيرة فيـها الأسى والخـراب والثكل والتـرمل، والعويل والبـكاء، وهول الكارثة، وعظم الفـجيـعة، وشـدة الموقف، واليأس، والصبر، والألم وغير ذلك تبعـا لقوة عاطفة الشاعر ومدى تأثره بالموقف وشدة معايشته له.

وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفـجع بين الحسرة مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام إن كان الميت ملكا أو رئيسا كبيرا كما قال النابغة فى حصن بن حذيفة بن بدر[2].

---

(1) البيان والتبيين: جـ2 ص 321 ط لجنة التأليف.

(2) العمدة: جـ 2 ص 119.

يقولون حصن ثم تأبى نفوسهم وكيف بحصن والجبال جنوح
ولم تلفظ الموتى القبور ولم تزل نجوم السماء والأديم صحيح
فعما قليل ثم جاء نعيه فظل ندى الحى وهو ينوح

قال لبيد بن ربيعة يرثى النعمان:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفر منها الأنامل
وكل امرئ يوما سيعلم غيبه وإذا حصلت عند الإله الحصائل
إذا المرء أسرى ليلة خال أنه قضى عاملا والمرء ما دام عامل
فقولا له إن كان يقسم أمره ألما يعظك الدهر؟ أمك هابل
فتعلم أن لا أنت مدرك ما مضى ولا أنت مما تحذر النفس وائل
فإن أنت لم ينفعك علمك فانتسب لعلك تهديك القرون الأوائل
وإن لم تجد من دون عدنان والداً ودون معد فلتدعك العواذل

والنساء أشجى الناس قلوبا عند المصيبة، وأشدهم جزعا على هالك، لما ركب الله عز وجل فى طبعهن من الخور وضعف العزيمة.

انظر إلى قول جليلة بنت مرة ترثى زوجها كليبا، حين قتله أخوها جساس:

يا قتيلا قوض الدهر به سقف بيتى جميعا من عل
ورمانى فقده من كثب رمية المصمى به المستأصل
هدم البيت الذى استحدثته وسعى فى هدم بيتى الأول
مسنى فقد كليب بلظى من ورائى ولظى مستقبلى

ليس من يبكى ليومين كمن ... إنما يبكى ليوم ينجلى

درك شافه وفى ... دركى ثأرى ثكل المثكل

ليته كان دمى فاحتلبوا ... دركا منه دمى من أكحلى[1]

(1) العمدة: جـ 2 ص 124.

المدح والهجاء

المدح فن الذوق العالى والأدب الجم وضده الذم والهجاء فن الكره والبغض والاحتقار؛ لأن الشاعر يتوجه بمدحه لمن يعظمه فيشيد به بين الأنام ويرفعه أسمى المنازل والدرجات، وبالعكس الهجاء الذى يصب فيه الشاعر جميع ما يراه من معايب على من يهجوه.

وعلى الشاعر أن يركز على الصفات اللائقة بالممدوح كالعفة والكرم والشجاعة والعدل والإقدام ويضع كل هذا فى موضعه بحيث يكون ملائما لحال الممدوح ملكا أو عظيما أو قائدا أو أميرا أو كاتبا، ويبرز الأعمال والآثار التى تتصل به حتى يكون المدح موضوعيا هادفا.

ومن الأفضل عدم الفحش وكثرة السباب فى الهجاء والاقتصار على التعريض والسخرية مع سهولة الألفاظ وقرب المعانى وإيضاح الكلام.

وقد وجد المدح فى الشعر الجاهلى بصورة قوية وكان يتجه إلى من يستحقه من الرجال العظماء نتيجة ما قدموه من أعمال جليلة يستحقون عليها المدح والثناء.

وكانت منزلة الشاعر سامية خطيرة إلى أن انتشر التكسب بالشعر وشاع هذا الاتجاه الذى أدى إلى خفوت منزلة الشعراء.

قال صاحب العمدة[1]: وكانت العرب لا تتكسب بالشعر وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع على أداء حقها إلا بالشكر، إعظاما لها، كما قال امرؤ القيس بن حجر يمدح بنى تيم رهط المعلى.

أقر حشا امرؤ القيس بن حجر بنو تيم مصابيح الظلام

(1) العمدة: جـ 1 ص 49.

لأن المعلى أحسن إليه، وأجاره حين طلبه المنذر بن ماء السماء لقتله بنى أبيه.

وقال أيضا لسعد بن الضباب:

سأجزيك الذى دافعت عنى وما يجزيك عنى غير شكرى[1]

فأخبره أن شكره الغاية فى مجازاته حتى نشأ النابغة الذبيانى فمدح الملوك وقبل الصلة على الشعر وخضع للنعمان بن المنذر وكان قادرا على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته أو من سار إليه من ملوك غسان، فسقطت منزلته، وتكسب زهير ابن أبى سلمى بالشعر يسيرا مع هرم بن سنان، فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجرا يتجر به نحو البلدان.

ومن أمثلة المدح قول زهير فى الحارث بن عوف، وهرم بن سنان:

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعد ما تبزل ما بين العشيرة بالدم

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

يمينا لنعم السيدان وجدتما على حال من سحيل ومبرم

تداركتما عبسا وذبيان بعد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا بمال ومعروف من القول نسلم[2]

وقال يمدح هرما[3]:

لمن طلل برامة لا يريم عفا وخلاله حقب قديم[4]

(1) العمدة: جـ1 ص 49.

(2) مختارات ابن الشجرى: ص 8.

(3) رامة: موضع. لا يريم: لا يبرح. الحقب: بضمتين الدهر الطويل.

(4) العرصات: جمع عرصة وهى ساحة الدار والرسوم والآثار. =

تحـــمل أهله عنه فـــبـــانوا وفى عـــرصـــاته منهم رســـوم

لعـمـرو أبيك مـا هرم بن سلمى بملـحى إذا اللؤمـــاء ليـــمـــوا

لا ساهى الفـؤاد ولا عـيـبى اللـ ـسان إذا تشـاجـرت الخـصـوم

ومن الهجاء قول المر بن أبى خازم يهجو أوس بن حارثة بن لأم الطائى[1]:

ألا أبـلغ بـنـى لام رســـــولا فـبـئس مـحل راحلة الغـريب

ومـــا أوس ولو ســـودتموه بمخـشى العـــرام ولا أريب[2]

أتوعدنـى بقومك يا ابن سـعدى وذلك مـن ملمـــات الخـطوب

وحـولى من بـنى أسـد عـديد مبن بيـن شـبـاب وشـيب[3]

هم ضـربوا قوانس خـيل حجـر بجنب الرده فى يوم عـصـيب[4]

وهم تركـوا عـتـيبـة فى مكر بطـعنة لا ألـف ولا هيـوب[5]

وهم تركـوا غـداة بنى نمـيـر شـريحـا بن ضـبـعـان وذيب[6]

وهم ردوا الجـفـار على تميم بكل سـمـيـذع بطـل نجيب[7]

---

(1) مختارات ابن الشجرى: ص 21 ط الاعتماد.

(2) سودتموه: جعلتموه سيدا. والعرام: الشراسة والأذى. الأريب: العاقل.

(3) المبن: المقيم.

(4) القوانس: جـمع قونس وهو عظم ناتئ بين أذنى الفـرس. حجر: هو الحـارث أبو امرئ القيس قتله بنو أسد. الرده: موضع فى بلاد بنى قيس.

(5) عتـيبـة: ابن الحارث بن شهـاب طعنه ذؤاب الأسدى. المكر: المعـركة. الألف: الثـقيل البطىء الهيوب: الخائف

(6) شريح: هو شريح بن مالك القشيرى من بنى عامر بن صعصعة.

(7) يوم الجفار: يوم من أيام العرب انتصر فيه أسد على بنى تميم. السميذع: الشجاع.

النسيب[1]

الحديث عن المحبوبة وذكر وصالها وصدها والإشادة بجمالها يسمى بالغزل، وهو والنسيب والتشبيب بمعنى واحد.

وقد شاع هذا اللون عند العرب فى العصر الجاهلى وغيره لأنهم شعروا فى صحرائهم الموحشة بحاجتهم إليها لتخفف عنهم ما ألم بهم من ضيق وحرمان.

فالشعراء على اختلافهم تحدثوا عن المرأة، وتغنوا بجمالها وشكوا هجرها وفراقها، ووصفوا مفاتن جسدها، وتصوروها فى كل ما له صلة بها أو ما يشبهها من الديار والبروق والرياح والنبات والحيوان والآثار.

ولهذا كان للنسيب النصيب الأكبر فى الشعر الجاهلى ولما كان عندهم من حط وترحال، وانتقال من مكان إلى مكان فكان الفراق ثم اللقاء والوصال.

فالشاعر فى أيام الفراق يتمثل حبيبته ويذكرها ويناجيها ويناديها، ويضفى عليها صفات جميلة محببة إلى نفسه وهواه، وفى أيام اللقاء يتلطف إليها ويبثها ما عنده من لوعة، وألم، وهيام فى أسلوب عذب رقيق.

قال ابن رشيق[2]:

حق النسيب أن يكون حلو الألفاظ رسلها قريب المعانى سهلها غير كز ولا

---

(1) يذكر ابن سيدة: أن الغزل تحديث الفتيان والجوارى، التغزل تكلف ذلك. والنسيب: التغزل بهن فى الشعر المخصص: 4 / 54.

ويقول ابن منظور: نسب بالنساء ينسب نسبا ونسيبا ومنسبة: شبب بهن فى الشعر وتغزل. ويقول شبب بالمرأة قال فيها الغزل، والنسيب أن يشبب بها أى ينسب بها.

اللسان: 2 / 253، ويقول الزبيدى مثل ذلك.

راجع تاج العروس مادة شبب، نسب، غزل.

(2) العمدة: جـ 2 ص 93.

غـامض وأن يختـار له من الكلام مـا كان ظاهر المعنـى لين الإيثار رطب المكسـر شفاف الجوهر يطرب الحزين ويستخف الرصين.

وفى الشعـر العربى كثيـر من العشاق الذين سجلهم التـاريخ لما أظهروه من وجد وهيام وصبابة وحرمان فى شعر خلده الدهر على مر الزمان. أمثال مالك بن الصمصامة، ومسافر بن أبى عمر، والمرقش الأكبر، والمرقش الأصغر وغيره.

ومن أمثلة الغزل قول ربيعة بن مقروم[1]:

بانت سعاد فأمسى القلب معمودا ... وأخلفـتك ابنـة الحـر المـواعيـدا

كـأنهـا ظبـيـة بـكر أطاع لهـا ... من حـومل تلعات الجـو أو أودا[2]

قـامت تريك غداة البين منسـدلا ... تخـاله فـوق متـنيهـا العناقـيـدا[3]

وباردا طيـبـا عـذبا مـقـبله ... مـخيـفـا نبتـه بالظلم مـشهـودا[4]

وقال المرقش الأصغر[5]:

لابنة عـجـلان بالجـو رسـوم ... لم يتـعف والعـهـد قـديم[6]

لابنة عـجـلان إذ نحن مـعًـا ... وأى حـال مـن الـدهر تـدوم

---

(1) المفضليات: الضبى. ص 442 ط بيروت.

(2) حومل وأود: موضعان. التلعة: من الأضداد تكون ما ارتفع وما انخفض.

(3) البين: الفراق. المنسدل، المنسدر سواء. وهو المسترسل يعنى شعرها.

(4) يعنى بالبارد: الثغر: وكلما برد الثغر كان أطيب لريحه.
المخيف مثل المخلل، أى قد خيف بالظلم: والظلم ماء الأسنان.

(5) هو ربيعة بن سفيان بن سعد بن مـالك وهو عم طرفة والمرقش الأكبر عم الأصغر، وكان الأصغر أشعرهما وأطولهما عمرا وهو الذى عشق فاطمة بنت المنذر.

(6) الرسم: الأثر بلا شخص. والطلل: ما شخص من آثار الديار.

أضحت قفاراً وقد كان بها فى سالف الدهر أرباب الهجوم[1]

بادوا وأصبحت من بعدهم أحسبنى خالدا ولا أريم[2]

يا ابنة عجلان ما أصبرنى على خطوب كنحت بالقدوم[3]

وقال الأعشى ميمون بن قيس[4]:

ودع هريرة إن الركب مرتحل

وهل تطيق وداعا أيها الرجل[5]

غراء فرعاء مصقول عوارضها

تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوحل[6]

كأن مشيتها من بيت جارتها

مر السحابة لا ريث ولا عجل[7]

تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت

كما استعان بريح عشرق زجل[8]

(1) الهجوم: جمع هجمة وهى القطعة من الإبل. قال الأصمعى: الهجمة مائة من الإبل.

(2) يقال رام يريم إذا زال عن موضعه، رام الشىء يرومه إذا تعاطاه دوما، أريم: أبرح.

(3) الخطوب: المصائب والأحداث الواحد خطب. القدوم: الفأس. راجع المفضليات: ص 503.

(4) شرح القصائد العشر: ص 291.

(5) الركب لا يستعمل إلا للإبل وقوله وهل تطيق وداعا: أى أنك تفزع إن ودعتها.

(6) الغراء: البيضاء الواسعة الجبين. الفرعاء: الطويلة الفرع أى الشعر. العوارض: الرباعيات والأنياب. الوجى: الذى يشتكى حافره.

(7) الريث: البطء. العجل: العجلة.

(8) الحلى: واحد يؤدى عن جماعة ويقال فى جمعه حلى. والوسواس: جرس الحلى. العشرق: شجيرة مقدار زرع لها أكمام فيها حب صغار إذا جفت فمرت بها الريح تحرك الحب، فشبه صوت الحلى بخشخشته على الحصى.

إذا تقـــوم يضـــوع المسك أصـــورة

والزنبق الورد من أردانهـــا شـــمل

مـا روضـة من رياض الحـزن مـشـعـبـة

خـضـراء جـاد عليـهـا مـسـبل هطل

وقال سويد بن أبى كاهل اليشكرى[1]:

بسطت رابعـــة الحـــبل لـنا فـوصلنا الحبل منهـا مـا اتسع[2]

حـرة تجلو شـتيـتـا واضـحـا كشعـاع الشمس فى الغيم سطع[3]

صـــقلتـــه بقـضـيب ناضـــر من أراك طيب حـــتى نصع[4]

أبيض اللـون لذيذا طـعـمـــه طيب الريق إذا الـريق خـــدع[5]

تمنح المرآة وجـهـــا واضـحـــا مثل قرن الشمس فى الصحو ارتفع

صـافى اللون وطرفـا سـاجيـا أكـحـل العينين مـا فـيـه فنع[6]

هيـج الشـــوق خـــيـــال زائر من حـبيب خـفـر فـيـه ورع[7]

---

(1) المفضليات: ص 282.

(2) ما اتسع: ما امتد. الحبل: الوصل.

(3) الشتيت المتفرق، يعنى الأسنان، الواضح: الأبيض.

(4) القضيب: السواك. ناضر: أخضر ريان.

(5) خدع ريقه إذا تغير، وخدعت عينه إذا لم تنم.

(6) الساجى: الساكن.

(7) الخفر: الحياء.

آنس كـــان إذا مـــا اعـــتـــادنى حـــال دون النـوم منى مـا امـــتنع

وكـــذلك الحب مـــا أشـــجـــعـــه يركب الـهـول ويـعـصى من وزع

وقد حرص شعراء العرب على بدء القصائد بالغزل، وما يتبع الغزل من إلمام بالديار، وبكاء على الأطلال والآثار، وشاع هذا الاتجـاه عندهم وغلب عليهم فى مواطن الأسى والحزن والبكاء، فكـانت عادة الشعراء بدء القصـائد بالنسيب سواء أكانت فى فـخر أم مـدح أم رثاء، ولعل طبيعـة الحيـاة الجاهلية هى الـتى جعلت الشاعـر يناجى حبـيبـته ويذكـرها فى كل الأوقات ويهـتف باسمـها فى مخـتلف المناسبات فهو يراها نصفه الآخر وفيها سلواه وحبه ورضاه.

يبكى على ديارها ويحن للقائها ويسكب فى آثارها دموعه ويعد نفسه لوصل ولقاء جديد.

ومن يتأمل الشعر الجاهلى يجد أكثر القصائد فيه قد افتتحت بالنسيب وبكاء الديار وذكر الأحبة الظاعنين.

فالنابغـــة، وزهير، وابن خـزام الذى لا نعـرف أخباره وأكـثر الشـعراء فى العصر الجاهلى افتتحوا القصائد بالنسيب، ولم يشذ عن هذا إلا الشعراء الصعاليك الذين شغـلتهم حيـاتهم وما هم فـيه من ترصـد وحرمـان من بدء القصـائد بهذا الاتجاه.

وقد علل ابن قتيبـة لهذا فقال: سمعت أهل الأدب يذكر أن مقـصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى، وشكى، وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سـببا لذكر أهلها الظاعنين عنها إذ كـان نازلة العمد فى الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم عن ماء إلى ماء وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليميل نحـوه القلوب، وليستدعى به إصغاء الأسماع إليه، لأن الـتشبـيب قريب من النفـوس، لائط بالقلوب، كـما قد جـعل الله فى

تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء، فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق[1].

فرحل فى شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجير وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وزمامة التأميل، وقرر عنده ما ناله من المكاره فى المسير، بدأ فى المديح، فبعثه على المكافأة وهزه للسماح وفضله على الأشباه. فالشاعر المجيد من سلك هذه وعدل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحدا أغلب على الشعر، ولم يطل فيمل السامعون[2].

وتبدأ القصائد المشهورة بالمعلقات بالنسيب ما عدا قصيدة عمرو بن كلثوم التى بدأها بوصف الخمر، والسبب فى ذلك أن حياة العرب بما كان فيها من جفاف وحرمان، ووصل وصد، وحرب وقتال، تستدعى من العربى الترويح عن النفس والتسلى بذكر من يحبه ويهواه.

فهو يقف على الديار باكيا أحبابه، ذاكرا أصحابه، دامع العين، باكى القلب يبث نجواه إلى ما شخص من الأطلال فترتاح نفسه ويفرح قلبه بمعاهد صباه وأماكن لهوه وذكريات حبه وهواه.

ثم إن الشاعر العربى لصدق فطرته وصفاء قريحته كان يحاول بمثل هذه المقدمات الغزلية أن يحرك الأسماع ويأخذ بمجامع القلوب فيشتد خياله إلى التحليق فى عالم شعره الكبير.

ويمكن أن يقال: إن الشعراء فى العصر الجاهلى بما لهم من رهافة الحس، ورقة الشعور، وجمال الذوق عبروا فى هذه المقدمات عما يجيش فى نفوسهم من حب جارف وعشق صادق فهم يترجمون عن عواطفهم الصادقة ويصدرون عنها لا عن تقليد متبع قديم.

---

(1) الشعر والشعراء جـ 1 ص 20 ت أحمد شاكر.

(2) المرجع السابق جـ1 ص 21.

الصعاليك

الصعـاليك هم الفقـراء، والصعلوك الفـقير. وتصـعلك الرجل إذا افتـقر. وروى أن النبى ﷺ كان يستنصر بصعاليك المهاجرين أى فقرائهم[1].

يقول حاتم بن عبد الله[2]:

غنينا زمـانا بـالتـصـعلك والغنى فكلا سـقناه بكأسـيـهـمـا الدهر

فالصعـاليك جماعة من الفـقراء وغيرهم كـونوا مذهبا خاصـا بهم، قوامه الثورة على نظم الحياة الاجتماعية التى كانت سائدة فى العصر الجاهلى.

فالنظام الاجـتماعى وما اعـتراه من خلل اقتـصادى حيث الثروة مـركزة فى بعض القبائل أثر على الهيكل الاجتماعى للعرب آنذاك.

وكذا التجارة كانت حكراً هى الأخرى على بعض القـبائل، ويستولى عليها أصحاب الجاه والشدة والسلطان، فأين يذهب الفقراء؟

فى هذه البيئة نشـأ الصعاليك وفى نفوسهم ثورة وفى قلوبهم حـمية، حيث كانوا يغيـرون على القوافل ويفزعون الآمنين ويأخذون بـالقوة ما يصل إلى أيديهم انتقاما من المجتمع الذى أوجد هذه الهوة السحيقة بين أفراده وطوائفه هناك[3].

فلم يكن الصعاليك فئـة صغيرة فقيرة فقط بل انضم إليـها طائفة أخرى هى طائفة الخلعاء والماجنين الذين لفظتهم قبـائلهم لسوء سلوكهم، وأصبحت لا تبالى بما يعملونه خارج قـبائلهم. وتنكرت لهم وأعلنت تنصلها من أعمـالهم فى قبائل

---

(1) القاموس المحيط مادة صعلك.

(2) الأمالى: جـ2 ص 282 ط دار الكتب.

(3) المرجع السابق نفس الصفحة.

أخرى، وعـدم المطالبة بحقـوقهم إذا قتلوا، لأنهم مـثل فاسدة للانحـلال والفسق والفجور.

وانضم - أيضا - إلى الطائفتـين السابقتين طائفة الأغـربة السود، ممن سرى السواد إليهم من أمهاتهم الحبشيات.

وهذه الطائفة لم تجد مفراً هى الأخرى إلا الثورة على تقاليد المجتمع ونظمه والدعوة إلى هدمه من الأعماق.

وخضـوعًا للظروف الاقتصـادية والنظم الاجتمـاعية التى كـانت سائدة فى العصـر الجاهلى تكون الصعـاليك من ثلاث طبقات: طبـقة الفقراء مـثل عروة بن الورد، وبعض قبائل فهم، وهذيل، وطبقة الخلعاء مثل: حاجز الأزدى، وقيس بن الحـدادية، وأبى الطمـحان القـينى. وطبـقـة الأغـربة السود مـثل: تأبط شـرا، والشنفرى، والسليك بن السلكة.

ومن هؤلاء جميـعا تكون الصعاليك الذين مثلوا نزعات جـاهلية طريفة، لا توجد إلا فى مثل الصحارى العربية[1].

وأدب الصعـاليك أدب حمـاسة وشـدة، ويبرز من خـلاله القوة والصـبر، والجوع والألم، ومحنة الفقراء، والمساواة بينهم وهو أدب الحـرية فى أسمى معانيها وأقوى صورها التى سيخلدها الدهر على مر الزمان.

قال عمرو بن براقة:

وكـيف ينام اللـيل من جل مـاله حسام كلون الملح أبيض صارم؟

ألم تعلمى أن الصعـاليك نومهم قليل إذا نـام الخلى المسـالم؟[2]

---

(1) أصول النقد الأدبى: ص 84.

(2) الأمالى: جـ 2 ص 122.

يوضح أن كل ما يملك فى حياته سيفه الأبيض الصارم فهو يعتمد عليه كل الاعتماد. ونومه قليل لأنه ينتظر فريسته ومتربص لها فكيف ينام؟

وتلمح فى شعرهم القوة الخارقة التى تفزع الناس وتجعلهم يرهبون جانبهم لأنهم لا يبالون بشىء حتى الجن والشياطين.

فتأبط شراً يذكر أنه صرع غولاً، برزت له فى الصحراء، ولم يتركها إلا جثة هامدة بسيفه المصقول[1]:

ألا من مبلغ فتيان فهم ... بما لافيت عند رحى بطان

بأنى قد لقيت الغول تهوى ... بسهب كالصحيفة صحصحان

فقلت لها كلانا نضو أين ... أخو سفر فخلى لى مكانى

فشدت شدة نحوى فأهوى ... لها كفى بمصقول يمانى

فأضربها بلا دهش فخرت ... صريعا لليدين وللجران

فقالت ثن قلت لها رويدا ... مكانك إننى ثبت الجنان

فلم أنفك متكئا عليها ... لأنظر مصبحا ماذا أتانى

إذا عينان فى رأس قبيح ... كرأس الهر مشقوق اللسان

وساقا مخدج وشواه كلب ... وثوب من عباءٍ أو شنان[2]

---

(1) الأغانى: جـ 24 ص 8333 ط الشعب.

(2) المرجع السابق نفس الصفحة.

رحى بطان: اسم موضع. السهب: الفلاء. الصحصحان: الأرض المستوية. النضو: المهزول. الأين: التعب. المصقول: السيف.

الجران: مقدم العنق. المخدج: ناقص الخلق. الشواه: الأطراف. الشنان: جمع شنن: وهو القربة البالية.

ولهذا ذموا الصعلوك الخامل ومدحوا الصعلوك المخاطر الذى إن قتل كان عظيمًا مشهورًا بالقوة والشجاعة، وإن فاز بالغنيمة كان أهلا لها.

قال عروة:

لحا الله صعلوكا إذا جن ليله ... مصافى المشاش آلفا كل مجزر

يعد الغنى من نفسه كل ليلة ... أصاب قراها من صديق ميسر

ينام عشاء، ثم يصبح ناعسا ... يحث الحصى عن جنبه المتعفر

يعين نساء الحى ما يستعنه ... ويمسى طليحا كالبعير المحسر

ولكن صعلوكا صفيحة وجهه ... كضوء شهاب القابس المتنور

فذلك إن يلق المنية يلقها ... حميدا وإن يستغن يوما فأجدر[1]

وعروة هذا كان يلقب عروة الصعاليك؛ لأنه كان كالرئيس عليهم يجمعهم ويقوم بأمرهم إذا أخفقوا فى غزوتهم ويعولهم إذا لم يكن عندهم معاش، وبهذا حقق لهم الاشتراكية والعدالة الاجتماعية فى مجتمعهم المضطرب هناك.

وإنى امرؤ عافى إنائى شركة ... وأنت امرؤ عافى إناءك واحد

أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى ... بجسمى شحوب الحق، والحق جاهد

أفرق جسمى فى جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء، والماء بارد[2]

ويعلن الشنفرى حريته وأنه يأبى الظلم، ويرفض القهر والحرمان. ومذهبه القوة التى ترهب الأعداء قال:

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى

وفيها لمن خاف القلى متحول

---

(1) الأصمعيات: ت هارون، شاكر ص 45 ط المعارف.

(2) الأغانى: الدار جـ3 ص 73.

أديم مطال الجوع حتى أميته

وأصرف عنه الذكر صفحا فأذهل

وأستف ترب الأرض كى لا يرى له

على من الطول امرؤ مستطول

ولولا اجتناب الذام لم يبق مشرب

يعاش به إلا لدى، ومآكل[1]

ولكن نفسا حرة لا تقيم بى

على الضيم إلا ريثما أتحول

شكا وشكت ثم ارعوى بعد وارعوت

وللصبر إن لم ينفع الشكوى أجمل

عند هؤلاء لم يكن الشعر تجارة قط، وإنما كان متنفسًا لشجنهم، وراحة لقلوبهم المضناة بالغربة، وتعبيراً عن وجدان مثقل بالهموم، وصدى لمغامراتهم المستهينة بحياة مضيعة، وموت فى متاهة الفلاة بعيدا عن الأهل والأحباب.

ولو شاءوا أن يتجروا بشعرهم لوجدوا لبضاعتهم مشترين. ولكن فطرتهم العربية الحرة، أبت عليهم أن يرضوا بهوان المساومة على ألسنتهم ووجدانهم فى سوق البيع والشراء، وأن ينزلوا عن حريتهم التى لم تحتمل ضغط عرف الأهل والعشيرة، والتى اشتروها بغالى الثمن، من غربة وحرمان وتشرد وضياع[1].

(1) أعجب العجب فى شرح لامية العرب: ص 25.

العافى: طالب المعروف. الحق: حقوق القبيلة. الماء القراح: الذى لا يخالطه لبن أو غيره.

خصائص شعرهم الفنية:

مما تقدم يتضح أن شعر الصعاليك يتميز بصفات وخصائص فنية هى:

1 - شعرهم شعر مقطوعات بسيطة، وفى القليل نجد قصائد طويلة، ذلك أن حياتهم وتفرقهم وعيشتهم فى الصحراء، وما كان فيها من قتل وتشريد، وسطو وإغارة - جعلتهم لا يطيلون قصائدهم فى مدح أو هجاء أو رثاء، فهذا بعيد عن طبيعة حياتهم، وإنما عبروا عنها فى قصائد قصيرة، فصوروا الصيد والظعائن والسلب والإغارة والحب والهوى فى أسلوب مقتضب بسيط فيه شظف العيش وقسوة الحياة.

2 - خروجه على النمط المألوف للقصائد الجاهلية فلا مقدمات ولا إسهاب ولا تعدد موضوعات، ولا وصف ناقة أو راحلة أو استجداء ممدوح عبروا فيها عن حبهم لها لأنها تخفيهم عن الأنظار وتسترهم عن الأعداء، ومن خلالها تظهر لوعة الفراق والبعد عن الأهل والأحباب.

وللثورة والحنين والغزل والتشرد وإظهار القوة مقطوعات أيضا عبروا فيها عن حاجتهم للمرأة والحبيبة، وصوروا مدى تشردهم فى متاهات الصحراء، ووصفوا الصيد والظعائن فى أسلوب مقتضب قصير.

ومن هذا يظهر أنهم أخذوا موضوعات الشعر الجاهلى ليس فى صورته الموروثة وإنما أدخلوا عليها كثيرا من التعديل والابتكار الذى أبدعه ذوقهم هناك.

3 - صعوبة شعرهم، وغموض ألفاظهم، وقوة أساليبهم مما أتعب كثيرا من علماء اللغة فى شرحه والتعليق عليه، والسبب فى ذلك يرجع إلى عزلتهم فى الصحراء وعدم اتصالهم بغيرهم مما أبقى لغتهم على حالتها بدون تهذيب أو تعديل.

---

(1) قيم جديدة: بنت الشاطىء ص 48.

ففى لغتهم خشونة كحياتهم، وصعوبة كعيشتهم المقفرة فى الصحراء.

انظر إلى قول تأبط شرا حين قال[1]:

وشعب كمثل الثوب شكس طريقه ... مجاميع صوحيه نطاف مخاصر[2]

به من سيوف الصيف بيض أقرها ... جبار لصم الصخر فيه قراقر[3]

تبطنته بالقوم لم يهدنى له ... دليل ولم يثبت لى التعت خابر[4]

به سملات من مياه قديمة ... مواردها ما إن لهن مصادر[5]

ففى هذه المقطوعة يصف نفسه بقدرته العجيبة على اجتياز مسالك الصحراء فى سرعة وجرأة، وقطع مجاهلها فى قوة بدون واصف أو هداية دليل.

4 - ترجمة شعرهم عن واقعهم الحقيقى الذى عاشوه فنرى فيه تشردهم فى جوف الصحراء، وما فيها من مخاطر وأهوال، وفيه كذلك التغنى بالبطولة واستظهار العظمة والشجاعة، وحب الحرية، وقلة النوم، وكثرة التربص، وسرعة الانقضاض على الفريسة فى حالك الليل

---

(1) الأصمعيات ص 125.

(2) الشعب: بكسر الشين الطريق إلى الجبل. شل الثوب: خياطته خياطة خفيفة. الطريق الشكس: الذى يصعب الذهاب فيه. الصوحان بضم الصاد وفتحها: جانبا الجبل أو حائطا الوادى. النطاف: جمع نطفة: وهى ما يجمع من ماء المطر فى موضع. مخاصر: باردة، جمع (كخصر) وهو اسم مكان من (الخصر).

(3) بيض: أراد بها الغدران. أقرها: تركها. قراقر: أصوات، جمع قرقرة أراد أن السيل عظيم قد قلع الصخر من مواضعه وأنت تسمع أصواته.

(4) تبطنته: دخلت فى بطنه. الخابر، المختبر: المجرب.

(5) سملات: جمع سملة بفتحتين، وهى بقية الماء فى الحوض.

البهيم، وفيه أيضا وصف الطير والحيوانات والجن والغيلان، وتبرز فيه الثورة على المجتمع وما فيه من مفاسد وعيوب فى تكوينه المنهار.

5 - ويظهر فى شعرهم كثير من القيم والعادات والأخلاق كنزعة الاشتراكية والعدل، والعفة، والنبل، والصبر على الشدائد واحتمال الجوع، مما يندر أن نجده عند غير هؤلاء الصعاليك ويتمثل هذا فى شعر الشنفرى[1]، حيث يقول:

ولكن نفسا حرة لا تقيم بى

على الضيم إلا ريثما أتحول[2]

وأطوى على الخمص الحوايا كما انطوت

خيوطة مارى تغار وتفتل[3]

وأغدو على القوت الزهيد كما غدا

أزل تهاداه التنائف أطحل[4]

فهو صاحب مبدأ وهدف لا يحيد عنه مهما تغيرت الأيام وقست الظروف.

---

(1) مختارات ابن الشحرى: ص 2 ط الاعتماد.

(2) الضيم: الظلم.

(3) الخمص: بضم الخاء ضمور البطن وبالفتح الجوع. الحوايا: جمع حوية وهى الأمعاء. الخيوطة: الخيوط. المارى: الفاتل، تغار: يحكم فتلها.

(4) الزهيد: القليل. الأزل: الخفيف الوكين يصف به السمع بكسر السين وهو الذئب يتولد بين الضبع والذئب. التنائف: جمع تنوفة وهى المفازة. وتهاداه بحذف إحدى التاءين تخفيفا: يريد أنه كلما خرج من مفازة دخل أخرى.

الفصل الثالث

قضية الانتحال
بين القدماء والمحدثين

من يتأمل الشعر الجاهلى بما فيه من صور وأساليب وروعة بيان وقوة تعبير يتضح له أصالة هذا الشعر وقدمه وأنه - فعلا - صادر عن منطق الحياة الجاهلية بما حفلت من صور وخيال طلق فسيح.

وقد وصل إلينا هذا التراث على أيدى علماء ثقاة، ضربوا بسهم وافر فى الخبرة بالشعر وروايته وحفظه مبلغا كبيرا، وبجانب هؤلاء كان لكل شاعر راوية يحفظ شعره وينشره فى الآفاق وبهذا أصبحت سلسلة الشعر الجاهلى متصلة بعصر التدوين.

وبالرغم من هذا فقد ثار جدل كبير حول ما وصل إلينا من هذا الشعر، شك العلماء فى بعضه نتيجة اختلاف الرواة وزيادتهم فيه بعض الأحيان.

وعرف كثير من النقاد هذا الشعر المنحول، وأشاروا إليه ونبهوا على قلته إذا قيس بالشعر الصحيح.

فابن سلام، والأصفهانى وغيرهما من العلماء والأدباء أكدوا على عدم خطر هذا الشعر وأن الخبير بالشعر يستطيع أن يدركه ويعرفه إذا نظر إليه.

ولم يكن أمر الوضع والنحل فى الشعر الجاهلى ليخفى على الرواة والعلماء، فقد تنبه كثيرون منهم، بل قلما نجد راوية عالما من القرن الثانى والقرن الثالث لا تذكر لنا الأخبار المروية عنه أنه نص نصًا صريحًا على أن بيتًا أو أبياتًا بعينها موضوعة منحولة[1].

وفى آداب الأمم كثير من الآثار الشعرية التى وصلت إلينا بالرواية، وبعضها لا يعرف ناظمه. ومعظم الشعر الجاهلى، بل بعض الشعر فى صدر الإسلام ظل يروى زمنًا طويلا قبل أن يدون، وأشعار اليونان فى عهدهم الأول كانت أيضا

(1) مصادر الشعر الجاهلى: 316.

تروى وتنشد ولا تكتب. والقصائد الجرمانية التى تسرد أعمال الأبطال الجرمانيين القدماء، وصلت إلينا بالرواية أيضًا[1].

ولكن علماء الغرب يحاولون دائما البحث والتنقيب فى اللغة العربية، وآدابها، ومن خلال هذا وجدنا هذه القضية تثار بعد ألف عام من الزمان.

فهل أتى هؤلاء بجديد؟ وهل كانت محاولاتهم مبتكرة؟ أم كان كل هذا لحب البحث وأن الشعر العربى فى العصر الجاهلى لا يمثل العصر الجاهلى بحال.

وقد أيدت الاكتشافات الحديثة فى اليمن، وغيرها صحة ما ذهب إليه المستشرقون من اختلاف اللهجات، والروايات، بما يدل على عمق هذه البحوث حول الشعر الجاهلى.

وسنعرض الآن لنظريات القدماء وما وصلوا إليه فى هذه القضية، ومدى تصورهم لها ودقة ما ذهبوا إليه فيها ونقابل كل هذا بما جاء به المحدثون.

وسنبدأ الحديث بعالم من علماء العرب القدماء كان له فضل السبق فى هذا الاتجاه ووضع هذه القضية فى نطاقها الواضح الصحيح.

(1) التوجيه الأدبى: ص 124.

آراء ابن سلام

فى كتابة طبقات الشعراء[1]

يعتبر ابن سلام الباحث الناقد أدق من تكلم عن قضية الانتحال وعرضها فى ثوب واضح، لا خفاء ولا لبث فيه وكل من جاء بعده ترسم خطاه حتى أولئك الأجانب الذين سنعرض لهم بعد قليل.

وقد عرض هذا العالم جوانب كثيرة لهذه النظرية وأرسى دعائمها على أسس من العقل الواعى والمنطق الصائب والرأى الواضح البليغ.

وفى المقدمة نجده يقول:

وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه

---

(1) هو أبو عبد الله محمد بن عبيد الله بن سالم الجمحى البصرى، مولى قدامة بن مظعون الجمحى. وكان مولده بالبصرة سنة 139 ووفاته سنة 231 ببغداد. روى عنه أحمد بن يحيى ثعلب، وأبو حاتم، والرياشى، والمازنى، والزيادى، وأحمد بن حنبل، وأبو خليفة الجمحى، وغيرهم من الأئمة الكبار.

ولد هذا الغلام فى بيت علم وجاه، فأبوه سلام بن عبيد الله بن سالم الجمحى، روى عنه فى مواضع كثيرة من كتابه. وأخوه عبد الرحمن بن سلام الجمحى أحد رواة الحديث. حكى الحاكم فى تاريخه قال:

سئل صالح بن محمد عن عبد الرحمن ومحمد ابنى سلام الجمحيين.

فقال: صدوقان.

وقد ذكر ابن النديم فى الفهرست: 165، أن ابن سلام ألف من الكتب الكثير، وقال ياقوت فى معجم الأدباء. وألف كتابا فى طبقات الشعراء وله غريب القرآن.

اللسان ومن ذلك اللؤلؤ والياقوت، لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره، ومن ذلك الجهبزة بالدينار والدرهم، لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طراز ولا صفة، ويعرفه الناقد عند المعاينة، فيعرف بهرجها وزائفها وستوقها ومفرغها[1].

ثم دلل فى وضوح على قضية الانتحال فقال: وفى الشعر المسموع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه، ولا حجة فى عربيته ولا أدب يستفاد، ولا معنى يستخرج، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائع لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء. وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى[2].

وقد اختلف العلماء فى بعض الشعر، كما اختلفت فى بعض الأشياء أما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه.

وزاد القضية وضوحا حين قال[3]:

وكان ممن أفسد الشعر وهجنه، وحمل كل غثاء منه، محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسير.

قال الزهرى: لا يزال فى الناس علم ما بقى مولى آل مخرمة، وكان أكثر علمه بالمغازى والسير وغير ذلك - فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول لا علم لى بالشعر، أوتى به، فأحمله.

ولم يكن ذلك له عذرا فكتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط، وأشعار النساء فضلا عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، فكتب لهم

(1) طبقات فحول الشعراء ص 5 المقدمة ط المعارف.

(2) المرجع السابق ص 9.

(3) المرجع السابق: ص 5.

أشعارا كثيرة، ليست بشعر، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: من حمل هذا الشعر؟ ومن أداه منذ آلاف السنين والله تعالى يقول: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا... ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام]، أى لا بقية لهم.

وقال أيضا: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [النجم].

وقال: ﴿... وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان].

وقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ... ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم].

وقال: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة].

ودلل على ما سبق قال:

قال محمد: قال خلاد بن يزيد الباهلى لخلف بن حيان أبى محرز، وكان خلاد حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله: بأى شىء ترد هذه الأشعار التى تروى؟ قال له: هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لا خير فيه؟ قال: نعم. قال: أفتعلم فى الناس من هو أعلم بالشعر منك؟ قال: نعم. قال: فلا تنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت[1].

ومما سبق يتضح لنا أن محمد بن سلام يحاول جهده أن يبين أن للشعر رجالا يعرفونه حق المعرفة ويفهمونه حق الفهم وهم يدركون لأول وهلة الشعر الصحيح من الغث بما عندهم من خبرة ودراية.

قال قائل لخلف: إذا سمعت أنا بالشعر استحسنته فما أبالى ما قلت فيه أنت وأصحابك. قال له: إذا أخذت أنت درهما فاستحسنته، فقال لك الصراف إنه ردىء هل ينفعك استحسانك له؟[2].

---

(1) طبقات فحول الشعراء: ص 8.

(2) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

فصورة الصراف وما يعرفه بخبرته عن النقود الزائفة ما هى إلا دليل واضح على مدى استعداد ابن سلام للدفاع عن قضية الشعر وإحاطتها بكل الأدلة حتى يستقر فى النفوس أن ما وصل إلينا من شعر كان نتيجة جهد العلماء وخبرتهم فى هذا المجال.

والنتيجة هى سلامة الشعر وصدقه وتأكيد صلته برجاله عبر السنين.

على أن الشعر العربى خلال نقله لم يسلم من بعض الكذب ولكن هذا قليل ومعروف لدى العلماء، ودلل ابن سلام على هذا بما ذكره عن محمد بن إسحاق فقد نسب شعرا كثيرا إلى أمم أهلكها الله لا نعلم من أمرها شيئا فكيف يصل إلينا شعرها بعد هذا؟

ويستشهد بقول أبى عمرو بن العلاء: «ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا. ويقول: فكيف بما على عهد عاد وثمود، مع تداعيه ووهيه؟ فلو كان الشعر مثل ما وضع ابن إسحاق، ومثل ما رواه الصحفيون، ما كانت إليه حاجة ولا فيه دليل على علم»[1].

فهو يواصل نقده على أدعياء الشعر والعلم الذين ذكروا أشعار القرون الأولى ونسبوه إلى أهلها كذبا وزورا وبهتانا.

ويذكر ابن سلام أن العرب اعتزوا بشعرهم وحافظوا عليه وأحاطوه بالرعاية والاهتمام، لأنهم أدركوا أنه تراثهم الباقى الخالد الذى يسجل مآثرهم وأعمالهم ونهضتهم، ويرفع شأنهم ويبرز قرائحهم وملكاتهم اللاتى سمت سموا عظيما، حتى جاء الإسلام، وعم الكون نوره، ودخل الناس فى دين الله أفواجا مسبحين بحمده بكرة وأصيلا، وأقبل الجميع على القرآن ودراسته وحفظ آياته، كذا الحديث النبوى الشريف، ومن هنا غفلوا عن دراسة الشعر قليلا وكان هذا سببا فى ضياع الكثير منه.

(1) المرجع السابق: ص 13.

وفى ذلك يقول[1]:

كان الشعر فى الجاهلية ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون وإليه يصيرون. قال عمر بن الخطاب: كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصلح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته. فلما كثر الإسلام، جاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمصار، وراجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير. وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول، وما مدح هو وأهل بيته به فصار ذلك إلى بنى مروان، أو صار منه.

ويدلل على ضياع الشعر بقوله: ومما يدلنا على ذهاب الشعر وسقوطه، قلة ما بقى بأيدى الرواة المصححين لطرفه وعبيد، اللذين صح لهما قصائد بقدر عشر[2]. وإن لم يكن لهما غيرهن، فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة، وإن كان ما يروى من الغثاء لهما، فهما يستحقان مكانهما على أفواه الرواة، ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير، غير أن الذى نالهما من ذلك أكثر. وكانا أقدم الفحول، فلعل ذلك لذاك. فلما قل كلامهما، حمل عليهما حمل كثير[3].

والناظر فى كلام ابن سلام يتضح له صدق الأدلة التى يذكرها فهو يبين الأسباب والدواعى التى أدت إلى ضياع الشعر وذهابه ثم يؤكد كلامه بهذه القلة التى وردت إلينا من الشعر، ويضرب مثلا بطرفه وعبيد اللذين ضاع شعرهما ولم يصل منه إلا القليل.

---

(1) طبقات فحول الشعراء: ص 13.

(2) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(3) المرجع السابق، ص 23.

ويشير بلاشير إلى جهد الرواة وبراعتهم فى حمل الشعر عبر التاريخ ووضعه أمام الذين قاموا بتـدوينه وتسجيله قال: على أننا نعتقـد بأن جهودهم قد أدت من جهة إلـى تمييز وإبعاد الآثار المصنوعـة فى الحالات المشهورة، وإلى إنقـاذ قسم من الآثار الجاهلية التى وصلت إليهم سليمة، وهذا لعمرى شىء قليل، ولكنه يستحق الثناء[1].

ويصور ابن سـلام رد الفعل عند العرب عـندما أدركوا ضـياع بعض تراثهم الشعرى نتيجة التفانى فى سبيـل الله وإعلاء كلمة التوحيد، وأنه أدى إلى استشهاد الكثير من الرواة، والحفاظ، وهال القبائل ضيـاع شعرها الذى يمجد جاهها وعزها وكثرتها فما كان منهم بعد هذا إلا أن نسبوا إلى أنفسهم شعراً لم يكن لهم، وجاء الرواة فأكثروا فى هذا الاتجاه، وكانت جهـود العلماء وخبرتهم التى غربلت الشعر وكشفت القناع عن الزائف منه وأشارت إليه وأخرجته من الميدان فى ثبات ويقين.

يقول ابن سلام: فلمـا راجعت العرب رواية الشعر، وذكر أيامـها ومآثرها، استقل بعض القبائل شعر شعـرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلت وقائعـهم وأشعارهم. وأرادوا أن يلحقـوا بمن لهم الوقائع والأشعار، فـقالوا على ألسن شعرائهم. ثم كانت الرواة بعد فـزادوا فى الأشعار التى قيلت، وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة وما وضعـوا، ولا ما وضع المولدون، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم، فيشكل ذلك بعض الإشكال[2].

ولا يترك ابن سلام ما قاله بدون دليل بل استدل وأكد كلامه السابق بما ذكره من أخبار.

قال: أخبرنى أبو عبيدة أن ابن داود متمم بن نويرة قدم البصرة فى بعض ما

---

(1) تاريخ الأدب العربى: ص 29.

(2) طبقات فحول الشعراء: ص 40.

يقدم له البدوى فى الجلب والميرة، فنزل النحيت[1] فأتيته أنا وابن نوح العطاردى فسألناه عن شعر أبيه وقمنا له بحاجته، وكفيناه ضيعته. فلما نفد شعر أبيه جعل يزيد فى الأشعار، ويضعها لنا، وإذا كلام دون كلام متمم، وإذا هوى يحتذى على كلامه، فيذكر المواضع التى ذكرها متمم، والوقائع التى شهدها.

فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله[2]. ويذكر - أيضا - ملاحظة خلف الأحمر على ولد الأغلب العجلى قال: كان ولده يزيدون فى شعره حتى أفسدوه[3]:

وطعن ابن سلام فى حماد الراوية، لأنه كان غير موثوق به. قال عنه: وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها - حماد الرواية، وكان غير موثوق به، كان ينحل شعر الرجل غيره وينحله غير شعره، ويزيد فى الأشعار. وقد قدم على بلال بن أبى بردة وهو عليها فقال: ما أطرفتنى شيئا، فعاد إليه فأنشده القصيدة التى فى شعر الحطيئة مديح أبى موسى. فقال: ويحك! يمدح الحطيئة أبا موسى لا أعلم به، وأنا أروى شعر الحطيئة، ولكن دعها تذهب فى الناس[4].

ويعرض ابن سلام لحادثة أخرى ومن خلال عرضها نجد كذب حماد الراوية المشهور. قال ابن سلام: أخبرنى أبو عبيدة: عن عمر بن سعيد بن وهب الثقفى قال: كان حماد لى صديقًا ملطفًا، فعرض على ما قبله يوما. فقلت له: أمل على قصيدة لأخوالى من سعد بن مالك. فنظر، فأملى على:

---

(1) الجلب: ما يأتى به البدوى من الإبل والغنم ليبيعه فى الأمصار. الميرة: الطعام. النحيت: مكان.

(2) طبقات فحول الشعراء: ص 40.

(3) المرجع السابق نفس الصفحة - الموشح: المزربانى: 213 - تاريخ الأدب العربى: ص 131.

(4) طبقات فحول الشعراء: ص 41.

إن الخليط أجـــد منتـــقلة وكـــذاك زمت غـــدوة إبله

عهدى بهم فى النقب قد سندوا تهـدى صعـاب مطيـهم ذلله

وهى لأعشى همدان[1].

ويحـاول ابن سـلام جاهداً أن يوضـح مدى البلبـلة والاضطراب فى بعض الأشعار التى رويت وشاعت عند الناس بوضعـها فى صورتها الزائفة كدليل واضح على مدى زيف بعض الأشعار.

فهو يقـول: عن الشعبى، عن ربعى بن خراش، أن عـمر بن الخطاب قال: أى شعرائكم الذى يقول:

فـألقـيت الأمـانة لـم تخنهـا كـذلك كـان نوح لا يخـون[2]

وهذا غلط على الشعبى، أو من الشعبى، أو من ابن خراش.

أجمع أهل العلم عـلى أن النابغة لم يقل هذا، ولم يسـمعه عـمر، ولكنهم غلطوا بغيره من شـعر النابغة، فإنه قد ذكر لى أن عـمر بن الخطاب سأل عن بيت النابغة:

حلفت فلم أتـرك لنفـسك ريبـة وليس وراء الله للمـرء مذهب[3]

ثم قال: وجدنا أهل العلم يغلطون فى الشعـر، ولا يضبط الشعر إلا أهله. وقد تروى العامة أن الشعبى كـان ذا علم بالشعر وأيام العرب، وقد روى عنه هذا البيت وهو فاسد.

ويتطرق ابن سلام إلى لبيد فيذكر أنه حمل عليه بعض الأبيات ويذكر منها:

---

(1) المرجع السابق نفس الصفحة.

(2) طبقات فحول الشعراء: ص 49.

(3) المرجع السابق نفس الصفحة.

باتت تشكى إلى النفس مجهشة وقد حملتك سبعا بعد سبعين

فإن تعيشى ثلاثا تبلغنى أملا وفى الثلاث وفاء للثمانين[1]

ويقول: ولا اختلاف فى أن هذا مصنوع تكثر به الأحاديث، ويستعان به على السهر عند الملوك، والملوك لا تستقصى.

ويروى - أيضا عن سعيد بن عبيد عن أبى عوانة أنه قال[2]: شهدت عامر ابن عبد الملك يسأل قتادة عن أيام العرب وأنسابها وأحاديثها، فاستحسنته. فعدت إليه فجعلت أسأله عن ذلك، فقال: مالك ولهذا؟ دع هذا العلم لعامر وعد إلى شأنك[3].

وبعد.. فما ذكرناه عن ابن سلام فيه كفاية وقد وضع هذا الرجل أسس قضية الانتحال، وتناول أسبابها وأظهر دواعيها تناول العالم الفاهم الخبير.

والأمثلة التى ذكرها يوضح بعضها فى جلاء مدى زيف بعض الأشعار وكذبها مما يثير البلبلة والشك فيها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى عدم الثقة فيمن ادعى نسبتها إلى شاعر بنفسه.

وفى الأمثلة السابقة - أيضا - رأينا زيادة فى الشعر على بعض الشعراء ذكر أسبابها ابن سلام.

وتطالعنا فى الكتاب نظرات ابن سلام النقدية القائمة على دعائم متينة من الفهم والدراية والخبرة، ويؤكد من خلالها مدى قدرة أهل العلم بالشعر على كشف الزائف منه، والتنبيه عليه وإظهاره.

---

(1) المرجع السابق: 50.

(2) المرجع السابق: ص 51.

(3) يعنى إلى رواية الحديث والفقه.

ونحب أن نقـول بعـد هذا أن هذه الأسس المتينـة هى التى اعتـمـد عليهـا المحدثون ومنها يزعمون أنهم مبتكرون مع أن كل ما جاءوا به عرضه ابن سلام فى وضوح فهو الرائد وحده فى الميدان.

تاريخ آداب العرب

يعتبر الأستاذ مصطفى صادق الرافعى أول من تناول قضية الانتحال من الأدباء المحدثين فى صبر وأصالة بحث، وقوة معاناة، وقد فطن لوعورة الطريق الذى يسير فيه فقال فى أول الباب الثانى: هذا باب من الأدب، وقف التاريخ على عتبته إلى اليوم.

وليس من يتسبب لفتحه أو يتطوع لمعاناته أو يتقلد بعض البلية فى الصبر على مكروه ذلك حتى كأنه قطعة من الأرض سويت على دفين مضى حسابه، وكأن جسمه بيت الحياة المقفر فكل الأرض إذا أغلقت عليه بابه[1]:

وفى هذا الباب الطويل الذى جعل عنوانه الرواية والرواة، تحدث الرافعى عن الأصل التاريخى للرواية، والرواية بعد الإسلام! وتدوين الحديث، والإسناد فى الحديث، واتصال الرواية بالأدب، وأولية التدوين فى الأدب، وتاريخ الإسناد فى الأدب، وفائدة الإسناد إلى الرواة، وحفظ الأسانيد فى الأدب، وأصل التصحيف، وإسناد الكتب، وعلم الرواية، وتقاسيم الرواية، ووظائف الحفاظ فى اللغة، وطرق الأخذ والتحمل.

ولا يهمنا كثرة الموضوعات الهامة التى ذكرها فى هذا الباب بقدر ما يهمنا هذا الحشد من الموضوعات الهامة التى ذكرها، والنصوص المأخوذة من كتب التراث القديم، وعرض كل هذا عرضا شيقا جذابا مما لا يقدر عليه إلا هذا الأستاذ الجليل.

وهو بعمله هذا قد أعطى القارئ دفعة قوية للإحاطة بالموضوع من مختلف زواياه وبصورة استعصت على كثير من الباحثين إلى الآن.

---

(1) تاريخ آداب العرب: جـ 1 ص 273 إلى 437.

ويتحدث الرافعى فى موضوع وضع الشعر فيذكر أن العرب فى الجاهلية لم يعرفوا وضع الشعر؛ لأن شعراءهم متوافرون، ولأنهم لا يطلبون بالشعر إلا المحامد؛ لأن الشاعر موضع الثقة وهو مصدر رواية فى العرب، فإن أرسل القول أرسل معه التاريخ فيجريان معًا، وذلك كالذى ادعاه الأعشى فى منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل. أما أن يكون فى عرب الجاهلية من يصنع الشعر وينحله غيره على نحو ما كان فى الإسلام فذلك ما لا نعلمه ولا نظنه كان البتة[1].

ثم يذكر الرافعى أسباب وضع الشعر ويستشهد بما ذهب إليه ابن سلام حين قال: ولما جاء الإسلام واندفع به العرب إلى الفتوح واشتغلوا عن الشعر بالجهاد والغزو حينا من الزمن فلما راجعوا روايته بعد ذلك وقد أخذ منهم السيف والحيف وذهب كثير من الشعر وتاريخ الوقائع بذهاب رواته. صنعت القبائل الأشعار ونسبتها إلى غير أهلها تتكثر بها وتعتاض مما فقدته، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان قوم من العرب قلت وقائعهم وأشعارهم فأرادوا أن يلحقوا بذوى الكثرة من ذلك فقالوا على ألسن شعرائهم ما لم يقولوه وأخذوه عنهم الرواة[2].

ثم يذكر أول من صنع ذلك من القبائل وسببه؟ فقال: وأول القبائل التى وضعت الشعر فى الإسلام قريش وكانت أقل العرب شعرا وشعراء فوضعوا على حسان بن ثابت أشعارا كثيرة لا تليق به ولا تجوز عليه.

ثم أخذ يسرد الوضع فى الشعر للشاهد والمثل إلى القرن الثالث، وذكر أسباب وأغراض الشعر؛ وحصرها فى ثلاثة أمور:

(أ) الشواهد على العلوم.

(ب) الشواهد على الأخبار.

(جـ) الاتساع فى الرواية.

---

(1) تاريخ آداب العرب: جـ 1 ص 365.

(2) المرجع السابق نفس الصفحة.

ويشرحها كلها بتفصيل[1].

وتحت عنوان شعر الجن وأخبارها يقول: على أن نادرة النوادر من ذلك فى التاريخ العربى كله إنما هو ما جاء به أبو السرى: سهل أبى غالب الخزرجى، الشاعر المفلق، الذى كان فى أواخر القرن الثانى، فإنه نشأ بسجستان، ثم ادعى رضاع الجن، وأنه صار إليهم، ووضع كتابا ذكر فيه أمر الجن وحكمتهم وأنسابهم وأشعارهم، وزعم أنه بايعهم للأمين بن هارون الرشيد بالعهد، فقربه الرشيد وابنه الأمين وزبيدة أم الأمين، وبلغ معهم وأفاد منهم، ثم جعل يتنفق عندهم بما يضعه من الشعر الجيد على ألسنة الجن والشياطين والسعالى، وقال له هارون الرشيد: إن كنت رأيت ما ذكرت فقد رأيت عجبا، وإن كنت ما رأيته فقد وضعت أدبا[2].

وفى كلامه عن الاتساع فى الرواية يذكر مقالة المفضل الضبى فى حماد وأنه أفسده فلا يصلح أبدا، فقيل له وكيف ذلك أيخطئ فى روايته أم يلحن؟ قال ليته كان كذلك فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارهم ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره، ويحمل ذلك عنه فى الآفاق فتختلط أشعار القدماء، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك؟[3].

ويقول عن خلف: وقد وضع خلف قصائد عدة على فحول الشعراء ذكروا منها قصيدة الشنفرى المشهورة بلامية العرب التى أولها:

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإنى إلى قوم سواكم لأميل[4]

---

(1) السابق: ص 374.

(2) السابق: ص 379 .

(3) السابق: ص 379 وراجع الأغانى: (الدار) جـ 6 ص 89.

(4) مختارات ابن الشجرى ص 18.

ويقول وما أشبه أن تكون هذه القصيدة أو أكثرها كذلك، قال الأصمعي سمعت خلفا يقول أنا وضعت على النابغة هذه القصيدة التي فيها:

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

وله قصائد أخرى نص على بعضها العلماء وبينوا أنها مصنوعة، وقد وضع على شعراء عبد القيس شعرا كثيرا.

وقال الجاحظ: إنه هو الذي أورد على الناس نسيب الأعراب وهذا النسيب من أرق الشعر قاطبة وما أحراه أن يكون مصنوعا.

ثم قالوا إن خلفا نسك في آخر أيامه فخرج إلى أهل الكوفة فعرفهم الأشعار التي أدخلها في أشعار الناس فقالوا له أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة فبقيت الأشعار على حالها إذ كان الأمر قد مضى لوجهه وهكذا لا يملك الإنسان من آخرة الكذب ما يملك من أولاه[1].

ويذكر الرافعي عن حماد وخلف، أنهما بلغا الغاية في الصنعة فهما طبقة في التاريخ كله وإنما يكون لغيرهما البيت الواحد، والأبيات القليلة مما لا تفتضح صنعته، يصنعونه لتوجيه الحجة وتزيين الخبر ونحو ذلك، ومن هؤلاء أبو عمرو بن العلاء. قال: ما زدت في شعر العرب إلا بيتا واحدا، يعني ما يروى للأعشى من قوله:

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

ومنهم الأصمعي، وأبو عبيدة، واللاحقي، وقطرب وغيرهم[2].

ويستقصي الرافعي جاهداً الرواة الذين أدخلوا في الشعر ما ليس منه وحملوه على الشعراء ظلما فقال: وقد يجد الرواة للشاعر الأبيات الحسنة في المعنى الجيد وهي تحتمل الزيادة فيصنعون عليها ويولدون حتى تبلغ قصيدة كأبيات الطيرة

---

(1) تاريخ آداب العرب: ص 384.

(2) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

للحارث بن حلزة وهى أربعة أبيات ولكنهم جعلوها قصيدة طويلة. قال أبو عبيدة أنشدنيها عمرو وليست إلا هذه الأبيات وسائر القصيدة مصنوع مولد وتلك قوله:

يـا أيهـــــا المـزمع ثـم انـثنى ... لا يثنيك الحـادى ولا الشاحج[1]

ولا قـعـيـد أعـضـب قـرنه ... هـاج له مـن مـــــربـع هائـج

بينا الـفـتى يسـعى ويسـعى له ... تاح لـه من أمـــره خـــالـج

يتـرك مـا رقـع من عـيـشـه ... يـعـــــيش مـنـه همـج هامـج

ويقول: وقد يزيدون فى القصيدة ويبعـدون بآخرها متى وجدوا لذلك باحثا كقصيدة أبى طالب التى قالها فى النبى ﷺ وهى مشهورة أولها:

خـليـلى مـــا أذنى لأول عـــاذل ... بصـغـواء فى حق ولا عند باطل

ويذكر قـول ابن سلام: زاد الناس فى قصيـدة أبى طالب وطولت بحيث لا يدرى أين منتهاها[2].

ويشيد بعـقلية العربى وأنه حاد الفؤاد بليغ الأداء سريع الخـاطر قوى الحفظ ولهذا وصل إلينا تراث العرب على خـير وجه. قال: كان العرب بطبـيعتهم أثبت الناس حفظا وأتمهم حافظة وكانت الكتابة غير طبـيعية فى نظامهم الاجتماعى ومن ثم نشأ فيهم الأخذ والتحمل فكان كل عربى بطبيعته راويا فيما هو بسبيله من أمره وأمر قومه. فلمـا أن اهتدوا إلى الشعر وتوسعوا فـيه جعلوا يرتبطون به أرقى تلك

---

(1) الحادى: مـقلوب الحائد وهو فـى الطيرة ما اسـتقـبلك من تجاهك من الطيـر والوحش. والسانح: ما ولاك ميامنه. والبارح: ما ولاك مياسره. والقعيد: الذى يأتيك من خلفك. والشاحج: الغراب المسن الذى غلظ صوته وهو من شر مـا يتطيرون به: كالثور الأعصب وهو المكسور القرن. ترقيع المال: إصلاحه والقيام عليه حتى ينمو.

(2) السابق: ص 385.

المعانى النفسية حتى صار الشاعر لسان قومه يذود عنهم ويدفع عن أحسابهم ويغتمز من أعدائهم وبهذا انفرد بمعنى تاريخى فى الرواية[1].

وبعد.. فهذا ما ذكره الرافعى عن الوضع والانتحال فى الشعر وقد بين أسبابه ودواعيه ووضح مراحله بكثير من الأدلة التى دعمت ما ذهب إليه، وهذا كله إن دل على شيء فإنما يدل على عقلية الرافعى التى بلغت مكانة عظيمة فى التنظيم والاطلاع والاستفادة الكاملة من آراء العلماء السابقين وعلمهم فى هذا الاتجاه.

وفى الحق أن الرافعى لم يناقش أو يعلل مشكلة الانتحال كمن جاء بعده - مثلا - وينظر إليها نظرة ناقدة مظهرا ما لها وما عليها من مآخذ وعيوب، بل كان عمله جمع هذا الحشد الضخم من الروايات التى جمعها ووضعها فى مكانها الصحيح فكانت ضياء لمن يريد أن يلم بهذه القضية من مختلف اتجاهاتها فى أزمانها السحيقة البعيدة.

(1) السابق: ص 275.

قضية الانتحال عند المستشرقين

أحسن العلماء العرب فى عرض قضية الانتحال، بفهمهم الواضح وخبرتهم الدقيقة، وعلمهم الغزير.

وجاء المستشرقون، وأخذوا هذه الآراء، ونظروا إليها فى فهم محض ثم فسروها حسب بحوثهم المتأنية المدعومة بالأدلة والبراهين.

ثم نزلوا إلى ميادين الأدب بهذا الزاد الوفير.. مما أثر فى كثير من قضايا العرب والمسلمين. وأكبر شاهد على ما ذكرنا قضية الانتحال التى نتناولها الآن.

ويعتبر «نولدكه» أول مستشرق بذر بذور الشك فى الشعر الجاهلى، وذلك فى سنة (1864)، ثم جاء بعده إهلوارد فوافق على كل ما ذهب إليه نولدكه، وزاد عليه فى توسيع دائرة الشك، ودفعها إلى من جاء بعده مثل بروكلمان، وليال باسيه، وموير.

ومجمل ما ذهب إليه (إهلوارد) يتلخص فى الآتى:

الشك فى الكثير من النصوص الجاهلية.

إن هناك حالات قليلة يمكن فيها تمييز الشعر الصحيح من المنحول، ولكن الشك يدوم فيما يعود إلى ترتيب الأبيات وشكل كل واحد منها، وأما بقية الآثار فإن الشك فيها محتوم لا مناص منه[1].

ويستشهد على دعواه بما فى دواوين الفحول الستة من الاضطراب والخلط وكثرة الروايات.

---

(1) تاريخ الأدب العربى: ص 177.

ووقف هذا الموقف، وسار فى نفس الاتجاه (كليمان هوار) سنه 1904 حيث ألقى ظلال شكه على كثير من النصوص الجاهلية، ونظر إليها بالشك والارتياب الكثير.

وجاء بعد هذا (مرجليوث) المستشرق الإنجليزى الذى ألف كتابا عن الشعر الجاهلى نشره فى سنه 1925 بعنوان «منشأ الشعر العربى» وقد ألح مرجليوث فى كتابه على توضيح ما ذهب إليه من آراء فى الانتحال والقرآن.

فهو يذهب إلى أن العرب فى الزمن القديم لم يعرفوا التدوين الكتابى للآثار الشعرية التى وصلت إلينا عن طريق الرواية، ولم تدون إلا ابتداء من منتصف القرن الثانى للهجرة، منتصف القرن الثامن للميلاد[1].

ويقول: على أن هذه الآثار الشعرية التى وصلت إلينا مشكوك فيها لما كان يفعله خلف الأحمر، وحماد الراوية، وأن الروايات مضطربة فى الشعر العربى، ولم يحفظ منه إلا ذكريات ضعيفة هزيلة.

ويتساءل: أليس عجبا ألا تلوح المسيحية فى خلال هذا الشعر إلا قليلا؟ وكيف يبدو لنا هؤلاء الشعراء القدامى؟

إنهم يبدون كجماعة يدينون بالتوحيد، وهم على علم تام بالدين الإسلامى وقصص القرآن! حتى إذا رأيناهم يتكلمون كالمسلمين ويتصرفون تصرف الوحدانيين المتزمتين - صعب علينا عندئذ التسليم بصحة الآثار المنسوبة إليهم.

ويشك أيضا فى لغة الشعر، ويقول عنها إن الشعر جاء بلغة واحدة، وليس فيه صدى للغة عرب الجنوب، وإذا تعمقنا فى دراسة هذا الشعر - وجدنا أنه يرد إلى الماضى أشياء وأموراً عرفت فى العصر الإسلامى.

ويصل إلى ذروة شكه حين يقول:

(1) تاريخ الأدب العربى: ص 178.

إن هذه المجموعات من الاعتبارات تقودنا إلى طرح السؤال الآتى:

إذا لم يعتبر الشعر الجاهلى من الداخل والخارج سابقا لظهور النبى محمد ﷺ أفيصح التسليم بوجود كمية من الشعر أضيفت إليها أشعار منتحلة؟ أم يجدر بنا على العكس رفض هذا الشعر كله، لأنه وضع بعد الإسلام.

ويقول عن القرآن: إن القرآن لا يحتوى على أى إشارة إلى الموسيقا العربية، إن أول ذكر لها ورد سنة «65 للهجرة 684م» فهل نستنتج أن العرب كانوا، يجهلون الموسيقا قبل هذا التاريخ؟. وكل ما نستطيع استنتاجه هو أن العرب كغيرهم من الأمم انتقلوا من الرقص إلى الموسيقا ثم إلى الشعر، وأن القرآن الذى يحتوى بالقوة على بعض الأوزان الشعرية يدلنا على التوسع الموحد للشعر والموسيقا، فيكون قد حصل انعكاس لظاهرة جاهلية هى فى الحقيقة ظاهرة إسلامية[1].

ويفرق بين عرب الجنوب والشمال معلنا أن الشعر العربى متأثر بالقرآن وما فيه من أساليب. قال: إن الشعر الذى سبق العصر الأموى مشكوك فيه، والدليل على ذلك أن الممالك التى تركزت فى جزيرة العرب قبل الإسلام عرفت حضارة راقية، ولكن النقوش المعاصرة لهذه الممالك وبخاصة اليمنية منها لا تدل على وجود أى نشاط شعرى. فكيف نرى والحالة هذه بدواً أقل رقيًا من الممالك المذكورة، ينظمون شعراً، يعدل فى رقيه تلك الآثار الجاهلية؟

وفى النتيجة فإن هذا الشعر يفرض تدخل عنصر حاسم لم يكن موجودا قبل ظهور النبى محمد ﷺ ألا وهو القرآن.

ويقرر أن ما أثار شكه - أيضا - هو وجود بعض ألفاظ إسلامية محضة مبثوثة فى الشعر الجاهلى، خاصة فى معلقة زهير ففيها كلمات مثل: الحساب،

(1) شرح القصائد العشر: ص 116.

والثواب والكتاب، وغيره، ويستشهد بهذين البيتين ليدل على شكه وهما من معلقة زهير:

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينتقم[1]

ثم يقول عنهما: كل هذا يذكرنا بالقرآن: الفكرة والأسلوب وحتى المفردات[2].

تلك هى النظريات التى ساقها مرجليوث فى كتابه والتى حاول من خلالها الطعن فى الشعر الجاهلى، وأنه وجد فى صورة مظلمة لا تمت للعصر الجاهلى إلا بخيط ضعيف.

ومن الجدير بالذكر أن طه حسين سار وراء هذه النظريات والآراء، وطبقها حرفيا فى كتابه (الشعر الجاهلى) سنة 1936 مدعيًا أنها من ابتكاراته مع أنها كلها مقتبسة من مرجليوث.

حتى لقد ذهب بعضهم إلى أن الدكتور طه «أغار على نظرية الشك فى الشعر الجاهلى، ولم يفترق عن مرجليوث إلا فى تسليمه بأن هناك شعرا جاهليًا: فأخذ أصل النظرية وأقوى الشبه التى استند إليها مرجليوث، وجعل يقول لك: إننى شككت فى الشعر الجاهلى، ويداعبك بقوله: ألححت فى الشك أو قل ألح علىَّ الشك؛ والحديث فى صدق وأمانة خير من هذه المداعبة»[3].

وقال ناقد آخر: «لقد كتب صاحب الكتاب بحثه ليثبت دعوى جديدة، ينسبها هو لنفسه، وتنتسب فى الحقيقة لمرجليوث»[4].

---

(1) شرح القصائد العشر: ص 116.

(2) تاريخ الأدب العربى: 178.

(3) نقض كتاب فى الشعر الجاهلى: ص 17، 18.

(4) مصادر الشعر الجاهلى: ص 411.

وقد تعرضت آراء مرجليوث لنقد عنيف من المستشرق «برونليخ» الذى عاب على مرجليوث قوله: إن الشعر يتبع الحضارة. قال: إن توسع الشعر لا يتبع الحضارة كأن نرى مثلا بعض الأقوام الابتدائيين كالإسكيمو، أو سكان جزر سالمون لا علاقة للشعر عندهم بالحالة الاجتماعية أو الثقافية، وعليه فإن وجود الشعر فى النقوش الحميرية يؤيد فقط الروابط بين الحضارة الجنوبية ونوع الحياة البدوية فى الشمال، ثم هل من اللازم أن نعيد للأذهان بأن للجنوب لغة مستقلة عن لهجات الشمال أى أنه عديم الأثر فيها. فمن الواجب ألا نعير كبير قيمة للنوادر الدالة على فقدان الوجدان العلمى عند الرواة، فإذا كان ثمة أخطاء فى معطياتهم فهى ناشئة من طرائقهم السقيمة لا عن قلة أمانتهم.

ويجب أن نكون حذرين تجاه التصحيحات التى أجريت للنصوص تحت تأثيرات إسلامية.

ومن السخف أخيرا الزعم بأن القرآن وبخاصة سورة الشعراء قد سببت فعالية الوضاعين الذين وجدوا فى النصوص القرآنية المستشهد بها حكما مبرما على الشعر الوثنى الذى أفتنوا فى وضعه.

هذه نظريات المستشرق برونليخ وهى تدلنا فى وضوح على مدى دقة مرجليوث فى كل ما ذهب إليه، وأنه وضح آراءه وخبرته فى تنقية الشعر الجاهلى من الزيف والانتحال قدر المستطاع.

تشارلس چيمس ليال

من المستشرقين الذين تكلموا فى قضية الانتحال وأحاطوها بالدراسة والتحليل وحسن العرض وقوة البيان تشارلس چيمس ليال.

وقد تتبع ليال ما قاله «مرجليوث» وفند أراءه محاولا الخروج بالقضية إلى مظهرها الواضح المعقول بدلا من الشكوك التى صبها مرجليوث عليها من مختلف الجهات. وقد بدأ ليال القول عن «صحة الشعر الجاهلى» بأن ذكر طعن المفضل فى صحة ما يرويه حماد وذلك حين قال:

قد سلط على الشعر من حماد ما أفسده فلا يصلح أبدًا...

يقول ليال فى نقده لهذا الخبر: «لو أننا قبلنا أن هذا الحديث قد قاله المفضل حقًا وسلمنا بذلك، فلا بد لنا أن نذكر أن حمادا كان معاصرًا للمفضل، وأنه ربما كان أصغر منه سنا، وأن المفضل كان من أعلم الناس بالشعر وأقدرهم على تمييز صحيحه من متحوله، وأن الرواة من العرب كانوا، من قبل أن يفسد حماد رواياتهم، قادرين على أن يفتحوا خزائن الشعر الذى يحفظونه ويروونه بين يدى المفضل، ولو أننا سلمنا بصحة ما ذكره هذا الخبر من أمر الوضع والنحل، فإن ذلك ينتهى إلى أن ما زاده حماد - كان يشبه لغة الشاعر الحقيقى الأصيل وإحساسه وعاطفته شبها يستحيل معه التمييز بينه وبين شعر الشاعر الأصيل.

فإذا كان ذلك كذلك فكيف أمكن أن يعرف أنها موضوعة منحولة؟ إذا لم يكن ثمة من يعرف القصيدة فى صورتها الأولى من غير ما أضيف إليها من زيادات موضوعة؟ ومن يكون ذلك العالم سوى المفضل نفسه؟[1].

ويذكر «ليال» مثلا آخر عن الأصفهانى يدل على تناقض ما يقال عن حماد،

(1) مصادر الشعر الجاهلى: ص 369.

فالأصفهـانى يذكر أن جماعة من الرواة كـانوا عند المهدى بعيسا باذ ومعـهم حماد والمفضل إذ خرج حاجب الخليفة فقـال للناس: يا معشر من حضر من أهل العلم: إن أميـر المؤمنين يعلمكم أنه قد وصل حـمادا بعـشرين ألف درهم لجودة شـعره، وأبطل روايته لزيادته فى أشعار الناس ما ليس منهـا، ووصل المفضل بخمسين ألفًا لصدقه وصحة روايته، فمن أراد أن يسمع شعراً جيداً محدثًا، فليسمع من حماد، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل.

ويعلق ليال على هذا الخـبر فيـقول: إنه يشك كل الشك فى أن حمـادا قد عاش حـتى سنة 158 هـ وهى السنة التى ولى فيهـا المهدى، لأن ابن خلكان يذكر أن وفاة حماد كانت سنة 155، وابن النديم فى الفهرست يقول إن وفاته كانت فى 156هـ، وفضلا عن ذلك فـإن البيتين اللذين يقال إنهـما أضيفا إلى قصـيدة زهير ليس فيهما إلا وصف عادى، وفى المجموعـات القديمة مئات من القصائد تبدأ بما يشبهها. والقـيمة الوحيدة لذكر أسماء المواضع فى هذين البـيتين هى أنهما يدلان على أن الشاعر ينتمى إلى الوطن الذى توجد فيه هذه المواضع.

فإذا لم يكن عـملا جليـلا أن يزاد على قصيـدة لزهير أبيات قـليلة وضعت مكان النسـيب الناقص، ولا ريب أن ذلك لا يدل على مهـارة خارقـة فى الوضع والنحل.

ثم يقـول «ليـال» عـن حـمـاد وخلف: من الخطأ أن نعـد هذيـن الرجلين النموذجيـين المثاليين للرواة المحترفـين الذين كانوا يروون أشعار القبائل، فـقد كان كلاهمـا من أصل فارسى، أما رواة القبـائل فكانوا من العرب، يختارهم الـشعراء ليكونوا الوسيلة التى تحفظ شـعرهم وتخلده فى صدر القبيلة والأمة العـربية بعامة وكان من هؤلاء أن أخذ الرواة الجـامعون فى القرنين الأول والثـانى الهجريين من شعر[1].

(1) راجع القصة فى الأغانى (الدار): جـ 6 ص 188.

ثم ينقد مذهب مرجليوث فيقول: إن ما ذهب إليه مرجليوث من أن الشعر القديم موضوع منحول فهو مذهب مخالف لجميع وجوه هذه القضية واحتمالاتها لأنه اعتمد على القصص التى تروى عن حماد وخلف وهى فى الحقيقة لا تمثل الواقع فى شىء وقد بينا رأينا فيها فيما سبق.

ويزيد موقفه وضوحا فيقول:

إن حماداً وخلفًا كانا يحاكيان أسلوبا للنظم كان قد قرر واتخذ صورته النهائية زمنًا طويلا قبل الإسلام، وكان قد نظم به شعراء كثيرون كانوا وثنيين أو غير مسلمين، فى زمن محمد ﷺ ثم أسلموا، وقد كثر استخدامه وسجل بالكتابة لعهد شعراء القرن الأول الهجرى، مثل جرير، والفرزدق، والأخطل، وذى الرمة، فسلسلة الرواية والنقل لم تنقطع، ولا يمكن أن تعترضنا، فى دراستنا لهؤلاء الشعراء مشكلة الوضع والنحل لأن رواتهم قد دأبوا على كتابة القصائد التى تلقى عليهم لنشرها وتخليدها.

أما الشعر الجاهلى فربما حاكاه حماد وخلف، ولكن هذه الحقيقة نفسها، «المحاكاة» تدل على وجود أصل يحاكى.. أما أن نذيع أن ما بين أيدينا لا يعدو أن يكون الصورة المحكية، وأنه لم يبق شىء من الأصل نفسه فذلك أمر لا يقره الفهم السليم على ضوء هذه الظروف[1].

ولا يكتفى «ليال» بهذا بل يصور القضية بصورة أكثر وضوحا وأقوى تعليلا فيذهب إلى أن النحل موجود فى شعر أكثر الأمم فهو ظاهرة شائعة، ثم قال: لو أننا رجعنا إلى القصائد نفسها وتأملناها مليا لتبين لنا أنها تحتوى على مذاهب شعرائها، فهى تدل عليهم من جهة، ومن جهة أخرى أن شعراء العصر الإسلامى لابد أنهم اعتمدوا فى شعرهم على أصل يأخذون عنه.

ثم هناك أمر أخير. ألا وهو هذه الألفاظ العزيزة المتينة والصور البدوية الجافة

(1) مصادر الشعر الجاهلى: ص 371.

الموجودة فى الشعر وكل هذا يبرز لنا أصالة الشعر الجاهلى وأنه موجود رغم ما ذهب إليه مرجليوث.

ويقول ليال: من الطبيعى أن يفترض المرء أن هذه القصائد اعتراها بعض التغيير فى أثناء هذا التناقل فقد تستبدل بعض الكلمات المترادفة بغيرها، وقد يؤدى عدم تثبت الذاكرة إلى إسقاط أبيات، أو تغيير فى ترتيبها، أو وضع عبارات الراوى بدل العبارات التى نسبها. ومثل هذه الظواهر شائعة فى كل مكان.

غير أننا حين نفحص القصائد ذاتها نجد فيها من الشخصية ما يكفينا للاستدلال على أن القصائد، فى معظمها، من نظم الشعراء المنسوبة إليهم. فالمعلقات السبع مثلا كلها قصائد ذات شخصية وخصائص واضحة، وتعرض لنا سبع شخصيات متميز بعضها عن بعض كل التميز. ونجد الأمر نفسه فى القصائد الثلاث الباقية (للأعشى والنابغة وعبيد) التى عدها بعض النقاد من المعلقات، فقد تركت شخصية امرئ القيس وزهير ولبيد والنابغة والأعشى طابعها على شعرهم ثم يقول: ومن جموح الخيال أن نظن أن معظم القصائد المنسوبة لهم مصنوعة فى عصر متأخر، صنعها علماء عاشوا فى ظروف مغايرة تمام المغايرة، وفى حياة شديدة الاختلاف عن حياة الأعراب فى الصحراء العربية.

والأمر الثانى الذى يقوله «ليال» عن وجود الشعر الجاهلى وأنه غير منحول. هو أن شعر القرن الأول الهجرى يتضمن وجود هذا الشعر الجاهلى ويفترض سبقه عليه، فقد استمر شعراء القرن الأول مثل جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم يتبعون تقاليد الشعراء الجاهليين، فقد استعملوا ذخيرتهم الشعرية مرارا متكررة، متناولين الموضوعات نفسها والأسلوب نفسه، محسنين ومحورين ومقتبسين، ولكنهم ما يزالون متقيدين بالتقاليد نفسها.

والسبب الثالث الذى يذكره «ليال» للدلالة على وجود الشعر الجاهلى، هو أن الشعر القديم ملىء بألفاظ كانت غريبة على العلماء الذين كانوا أول من عرض هذا الشعر على محك النقد، فقد كانت تنتمى إلى مرحلة لغوية أقدم من

عصـرهم، وكانت غيـر مستـعملة فى الزمن الذى كـتبت فيـه القصائد وجـمعت الدواوين. ولابد من أن يتنبـه كل من اتصل بالشـروح القـديمة وعـرفهـا إلى أن الشراح الذين يخـتلفون فيـما بينهم اختـلافا كبـيرا توصلوا إلى شرح الصـعوبات بمقابلة عبارة بأخرى، وبالجـدل والنقاش، لا بالرجوع إلى لغة الخطاب التى لم تعد تحوى الألفاظ التى يبحـثون عن معناها. وتعتمد المعاجم كل الاعتـماد على الشعر القديم وعلى القـرآن والحديث وتفـترض صحـة الشعر كـما تسلم بصحـة القرآن والحديث.

ومجمل ما قاله «ليال» يتضح فى الآتى:

إن الشعر الجاهلى موجود لا محالة مهما اشتط مرجليوث ومهما أشاع حوله من شكوك.

إن الشعر الإسلامى سار على النمط الذى سار عليه الشعر الجاهلى، وأمامنا صور كثيرة لهذا الشعر تدلنا فى صراحة وصدق على متانة أسلوبه وقوة ألفاظه فهو قطعة من البادية التى أخرجته.

إن الانتحال مـوجود فى شعر الأمم كلها فلمـاذا التجنى على العرب والحط من شعرهم وتراثهم بدعوى أنه مفقود ومنحول.

وبعد - فهذه شـهادة مستشرق من المستشـرقين استطاع أن يحق الحق ويعلنه فى صراحه بدون خفاء مظهرا أصالة الشـعر العربى ووجوده فى القديم، وهو بهذا يخالف كل المخالفة ما ذهب إليه مرجليوث.

فى الأدب الجاهلى

نعرض الآن للون آخر من البحث لم يذهب إليه أحد من الأدباء المحدثين الذين يتناولون كثيرا من المسائل النقدية والأدبية بذوقهم الوافر وعلمهم الغزير.

وقد ذكرنا سالفا بعض آراء المستشرقين المعتدلين، الذين فهموا الشعر الجاهلى فأنصفوه من خلال دراستهم الواعية، وأشاروا إلى بعض الأبيات المنحولة فيه، مثله فى ذلك مثل أى شعر عند أى أمة من أمم الأرض، ومع أن هذه الأبيات القليلة المنحولة نبه عليها علماء العرب ووضحوها بالشرح والتحليل فى دقة وإتقان إلا أن طه حسين طرح هذا كله، وألح بشدة على تصيد الآراء من هنا وهناك ليقيم بها حجة ودليلا، ويلبسها ثوب النظام والتفكير الجاد والابتكار.

ومن المؤسف أن ما أتى به ليس جديدا كما أشار وزعم بل كان مقتديا (بمرجليوث) فى كل ما ذهب إليه.

فقد أنكر طه حسين الشعر الجاهلى جملة، وادعى أنه موضوع بعد الإسلام.

قال[1]:

«فأول شىء أفجؤك به فى هذا الحديث - هو أننى شككت فى قيمة الأدب الجاهلى، وألححت فى الشك، أو قد ألح علىَّ الشك، فأخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبر، حتى انتهى بى هذا كله إلى شىء إلا يكن يقينا فهو قريب من اليقين ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبا جاهليا ليست من الجاهلية من شىء، وإنما هى منحولة بعد ظهور الإسلام، فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين.

ولا أكاد أشك فى أن ما بقى من الأدب الجاهلى الصحيح قليل جدا، لا

(1) فى الأدب الجاهلى: ص 65.

يمثل شيئا، ولا يدل على شيء ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصور الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي[1].

وقد كان هذا الإعلان بمثابة صدمة كبيرة لكثير من النقاد والأدباء المعتدلين الذين جردوا أقلامهم للرد عليه وتفنيد آرائه، وتوضيح زيف ما ذهب إليه.

ومن هؤلاء الشيخ محمد الخضر حسين الذي رد عليه بكتابه «نقض كتاب في الشعر الجاهلي»، والأستاذ محمد الخضري في كتابه «محاضرات في بيان الأخطاء العلمية والتاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي»، والأستاذ محمد أحمد الغمراوي في كتابه «النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي»، والأستاذ الرافعي في كتابه «تحت راية القرآن»، والأستاذ محمد فريد وجدي في كتابه «نقد كتاب الشعر الجاهلي»، والأستاذ محمد لطفي جمعة في كتابه «الشهاب الراصد».

ولا نستطيع أن نتتبع هؤلاء في كل ما ذهبوا إليه وسنكتفي بما يثير جوانب هذه القضية ويضعها في وضعها السليم.

ونسرد الآن أراءه في كتابه ونحاول أن نرد عليها ونبين الأسباب والدواعي التي جعلته في شكه الذي بلغ منه مداه.

منهج بحثه:

وضح المؤلف خطة بحثه فيما يأتي حيث قال[1]: أحب أن أكون واضحا جليا، وأن أقول للناس ما أريد أن أقول دون أن أضطرهم إلى أن يتأولوا، ويتحملوا ويذهبوا مذاهب مختلفة في النقد والتفسير والكشف عن الأغراض التي أرمي إليها[2].

---

(1) في الأدب الجاهلي: ص 65.

(2) المرجع السابق: ص 67.

أريد أن أقول إنى سأسلك فى هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة. أريد أن أصطنع فى الأدب هذا المنهج الفلسفى الذى استحدثه «ديكارت» للبحث عن حقائق الأشياء فى أول هذا العصر الحديث.

والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هى أن يتجرد الباحث من كل شىء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالى الذهن مما قيل فيه خلوا تاما .

والناس جميعا يعلمون أن هذا المنهج الذى سخط عليه أنصار القديم فى الدين والفلسفة يوم ظهر كان من أخصب المناهج وأقواها وأحسنها أثرًا، وأنه قد جدد العلم والفلسفة تجديدًا، وأنه غير مذاهب الأدباء فى أدبهم والفنانين فى فنونهم وأنه الطابع الذى يمتاز به العصر الحديث[1].

ويقول: كان القدماء مخلصين فى حب الإسلام، فأخضعوا كل شىء لهذا الإسلام وحبهم إياه، ولم يعرضوا لبحث علمى ولا لفصل من فصول الأدب أو لون من ألوان الفن إلا من حيث إنه يؤيد الإسلام، ويعزه، ويعلى كلمته، فما لاءم مذهبهم هذا أخذوه، وما نافره انصرفوا عنه انصرافا. أو كان القدماء غير مسلمين يهودا أو أنصارى أو مجوسا أو ملحدين أو مسلمين فى قلوبهم مرض وفى نفوسهم زيغ، فتأثروا فى حياتهم بمثل ما تأثر به المسلمون الصادقون:

تعصبوا على الإسلام، ونحوا فى بحثهم نحو الغض منه والتصغير من شأنه، فظلموا أنفسهم وظلموا الإسلام وأفسدوا العلم وجنوا على الأجيال المقبلة.

ولو أن القدماء استطاعوا أن يفرقوا بين عقولهم وقلوبهم، وأن يتناولوا العلم على نحو ما تناوله المحدثون لا يتأثرون فى ذلك بقومية ولا عصبية، ولا ما يتصل

(1) المرجع السابق: ص 67.

بهذا كله من الأهواء لتركوا لنا أدبا غـير الأدب الذى نجده بين أيدينا ولأراحونا من هذا العناء الذى نتكلفه الآن.

فلو أن الفلاسفة ذهبوا فى الفلسـفة مذهب «ديكارت» منذ العصور الأولى، لما احتاج «ديكارت» إلى أن يسـتحدث منهجه الجـديد. ولو أن المؤرخين ذهبوا فى كتابة التاريخ منذ العصور الأولى مذهب «سينوبوس» لما احتاج «سينوبوس» إلى أن يستحدث منهجه فى التاريخ.

ويقول: فلندع لوم القـدماء على ما تأثروا به فى حـياتهم العلمية مما أفـسد عليهم العلم. ولنجتهد فى ألا نتأثر كما تأثروا، وفى ألا نفسد العلم كما أفسدوه. ولنجتهد فى أن ندرس الأدب العربى غيـر حافلين بتمجد العرب أو الغض منهم، ولا مـعنيين بالملاءمة بينـه وبين نتائج البـحث العلمى والأدبى، ولا وجلين حـين ينتهى بنا هذا البحث إلى ما تأباه القوميـة أو تنفر منه الأهواء السياسية، أو تكرهه العاطفة الدينية.

فإن نحن حـررنا أنفسنا إلى هذا الحد فليس من شك فى أننا سنصل ببـحثنا العلمى إلى نتائج لم يصل إلى مثلها القدماء.

هذا هو رأى طه حسين فى بحثه ومنهجـه فقد أراد أن يخرج لنا بحثًا طريفًا لم يعرفه العرب بعد، يفتخر به على العلماء، يطبق فيه منهج «ديكارت» المبتكر.

فهل وفق فعلا فى هذا؟ وهل ما جاء به جديد حقا؟

وهل طبق منهج ديكارت بصدق؟ هذا ما سنعرفه بعد قليل.

قال الأستاذ محمد لطفى جمعه فى رده عليه[1].

إن مؤلف الشعر الجاهلى شغوف بالشك لذاته لتمام الموافقة بينه وبين مزاجه وعقله، وهذا المـزاج التشكيكى يجعل مـؤلف الشعـر الجاهلى أمام نقطـتين يجب البحث فيهما.

(1) الشهاب الراصد: ص 17 ط المقتطف.

الأولى: هل كان ديكارت فيلسوفا متشككا؟

والثانية: هل يأخذ العلماء الشك وسيلة لليقين أو يجعلونه غاية لمجرد التلذذ به لذاته؟ أما عن الأولى: فإن الفلاسفة منذ ظهروا على وجه الغبراء، ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الفلاسفة الروحانيون وهم القائلون بقوة باطنية روحانية خلقت الكون وتدبره، وهم المؤمنون بالغيبيات.

القسم الثانى: الفلاسفة الماديون الذين يخالفون القسم الأول: ويقولون بأزلية المادة وقوتها وأنها الكل وأنها وسيلة الكون وغايته.

القسم الثالث: فريق المتشككة وهم القائلون بوصول المعلومات إلى الذهن الإنسانى عن طريق الحواس، وهم يقولون إنه من حيث إن الحواس قد تخدع أحيانًا فلا يمكن أن تصل تلك المعلومات إلى الذهن بصفة يقينية دائما وفى كل الأحوال.

فهؤلاء الفلاسفة المتشككون يبقون دائما فى شك لأن طريقة وصول المعلومات إلى ذهنهم مشكوك فى سلامتها. أما ديكارت فليس من هؤلاء وكل مؤرخى الفلسفة يقرون ذلك فى كتبهم، بل مؤلفات ديكارت ذاتها شاهدة بأن فلسفته مثبتة على عبارة يقينية وهى «أنا أفكر فإذاً أنا موجود» هذه هى النقطة الأولى وغايتها أن ديكارت ليس من الفلاسفة المتشككين كما ظن مؤلف الشعر الجاهلى.

أما النقطة الثانية: فهى أن الشك المطلق الذى يمجده مؤلف الشعر الجاهلى ويتلذذ به، وبما يورثه من اضطراب وقلق لا يمكن أن يكون وسيلة دائمة لتفكير الحكيم بل يجوز أن يكون الشك سلما للوصول إلى حكم يقينى، كما كانت حال ديكارت لأن غاية كل عالم و مفكر وباحث هى الوصول إلى الحقيقة، والحقيقة لا تظهر إلا فى ثوب اليقين، وقد بلغ حب مؤلف الشعر الجاهلى للشك درجة عجيبة فإنه لم يكتف بأن جعله وسيلة للبحث بل جعله غاية.

على أن الطبقة المستنيرة ممن قرأوا الكتاب بإمعان - يعلمون يقينا أن طريقة ديكارت لم يحسن تطبيقها أحد سوى تلاميذه المباشرين أمثال (مالبرانس) و(اسبينوزا).

ويقول عن كتاب طه حسين: إنه ليس مبتكرا كما ظن أو كما أشاع: ويعدد الكتب والمراجع القديمة التى تناولت هذا الموضوع فيقول: هذه هى أهم المصادر التى بحث أربابها فى انتحال بعض الشعر الجاهلى أو حمله على شعراء الجاهلية حملا. وإنما ذكرنا المصادر لندل قراء العربية على أن هذا البحث ليس حديثا ولا مبتكراً إنما هو قديم يرجع إلى عهد صاحب الأغانى ومن روى عنه صاحب الأغانى بسند صحيح، وأن مؤلف الشعر الجاهلى على الرغم من تعظيم قدر بحثه بوصفه بالحداثة والطرافة والابتداع، فإنه لم يبرز فكرة جديدة لامعة.

بل لم يعن بالبحث عناية الذين ألموا به من القدماء والمحدثين، بل أخذ بعض أفكارهم وابتكاراتهم ولم يعرها رونقا ولا جزالة وجرد من نظريتهم رسائله[1].

ويقول عن الطريقة التى اتبعها طه حسين فى بحثه: ما هذا الاستمرار فى ذكر ديكارت حتى ملته نفس القارئ وزهدته، وضعفت ثقته فيه. فهو تارة فى رأى المؤلف مظهر الكمال الكلى، وطورا نرى منهج ديكارت خصبا فى العلم والفلسفة والأدب والأخلاق والحياة الاجتماعية، وأن منهج ديكارت هو الطابع الذى يمتاز به العصر الحديث، وأننا نرى فى خجل وأسف أن المؤلف عرض بديكارت وآذاه، وحمله وزر أغلاطه[2].

ثم يقول: ومن العجيب أن يقول مؤلف الشعر الجاهلى: إن عصرنا يحمل طابع ديكارت، ونحن لسنا كغيرنا نحاول أن نخدع أنفسنا بمراجعة الماضى، فنلقى

---

(1) الشهاب الراصد: ص 28.

(2) المرجع السابق نفس الصفحة.

على كاهل حكيم واحد عبء محصول الفكر البشرى منذ رحل ديكارت عن هذا العالم فى وسط القرن السابع عشر، فقد حل محله من بحثوا فى أعظم مسائل الكون من جهتها الإيجابية والسلبية، وكانت أمانيهم الوصول إلى الحقيقة، وسر العدالة العميق، وكنه الفضيلة، وحلم خلود النفس، وقواعد الحب، ووساوس العقائد[1].

ونحن نصرح بأن هذه الطريقة عقيمة ومخالفة للعلم ولا يجوز أن تسمى طريقة علمية لأن فيها ازدراءً لكل قواعد البحث العلمى الصحيح فلا تحتمل الفحص فى نظر الباحثين فى الغرب والشرق.

وناسف كل الأسف لمواربة المؤلف فى نقل الأخبار وسوء التعليل وخطأ التفسير فإن معظم آرائه يجب أن يعرض عنه.

على أن الحق فى مسألة الشعر الجاهلى أمنع من أن يمضغه مكابر مهما كان مولعا بالمناقضة، نزاعا إلى القول بما لا يقول به الجمهور، ولو لم يكن فى نفسه جازما بصحة ما يدافع عنه، كل ذلك فى سبيل الظهور بابتداع شىء جديد والإتيان بفكرة غير مسبوقة.

(1) الشهاب الراصد: ص 28.

حول كتاب فى الأدب الجاهلى

ألف طه حسين سنة 1926 كتابه (فى الشعر الجاهلى)، ثم أعاد طبعه وغير عنوانه فأصبح (فى الأدب الجاهلى).

ويقع الكتاب فى سبعة كتب، ضمنهـا أفكاره المأخوذة عن المستشرقين الذين سبقوه. قال بلاشير:

وإذا لم يضف طه حسين على بحث مرجليوث شيئا فإن له مزية زلزلة مجموعة المدركات المقبولة بسهولة فى الشرق الأدنى[1].

فـفى الكتـاب الأول: تناول المؤلف الصلة بين الأدب وتاريخه، والأدب الإنشائى والأدب الوصفى ومقاييس التاريخ الأدبى والحرية والأدب.

وفى الكتاب الثانى: وضح منهجه والطريق الذى سيسلكه فى معالجة الأدب الجاهلى شعره ونثره مدعيا أنه سيحتذى مذهب ديكارت ويطبقه ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

وتحدث عن الحياة الجاهلية، والأدب الجاهلى، واللغة العربية، والشعر الجاهلى واللهجات.

وبين فى الكتاب الثالث: أثر الرواة، والسياسة والدين والقصص الشعوبية فى انتحال الشعر، وسنعرض لكل هذا بتفصيل بعد قليل.

وخصص الكتاب الرابع لدراسة بعض شعراء الجاهلية مثيرا الشك فى سيرة امرئ القيس وشعره، قال[2]:

---

(1) تاريخ الأدب العربى: ص 181.

(2) فى الأدب الجاهلى: ص 204.

وهذا البحث ينتهى بنا إلى أن أكثر الشعر الذى يضاف إلى امرئ القيس ليس من امرئ القيس فى شىء، وإنما هو محمول عليه حملا، مختلق عليه اختلاقا، حمل بعضه العرب أنفسهم، وحمل بعضه الآخر الرواة الذين دونوا الشعر فى القرن الثانى للهجرة[1].

وهذه النتيجة التى ذكرها تنطبق - فى نظره - على شعر المهلهل، والحارث ابن حلزة، وطرفة والمتلمس والأعشى وغيرهم.

وفى الكتاب الخامس: عرض للنابغة، وزهير، والحطيئة، وأوس بن حجر وتناول الشعر المضرى وكثرته.

وفى الكتاب السادس: تناول الشعر العربى وعرفه، وذكر موقف المعاصرين منه ثم عرض لفنون الشعر.

وفى الكتاب السابع والأخير: تحدث عن النثر وأنكره إنكاراً تامًا قال عنه:

فإذا نحن التمسنا تاريخ النثر عند العرب الجاهليين على ضوء هذه النظرية، فقد يكون من العسير جدا، إن لم يكن من المستحيل أن نهتدى الآن إلى شىء قيم ذلك لأننا مضطرون إلى أن نقف من النثر الجاهلى نفس الموقف الذى وقفناه من الشعر الجاهلى[2].

وبعد.. فهذا هيكل كتاب طه حسين (فى الأدب الجاهلى) عرضناه فى إجمال أما تفصيل بعضه ورد العلماء عليه فهذا ما تناولناه منذ قليل، وسنعرض له فى كتاب آخر بإذن الله تعالى.

---

(1) المرجع السابق: ص 328.

(2) فى الأدب الجاهلى: ص 328.

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	5
الباب الأول	7
الفصل الأول: موطن العرب	9
الحياة السياسية فى العصر الجاهلى	16
الحياة الاجتماعية	19
الحياة الدينية	24
الحياة العقلية	32
الفصل الثانى: تطور كلمة أدب فى مختلف العصور	37
تاريخ الأدب بين العرب والإفرنج	46
ما هو الأدب؟	50
الفصل الثالث: الشعر عند العرب وأثره فى حياتهم	57
جمع الشعر الجاهلى	74
أنواع الشعر	85

الباب الثانى	103
الفصل الأول: المناذرة	105
الغساسنة	112
كلمة العرب: أصلها التاريخى ومدلولها	115
اللغة العربية	118
الفصل الثانى: أسواق العرب فى الجاهلية وأثرها الأدبى	125
العوامل المؤثرة فى الأدب	135
المعلقات	146
أصحاب المعلقات	157
الباب الثالث	195
الفصل الأول: النثر الجاهلى	197
الخطابة فى العصر الجاهلى	205
الوصايا	216
المنافرات	218
الحكم والأمثال	221
الفصل الثانى: الشعر الجاهلى وفنونه	233
الحماسة	236

الموضوع	الصفحة
الوصف	239
الرثاء	243
المدح والهجاء	246
النسيب	249
الصعاليك	255
الفصل الثالث: قضية الانتحال بين القدماء والمحدثين	263
آراء ابن سلام الجمحى	267
تاريخ آداب العرب	277
قضية الانتحال عند المستشرقين	283
تشارلس چيمس ليال	288
فى الأدب الجاهلى	293
حول كتاب (فى الأدب الجاهلى)	300

مسرحيات [مصر]

للأستاذ الدكتور / عبد الرحمن عبد الحميد علي

عميد كلية اللغة العربية بالزقازيق

م	اسم المسرحية	م	اسم المسرحية	م	اسم المسرحية	م	اسم المسرحية
1	سيناء	25	السائق	49	الحب	73	كلية البنات
2	الجميل	26	الطبيبة	50	توصيلة	74	أولاد الذوات
3	الموتى	27	الدوامة	51	الشرقية	75	شارع عبد العزيز
4	المطاردة	28	المصور	52	الحرية	76	عائلة اخناتون
5	السلام	29	المدير	53	التمثيل	77	الرقص على النيل
6	الجزاء	30	النشيد	54	الدرويش	78	الكوميديا المصرية
7	الأهرام	31	الزواج	55	الأصدقاء	79	سيناء الجزء الأول
8	المحامون	32	برديات	56	البوليس	80	سيناء الجزء الثاني
9	الأنابيب	33	العولمة	57	دار الكتب	81	سيناء الجزء الثالث
10	المرايا	34	الخلية	58	الصيدلية	82	سيناء الجزء الرابع
11	الوزير	35	الحقيبة	59	القليوبية	83	سيناء الجزء الخامس
12	أوبرا	36	أمريكا	60	المنوفية	84	جواري السلطان
13	الخلفاء	37	الإسكندرية	61	الدقهلية	85	الأجندة الحمراء
14	الصحف	38	البنوك	62	صدف الحياة	86	مساكن الضباط
15	الأشرار	39	المراقبة	63	سلة النساء	87	برلمان النساء
16	الجامعة	40	الصينية	64	الأبيض والأسود	88	القصر الجمهوري
17	العميان	41	سيناريو	65	الأصل والصورة	89	مغامرات عجوز
18	النوادي	42	المتحذلقون	66	الجدران الزائفة	90	المدرسة
19	الهجرة	43	بور سعيد	67	أقطار الفضاء	91	القطار
20	المستشفى	44	توشكي	68	الفرعون والنيل	92	صاحب العمارة
21	السوق	45	الاستنساخ	69	باب الحديد	93	الطبيب النفسي
22	الاستعراض	46	المعضلة	70	بين السورين	94	الأربعون حرامي
23	الأخبار	47	الشياطين	71	زوجة المحافظ	95	
24	الفندق	48	أحلام الصيف	72	الملك الكبير	96	

مكتبة
الأدب
المغربي

تاريخ الأدب
في العصر الجاهلي

سامراء